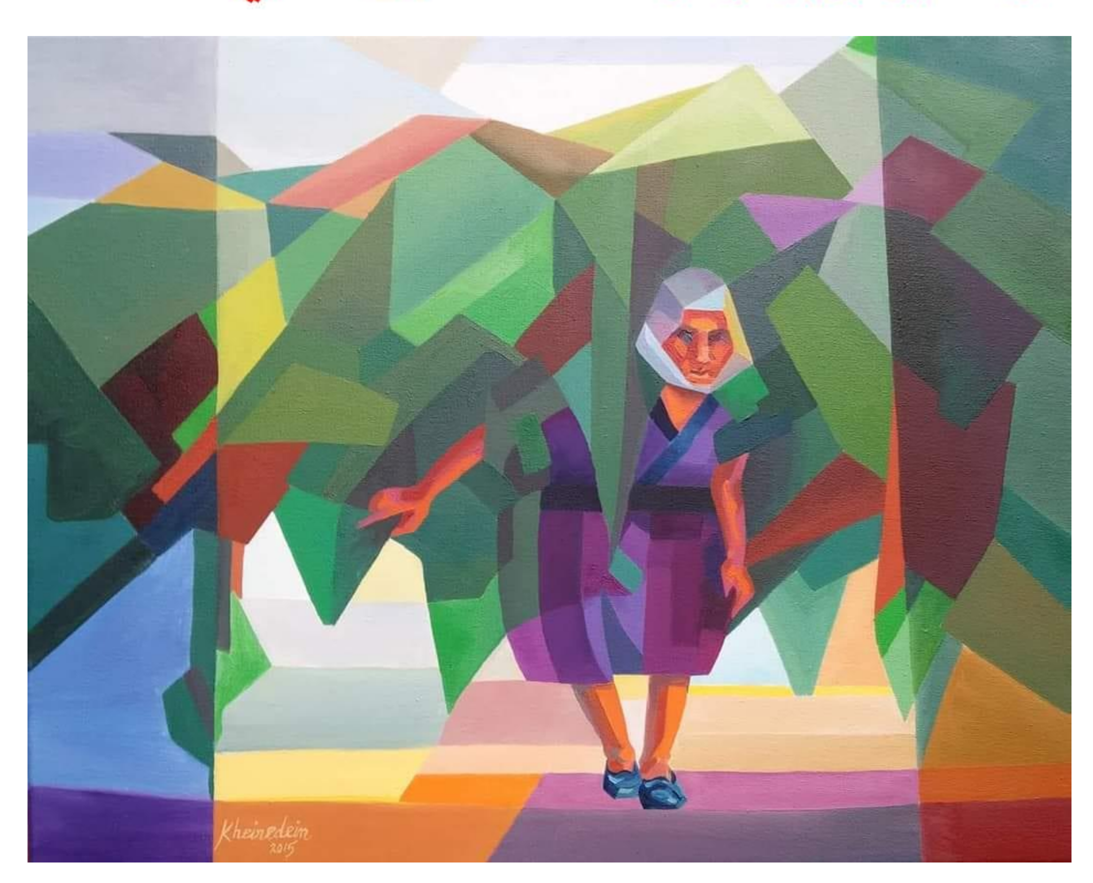
العدد الخامس عشر

كانون الثاني – 2022





إدلب واستعادة الثقافة السورية

مجلة تعنى بشؤون الفكر و الثقافة والإبداع

تصدر عن رابطة الكتاب السوريين



العدد الخامس عشر – كانون الثاني 2022

مجلة تعنى بشؤون الفكر والثقافة والإبداع

تصدرها رابطة الكتاب السوريين



https://www.syrianwa.net

المراسلات باسم رئيس تحرير مجلة أوراق على البريد الإلكتروني:

awraq@syrianwa.net

صفحة الرابطة في موقع فيس بوك

https://www.facebook.com/Syrian-Writers-Association

فهرس العدد

إدلب واستعادة الثقافة السورية

أنور بدر

رئيس التحرير

انصبَّ جهدنا في الأعداد الأخيرة من مجلة أوراق، على مسألة الخطاب السوري في زمن الثورة، خطاب السوريين الذين اكتشفوا أنّ نظام الاستبداد وعبر نصف قرن من تسلطه على الدولة والمجتمع قدّ مزّق النسيج الوطني للسوريين، وترك أغلبهم يتوزّعون أديانا ومذاهب، وقوميات وإثنيات، وجهويات ومناطق، وتيارات وأحزاب، لا جامع بينهم إلا في حدود المصالح التي تُسيطر عليها تلك السلطة، فتمنح من تشاء وتُقصي من تشاء.

لأن تلك السياسة شكّلت أحد أهم أدوات السيطرة والإخضاع التي اعتمدها النظام قبل الثورة وفي عقدها الأخير، ويبدوا الأمر مفهوما من منظار مصالح ديكتاتورية عسكرية فاسدة وفاشلة بآن معاً، لكنّ السؤال: كيف انزلقت المعارضة السورية إلى خندق النظام، وقاتلته على أدواته المسمومة؟ وكيف ساوقته في ممارسة الإلغاء والتهميش؟ وكيف انتصرت تلك المعارضات، بحسن نية أو بسوئها، لمظلومياتها التاريخية على حساب شعارات الثورة وأهدافها الأساسية؟ حين تصارعت مع النظام، وفيما بينها، على الحسابات العددية للعشائر والقبائل، أو للطوائف والمذاهب، أو للإثنيات والقوميات؟ دون أن تفضي تلك الصراعات إلا لتشويه وجه الثورة ومقاصدها في الحرية والديمقراطية ودولة المواطنة المتساوية، كما ساهمت في تأكّيد سرديات النظام حول طبيعة المعارضة الجهادية والمتطرفة، مما صبّ القمح في طاحونته وطاحونة حلفائه، وتركتنا عراة ومهزومين على بيدر النتائج العسكرية والسياسية.

إشكالية هذه المعارضة وبعض من مثقفيها، أنهم ذهبوا مع النظام في إلغاء الآخر وتهميشه، لم يدركوا قيمة الثقافة في مواجهة الاستبداد، فكانوا مستبدين ببعضهم البعض

لمجرد اختلاف في الهوية أو لموقف سياسي، معتبرين أنفسهم بذلك الأكثر انتماءً وإخلاصاً للثورة، فيما هم يَئِدونَ الثورة في رمال عنصريتهم التي لا تؤمن بالحرية والديمقراطية، ويرفضون تقبل الآخر والانفتاح على العصر والعالم.

لذلك نستعيد تلك الأسئلة الأولى بعد عقد ونيف على انطلاقة الثورة: هل نحن السوريون حقيقة كما رسم النظام خرائطنا وانتماءاتنا؟ هل نحن بدون هوية وطنية يُمكن أن تجمعنا؟ هل نحن حقيقة مجموعة من الانتماءات المتصارعة على مائدة السلطان؟ وفي مواجهة بعضنا البعض الآخر؟

*****

نعرف أنّ زمن الثورة هو نقيض زمن الاستبداد، الذي اعتمد الإلغاء والتهميش، وبالتالي على الثورة لكي تكون جديرة بطموحات التغيير أن تستعيد الهوية الوطنية المُضيّعة، هوية مجتمع مزّقه الاستبداد والفساد، دون أن يعني ذلك إلغاء الهويات أو الانتماءات الصغرى أو الكبرى أو الصراع معها، بقدر ما يعني تأكيداً لها واعترافاً بكل حمولاتها العقائدية والثقافية، لأنّ فيها إغناءً للهوية الوطنية ونزع لفتيل الانقسام أو التقسيم، كما نرى في الدول والمجتمعات الديمقراطية، فهوية أي مجتمع حرٍّ تُبنى من خلال الاعتراف بوجود الجميع وبحقوقهم المتساوية بغض النظر عن أي حسابات عددية أو أرقام شكّلية، فالحقوق والحريات لا تتجزأ.

وإشكالية السوريين مع سلطة البعث لم تكن في تنوعهم أو تعدد هوياتهم، فهذه سمةٌ تاريخية لأكثرية المجتمعات والدول وحتى للمذاهب والأفكار، حيث تستمر وتتعايش تلك الهويات وتغني بعضها البعض، كما شاهدنا في سنوات الاستقلال الأولى لسوريا، أو ما نشهده في كل الدول الديمقراطية الحديثة في العالم راهنا، فذلك الوجود وإمكانية الاستمرار تقوم على التعايش والاعتراف المتبادل وليس على الصراع والنفي، وذلك التعايش لا يمكن أن يوجد ويستمر إلا في إطار دولة ديمقراطية تقوم على أساس الحريات والاعتراف بالمواطنة المتساوية، وهي الشعارات التي رفعها السوريون في آذار

2011، قبل أن تُسرق شعاراتهم باسم المظلوميات المتعددة الدينية والاثنية والعشائرية وحتى المناطقية أيضا.

واعتقد أننا في رابطة الكتاب السوريين، وفي مجلة أوراق تحديدا، مدعوون دائما لنقاش أسئلة الثقافة وفضاءات المعرفة التي يمكن أن تساعدنا في بلورة الهوية الوطنية لسوريا المستقبل، سوريا التي نفتخر دائما بإرثها الحضاري والثقافي الذي يمتد لآلاف السنين، إرث كان يبني دائما ويضيف إلى التاريخ، لا يهدم الآثار ولا يدمر مظاهر الحضارة والعمران، ولا يفجر كنيسة أو معبدا، ولا يغتال تمثال أبو العلاء المعري القابع في بلدته معرة النعمان، فسوريا هي كل تلك الحضارات التي تعاقبت وصنعت تاريخنا وثقافتنا، ومن يمارس تلك الأفعال باسم الثورة أو الدين أو القومية إنما يعتدي على تلك المسميات وعلى سوريتنا وهويتنا الوطنية وعلى الثورة كقيمة تنشد الحرية والتغيير.

وربما تكون محافظة إدلب التي نتوقف معها في هذا العدد، أحد أبرز مناطق الاقصاء والتهميش منذ تولي آل الأسد للسلطة، وحتى في زمن الثورة حيث حوّلها، بمباركة حلفائه، وقبول المجتمع الدولي، إلى "غيتو" أو منفى لكل المعارضين والجهاديين، باعتبارهم صورة الإرهاب التي اتفق المجتمع الدولي على أولوية الحرب ضده، وضد المدينة كحاضنة له، وتاليا ضرورة محوها من الوجود.

لذلك أردنا في هذا العدد أن نكتشف الوجه الحقيقي لمدينة إدلب، في عمقها الحضاري وفي بعدها الثقافي وفي زيّتونها الغني، في أسماء كانت ولا زالت الأجمل والأبهى لثقافتنا السورية، وسنكتشف في هذا العدد كيف انتصر الناس في إدلب على الصورة التي أطرهم بها النظام، رافضين كل الهويات المزعومة لهم، مناضلين من أجل استعادة هويتهم السورية التي ضيّعها الاستبداد الأسدي.

هذه الهوية السورية سمعناها في أهازيج الثورة الأولى واحتفالاتها، قرأناها في يافطات كفر نبل وشاهدناها في جداريات سراقب وفي مظاهرات بنش، وفي كل الكتابات الإبداعية والأعمال الفنية، والتعبيرات الثقافية، ثقافة تمتد عبر الحضارات القديمة

وآثارها، وتمتد في أصالة التعبير عن ذاتها وعن انتمائها للمكان والمجتمع، وفي رفضها سلطة الاستبداد مهما ارتدى من أقنعة ومهما رفع من رايات، ثقافة أكّدت الوجه المشرق لثورتنا ولسورية المستقل التي نطمح إليها.



شكر وتنويه

نتوجه في هيئة تحرير أوراق بالشكر إلى كل الزملاء والأصدقاء الكتاب الذين ساهموا معنا في الكتابة وفي إنجاز هذا العدد 15، ونخص بالشكر الزميل حسين جرود على مساهمته الدؤوبة بالكتابة وفي صياغة ملف العدد، كما نشكر كل المساهمين في ملف "إدلب واستعادة الثقافة السورية"، مؤكدين أنّ هيئة التحرير لم تتدخل في مضمون أيٍ من الكتابات المتباينة والتي تعبر كل منها عن وجهة نظر كاتبها فقط.

كما نشكر الكتاب والمبدعين الذين ساهموا معنا في ملفات الابداع شعراً وقصةً ونقداً أدبياً ودراساتٍ، دون أن نغفل عن شكر الفنان السوري المبدع خير الدين عبيد من إدلب، والذي زينت لوحاته غلاف العدد والكثير من مواد بداخله، مع لوحات إضافية لفنانين وأسماء مهمة من إدلب، علما بأن كل المساهمات هي تطوعية، لغياب أي تمويل لمجلة أوراق ومن أي جهة كانت، لذلك نحن ندين بالشكر والعرفان لجميع الزملاء المشاركين في هذا العدد تقديرا لجهودهم، وننوه بشكر إضافي للأصدقاء والزملاء الذين يُصرّون رغم صعوبة الظرف العام، على المشاركة بشكل مستمر.

فنحن ندين لهؤلاء المبدعين والمثقفين بالتقدير والعرفان كمساهمين معنا وشركاء في نجاح مجلة "أوراق" ودورية صدورها، كما نشكر كالعادة أيضا كل الأصدقاء والكتاب والمثقفين الذين حالت ظروفهم دون المشاركة في هذا العدد، على أن نلتقي بكم دائما على صفحات أوراق وأعدادها القادمة.

هيئة تحرير أوراق

2022/01 /05

أوراق الملف

إدلب واستعادة الثقافة السورية

إدلب يجب أن تدمَّر!

"توليفة ثقافية أهوالية"

إبراهيم محمود

باحث ومفكر كردي سوري، متفرغ للكتابة والبحث العلمي منذ عام 2002.

هل نفتتح المقال/ البحث هذا بعبارة "لنمض إلى إدلب!"؟ أم ترانا نعيش إدلب هذه، كما نعيش شقيقاتها المدن الأخرى وهي تتوزع في حيواتها الجغرافية ومن ثم الإنسانية بين ما هو قتل وخوف من قتل واستعداد لخوف من خوف من القتل منذ أكثر من عقد من الزمن؟ أكثر من ذلك، أكثر من ذلك بكثير وكثير جداً، في أي جهة تقع إدلب الآن، وهي لم تعد إدلب الآن، كما كانت، حيث كان عميد سخريتها وأبعد في الكتابة حسيب كيالي "1921– 1993"، إنما إدلب التالي عليه في السخرية وكيمياء المفارقات المرة خطيب بدلة "1952–..." في " كوميديا الاستبداد "2018"، وليست إدلب التي احتضنتها عن قرب قبل عشرين عاماً، صحبة الكاتب ومدير الثقافة فيها عبدالحميد مشلح، صاحب "الظاهر والمدفون في بلد الزيتون"، إنما حيث يبكي زيتونها مناجياً أهله، وحيث تبكي تربتها الثكلى، مناجية أصوات فلاحيها وأهليها ممن كانوا يأتنسون بها، وهي تتبسط بأريحية وحميمية أمام طلاقة أغانيهم ومسامراتهم؟

إدلب اللاإدلب، إدلب اللامكان، في عهدة المكان المدمَّر، المنفلق، الملغّم، المتفجر من الداخل، حتى أعالي الهواء المكدر واللاهي عما يجري، إدلب اللاخريطة، فالقتلة – ربما–وحدهم في مقدورهم الإجابة عن سؤال الخريطة، أو طوبوغرافيا جهاتها، وقد تفرقت أيدي سبأ صحبة مئات ألوف مؤتلفة من أهلها، متبلبلي الذاكرة، ليصبح اللامكان في وضع كارثي لا يعرَف آخر الخطو فيه متى وكيف، إن اعتمدنا على مفهوم "مارك

أوجيه" صاحب مأثرة "الزمن أطلالاً" ونحن نعيش أهوال: إدلب الزمن فظائع تنفتح على جهات شتى، وبجهات مستجدة.

إدلب ذات يوم، ليست إدلب هذا اليوم بالتأكيد، بالتأكيد تباعاً، فبين اليومين هذين، انسحقت ذاكرة جماعية، وانخسفت آمال، وشهقت حيوات كائنات، حتى الحجارة عينها فقدت فحواها، على وقع الدمار ممن يتوحمون إلى أجل غير مسمى في شهوة اليباب المركَّب، على كل ما له صلة بالموت الجماعي المباغت، والانفجار الأرضي المتدوّم والصاعق.

إنها إدلب وادعة الجغرافيا، وديعتها وفجيعتها في شمالها السوري، وهي تنزف إدلبيتها، كما لو أنها لم تكن إدلب ممن ذكرتهم، أبعد من لحظة الكارثة المعممة والمهدِدة لكل معنى.

تلك هي اللحظة الممتدة المشتدة المحتدة منذ أكثر من عقد زمني، عقد زمني لو يحسَب نفسياً، لاخترق جدار الزمن بمفهومه المتداول وخلَّفَه وراءه كثيراً، مأخوذة بفكرة: دعوني أتكفل بالخراب، بحيث لا تبقى ذاكرة تسمّي الخراب، حتى هو نفسه يُعدَم في مجهول ما!

إدلب يجب أن تدمر! إنها ليست قرطاجنة التي أريد لها دماراً في زمن معلوم، وبوسائل معلومة أرضياً، إنما ما يفوقها في قدرات الدمار والتدمير والكارثية القصوى، واللحظة التي توقف الزمن عينه، مطبقة على الأرض من السماء، وقاذفة السماء من الأرض، وواصلة في هستيريا الرعب المعمولة هذه بين الأختين التوأمين: الأرض والسماء، كما لو أن إرادة دمار شاملة بُثَّت بين جنبي اللحظة المزمنة الممتدة هذه!

حيث الوجوه تترجم الدمار الحاصل، والنزف الجماعي المتكاثر دون إمكان دقة الوصف، لرعب المشهد في قرنه الحادي والعشرين طبعاً.

في السياق هذا، يحضر الإرهاب، وصُنّاعه وأتباعه وسماسرته، وهو حاضر بالنسخة الأحدث إيلاماً، حيث وجوه القتلة ومن أصبحوا قتلة، ولم يكونوا قتلة، إنما في طور يصدم حساب كل قيمة اعتبارية للحياة، وما في ذلك من إثراء مروّعٌ للإرهاب نفسه.

في متابعتي هذه، أطرق مقالاً / بحثاً، هو نسيج تنويع من مقالات وأبحاث منقولة عن الفرنسية، سوى أن القاسم المشترك فيها جميعاً، هو فعل العنف الكارثي، والساحة والإطار والمحتوى والحداد المتصادي: إدلب، ربما هناك وصل بين قول وآخر، بين فقرة وأخرى، بين اسم وآخر، ليكون هناك وضوح رؤية للمقروء أكثر، فلا أسمى هنا كاتب مقال بالطبع، حرفياً.

وسوف أعمد إلى تثبيت هذه المقالات والأبحاث في النهاية بعناوينها، وأنا أكتفي بذكر الاسم بداية ومختصره ضمناً، ليكون هناك تأكيد آخر على حجم كارثة إدلب هذه، وكيف تعيش ميتاتها داخلاً وخارجاً، ومن يعرّفون بأنفسهم كثيراً تميّزهم لغة القتل هنا.

إنما أذكّر هنا، أنني أعتمد على مقال ثقيل المحتوى شديد الهول بنسيجه المعرفي، ومن ثم الاعتباري، وأعني به "قبر حلب وقتل في بعض الأماكن الأخرى" للكاتب سيرج إيرولدي" حيث يستقطب ما عداه، وفي ضوئه تتناغم وتَشكُّلُ المقصد، وحيث إن العنوان "قبر حلب .." لا يبتعد عن كونه "قبر إدلب" سوى أنه فاغر فاهه أكثر، والصراخ الجماعي أكثر تعبيراً عما هو كارثي، بأكثر من معنى.

لا مدخل، فإدلب مداخل كوارث

مَنْ الحريص على إدلب، مَنْ ليس حريصاً على إدلب؟ ما أقل الذين استمروا في الحرص على أن تكون إدلب هي إدلب كما كانت. لقد اتسعت ساحة الإرهاب، من جهة الذين انضمّوا إليها، وتقاسموها: من كانوا "محرّرين" ليصبحوا نقيضاً.

ما الذي يُعلّمنا بذلك منطق الإرهاب، عمله، معناه، في وضع انفجاري كهذا؟

جان بول شانيولو، في مفتتح ملف عن الإرهاب، وفي مستهل (الإرهاب: وبلغة الجمع "Terrorisme(s)" يواجه قارئه، مخاطِبه بالمستجد (المنطق في العمل الإرهابي يقوم على بضعة مبادئ بسيطة. أولاً، التركيز في الوقت المناسب: ينشأ عمل إرهابي فجأة في لحظة معينة، ويتكرر على الفور في جميع أنحاء وسائل الإعلام، ويتم تضخيمه بشكل غير متناسب démesurément. يمكن أن ينتج التركيز في الوقت أيضاً ليس عن فعل واحد ولكن من عدة إجراءات، موزعة على فترة قصيرة لا يعرف أحد مدتها. ويشير هذا إلى المبدأ الثاني: تعظيم عدم اليقين. إن العمل الإرهابي غريب وعشوائي وغير عادي insolite: فهو ليس ثابتاً ولا منتظماً. يمكن أن ينشأ في أي مكان وزمان؛ إنّه مخالفٌ لِما يحدث عادة، وينتج عنه تمزّقٌ في النظام القائم. وبالتالي يمكن إطالة أمده من خلال طارئه البسيط. وتكفي حقيقة حدوثه لإثارة القلق وبث الخوف وإذكاء الشائعات. ويمكن أن يَحلُّ التهديد الوحيد عندئذٍ محلَّ الفِعل نفسه، ويؤدي إلى ظواهر الذهان الجماعي، حيث سيسعى الإرهابيون بعد ذلك إلى استغلالها لتحقيق أفضل مصالحهم.

وبالتالي، فإن العمل الإرهابي هو دائماً جزء من منطق محدَّد لا يكون أبداً غير منطقي irrationnelle حتى لو بدا كذلك. إنه يستخدم الضحايا الأبرياء للضغط على الخصم الذي هو في الواقع، الهدفَ الحقيقي في حالة النزاع التي يتشارك فيها مرتكبوها. ويحدث كل شيء كما لو أن العلاقة بين شخصين (إرهابي وضحية) قد تحولت إلى "مثلث إرهابي – ضحية – هدف مستهدف". والضحية، التي ترتبط عادةً بالهدف ولكن ليس بالضرورة، تعمل كأداة لإيصال رسالة إلى الهدف، لإحداث صدمة أو إحباط أو التأثير عليهم بطريقة ما. وبالتالي فإن العملية الإرهابية هي جزء من عملية مرتبطة باستراتيجية معقدة إلى حد ما، في تكوين سياسي معين يتميز بتوازن قوى غير متكافئ. أولئك الذين ينفذون هذا النوع من الوسائل لديهم هدف أو أكثر: تأكيد أنفسهم، وزعزعة الاستقرار، والضغط، والانتقام..).

يمكن لهذا المقتبس أن يضيء الكثير مما تقدمنا به، وسنتقدم به. الكلمات تتقدم بأبعاد كثيرة، وفي كل بعد ما ينبّه إلى بنية المفارقات، واللحظة الأخطبوطية في الجغرافيا السورية/ الإدلبية:

بالنسبة إلى إيرولدي، يكون اقتباسه لمقولة من لدى موريس بلانشو، كشف حساب لهذا الرعب بعائده الإرهابي (الكارثة تدمر بينما تترك كل شيء كما هو). أليس لا منطق الكارثيّ، الفاجعيّ والمستثمَر في إدلب، هو السعي إلى إزهاق روح كل منطق؟

في مدخل مقال إيرولدي، هناك المكان، وزمانه، وحدثه الذي يتقدم لنا، باحثاً عن نظير له، أو مال يقرّبه نظيراً: إدلب. في التنويه إلى فيلم له أصل في المكان (سيناريو الفيلم مأخوذ من رواية ش ج ويلز: شكل الأشياء القادمة. ربما استجاب الكاتب المستقبلي الرجعي إلى تحذير ستانلي بالدوين: سوف يتمكن المفجر دائماً من العبور. رئيس الوزراء البريطاني ثلاث مرات من عام 1923 إلى عام 1937، قدم بالدوين هذا الإعلان في عام 1932 إلى البرلمان).

المكان ألمانيا، والتحضر للكارثية التي عمت أمكنة وأصقاعاً وجِهات:

(دائماً، سوف يمر المفجّر.

والقنابل دائماً ستدمر. سوف تفرّق ما يوحده الوقت والجهد. سوف تقتل.

قتل البشر لا يكفي. إن قتل الروح البشرية خطوة أخرى إلى الأمام في مشروع الإقلاق الأسمى. يُعدُّ الاستمتاع بالقدرة على قتل البشر وأرواحهم بِدايةً أكثر اتساقاً للآفة المسعورة. لتصفيح المكان الذي كان فيه الإنسان هو الآخر، أثرُ الغرابة السماوية، جسيمٌ ضروري للتجمع المحتمل، غبارُ المعرفة المفيد، هذا هو الطموح النهائي.

اقتل أماكن الإنسان. اقتل الأرض المأهولة l'oïkoumène (من اليونانية οἰκουμένη. المترجم. عن الانترنت) اقتل مساحة الطفولة، الخبرة –عالمنا المعروف، فضاء الحب، اللقاء المحتمل، كل ما كان لنا، نحن بداخلنا، هم فينا. اقتل

الشّعر –حتى الذي يتجاهل نفسه، اقتل الشعر مرة أخرى – كلّ شِعر الأماكن والأقاليم والمناظر الطبيعية، وهو أيضاً يستعيد المسافة التي اخترعتها الكراهية وعدم الفهم. سوء التفاهم.

اقتل مواقع المجيء. اقتل أي وحدة إدارية pagus. المشهد التأسيسي. إيرولدي).

ثمة تأسيس لقتل غير معهود، قَتلٌ يُنذرُ الأسماءَ نفسها، حيث لا تعود هي نفسها. إذ في مقدور الكارثة التدميرية، أن تعدم الزمان والمكان، إذ تُحيل الفضاء إلى دخان وغبارْ.

ربما كان لدى "بنجامين بارث" في مقال: "أعظم قصة رعب إنسانية في القرن الحادي والعشرين، حالياً في إدلب بسوريا" ما يشدد على هذا الواقع الأليم غير المسبوق، حيث:

(وصل عدد سكان المحافظة النازحين بسبب القتال منذ كانون الأول/ ديسمبر 2019 إلى 900 ألف، 80٪ منهم من النساء والأطفال.

ثمانية أشهر من التحليق اليائس تحت القنابل، السقوط الحر الذي يبدو أنه لا شيء قادر على إيقافه. تمثل محنة عائلة الحلاق، المزارعين في محيط إدلب، رمزاً للمعاناة التي يعيشها المدنيون في هذه المحافظة في شمال غرب سوريا.

تتحدث الأمم المتحدة عن "أعظم تاريخ للرعب الإنساني في القرن الحادي والعشرين". وصل عدد سكان محافظة إدلب النازحين بسبب القتال منذ كانون الأول 2019 إلى 900 ألف، 80 بالمئة منهم من النساء والأطفال. يتراكم هذا التعداد السكاني بين دركوش والدانا وعفرين واعزاز، وهي مناطق متجاورة مع تركيا، لم يمسها القصف نسبياً).

ربما يكون الأكثر إفصاحاً عن المنطق اللامكاني ممن قدِموا من أمكنة شتى في العالم، صعاليك أكثر من كونهم صعاليك، فهم يلغّمون كل شيء: الأخضر واليابس، أكثر

من كونهم شذاذ الآفاق، لأنهم اختبروا الخراب المروّع، وكيف ينمّونه اسماً ومسمى، كما تعايَن إدلب الرعب!).

نتحدث عن "كارثة التقدم" إذاً، بلغة فالتر بنيامين، كما لو أن الحرب العالمية الثانية لم تتوقف عن التنويع في أهوالها، واختيارها لضحاياها وجلاديها ومسارحها وابتداع منطقها الملازم.

إذ وفق أي معنى، نحتفي بمعنى ما، إذا كان فضاءً كاتماً للصوت، إذا كان برميلاً متفجراً، إذا كان واعداً بما يلغي كل أمل بوعد منتظَر؟

(في عام 1944، بدأت انتفاضة وارسو في 1 آب الساعة 5 مساءً. ألساعة W انفجرت قنبلة في مقر الغستابو. انتهى التمرد في 2 تشرين الأول التالي.

منذ الأيام الأولى من شهر آب، شن الجنرال إريك فون ديم باخ زيلفسكي هجوماً مضاداً. في 5 آب، أعدمت قواته عشرات الآلاف من المدنيين. يسجل التاريخ هذه الحلقة على أنها مذبحة وولا. عدد الوفيات كَم؟ 200000؟ أكثر من ذلك؟ في محاكمة نورمبرغ، أعلن كبير القتلة chef déclare: "إذا كنتَ تبشر لمدة عشر سنوات طويلة بأن الشعوب السلافية هي عرق أدنى وأن اليهود هم دون البشر، فمن المنطقي أن يتم قبول قتل الملايين من هؤلاء البشر كظاهرة طبيعية.

اقتل الإنسان. اجعله حشرة. فكفكه. أرسل له القنبلة.

خلال هذه المعارك، تم تدمير ما يقرب من ربع المدينة. بعد انتهاء الأعمال العدائية، أمر هتلر بمواصلة التدمير. ثلث إضافي يختفي. في عام 1939، غرقت قرابة 10٪ من المباني تحت القنابل و 15٪ أخرى بعد تصفية الحي اليهودي. بمجرد قتل البنادق، أصبح أكثر من 85 ٪ من وارسو في حالة خراب. إيرولدي)

الأمكنة مختلفة، سوى أنها تتشارك في الحداد العظيم عينه، في الموت العاصف القاصف عينه، في بث الظلمات عينها، في استزادة الجلادين صحبة الضحايا عينهم.

فالمكان واحد، وأهلوه هم في الواحد يلتقون، والأرض رحم واحد، جسد واحد، والكل مأخوذون بها.

هنا، في بنية أو أصلة اللحظة الاستثناء تكون إدلب المأخوذة بالمنايا جمعاً:

(تتحدث الأمم المتحدة عن "أعظم تاريخ للرعب الإنساني في القرن الحادي والعشرين". وصل عدد سكان محافظة إدلب النازحين بسبب القتال منذ كانون الأول 2019 إلى 900 ألف، 80 بالمئة منهم من النساء والأطفال. يتراكم هذا التعداد السكاني بين دركوش والدانا وعفرين واعزاز، وهي مناطق متجاورة من تركيا، لم يمسها القصف نسبياً.

وجد المحظوظون خيمة في أحد المخيمات الضخمة، التي تضربها الرياح والثلوج، والتي تنتشر في هذه التلال في أقصى سوريا. ينام الآخرون في العراء أو في سياراتهم أو في مبانٍ غير مكتملة. تم الاستيلاء على جميع الملاجئ الجماعية، مثل المساجد والمدارس، خلال موجة النزوح السابقة، في ربيع وصيف 2019، والتي طالت 300 ألف شخص.

المنبوذون من إدلب محاصرون في شبكة مفتوحة. أغلقت تركيا، التي تأوي 3.5 مليون سوري على أراضيها، لكنها ترفض الترحيب بوصول جديد للاجئين، حدودها بثلاث طرق.

لقد أدى انفتاح المدينة الكبرى في شمال سوريا إلى إسعاد سكانها. واستهدفت أحياءها الغربية بانتظام جماعات مسلحة في الضواحي. وبحسب الأمم المتحدة، تسببت نيران المتمردين في مناطق سيطرة الحكومة في حلب وشمال محافظة حماة، في مقتل 93 مدنياً منذ نيسان 2019، بينهم 23 امرأة و28 طفلاً. بارث).

(أتذكر هذه الرؤية لنهاية العالم من فيلم عازف البيانو لرومان بولانسكي. بعد سنوات من المحنة، والاختباء هنا وهناك، والبقاء على قيد الحياة قدر المستطاع، والفرار من

القتال والانهيارات والأطلال التي تتجه نحوه، يكسر عازف البيانو فلاديسلاف زبيلمان جداراً ويكتشف حجم الهدم. وارسو لم تعد موجودة. وارسو هيكل عظمي متفحم. جبل من الرماد، الدموع، التهمت المنازل حيث كانت الحياة ذات يوم. حيث كان في يوم من الأيام شوبان، لوحة مفاتيح. موسيقى هادئة. أغنية رقصة الفالس. بولندي عظيم. اقتل المدينة.

لا شيء يكفي لوقوع كارثة، كما كتب موريس بلانشو في كتابه كتابة الكارثة/ الفاجعة L'écriting du désastre.

الساعة W.

حان وقت القتال.

يحيلني هذا الحرف W إلى كتاب غريب لجورج بيريك: W أو ذكرى الطفولة.

في افتتاح هذا العمل، كتب بيريك: "ظللتُ متردداً لفترة طويلة. لقد نسيت ببطء التقلبات والمنعطفات غير المؤكدة لهذه الرحلة. لكن أحلامي كانت مليئة بهذه المدن المهجورة، مع هذه الأجناس الدموية التي ما زلت أعتقد، أنني أستطيع سماع آلاف صنوف الصخب التي ما زلت أعتقد أنه يمكنني سماعها، مع هذه اللافتات المكشوفة التي تمزقها رياح البحر. اختلط سوء الفهم والرعب والسحر في هذه الذكريات التي لا نهاية لها. ولفترة طويلة، بحثت عن آثار لتاريخي، واستشرتُ الخرائط والأدلة، وأكوام المحفوظات. لم أجد شيئاً وبدا لي أحيانًا أنني حلمتُ، أنه كان هناك كابوس واحد لا يُنسى".

في مقابلة أجراها ذات مرة مع الشاعر جان بول سمعان، أعرب الشاعر محمود درويش عن أسفه لما شاهده من تدمير منزل طفولته. كان بيته كلَّ مدينته، كل موسيقاه، كل الخريطة التي ولد تحتها، كل سمائه، نهاونده. ثم ينزف الجرح مرة أخرى من أشجار

الزيتون المجاورة، التي مزقتها الجرافات الإسرائيلية، والتي يبلغ عمرها عدة مئات من السنين.

في كتاب محمود درويش "في حضرة الغياب" يخاطب الشاعر الفلسطيني ظلّهُ:

"وأخرجوك من الحقل، أما ظلك، فلم يتبعك ولم

يخدعك، فقد تسمر هناك وتحجر". الاقتباس من إيرولدي).

نعم، كانت وارسو، كانت غزة، وها هي إدلب، ها هي عفرين.. أخوات تتواسى في نزف مشترك.

هل يمكن التذكر؟

(ذاكرة حلب المنقرضة. مفتاح مكسور. نحن. قابس الضوء Interrupteur. لا شيء بأثر رجعي. المدينة ميتة الآن. الغريب الغريبة في مدينته/ها ، حيث يفر/ تفر في الحافلات الخضراء ذات النوافذ، هذه العربات الخضراء المتسخة المروعة، التي أتاحها له/ ها جلاديه/ ها ويتجاهل/ تتجاهل القذارات، أصبح ذلك الظل متحجراً في بلده/ ها. فقط الظل الذي يذهب في جميع أنحاء وجهته/ ها. نسيها/ هته حتى القدر. والمدينة ليست أكثر من صورة ظليلة مفككة، فم غادر بفارق الموت، مع أنفاسها من الرماد ودم تذوق الحديد والصدأ.

حلب، كانون الأول 2016. لقد غطى الثلج للتو الجروح الرهيبة في المدينة. لقد قامت طائرات بوتين والأسد القاتلة بالعمل القذر. لقد دمرت آلة الحرب المدينة بأكملها. قنابل، قذائف، هاون، قذائف عنقودية. الغازات الخبيثة. أسلحة مصرّح بها. التسلّح غير المشروع. كل ضراوة في العالم. مجموعته للتدمير. تم دفن الموتى هناك الآن لتذكير الآفاق التي ستأتي هنا بمجرد سقوط دراما عظيمة. هبوط بشري حضري.

كانون الثاني 2017. ثلاثة نواب فرنسيون، بينهم "الصديق" تييري مارياني – هذا ما يسميه نظام دمشق – يقومون برحلة للقاء الأسد. ساعة وربع محادثة. عندما عاد،

على التلفاز، سمعت "صديقه" مارياني يقول إن "15٪" من حلب قد دمرت. ليست المدينة كلها. 15٪ فقط.

عيد الميلاد 2016. في المدينة المدمرة، نصب الشباب أكاليل وشجرة للاحتفال بميلاد المسيح. مشهد مولد أيضاً في كنيسة مدمرة. وإلى جانب صور جلالة الرئيس بوتين، الأسد، لا أعرف أي قائد ميليشيا شيعية لبنانية وعراقية، ولا أعرف أي دليل للثورة الإيرانية. أيقونات الشر. جميع الأيقونات المتمردة.

هؤلاء الناس عاقبوا كل شيء في المدينة. لقد جعلوا من مبيدات الحشائش الطريقة الأكثر راديكالية في "التطهير". تنقية الأجساد والنفوس والأسوار والذكريات. على الرخام، يكون الحمض دائماً هو الأقوى.

كانت حلب أرضاً خصبة، مكاناً لثقافة مشتركة، الأرض التي غذّت قيمة التبادل على مدى آلاف السنين، إنها الآن قبر.

في عام 1927، في مجلة الفن الشرقي وعلم الآثار، كتب ر. دورم: "حلب! هناك عدد قليل من المدن في الشرق الأوسط كلها تترك انطباعاً أقوى أو أكثر إمتاعاً للمسافر. أسواقها المقببة الرائعة، حيث يتنقل المارة في مأمن من أمطار الشتاء وشمس الصيف الحارقة، وخاناتها الفخمة، حيث كل ما تنتجه سوريا والأناضول وبلاد ما بين النهرين. ساحاتها الواسعة وجيدة التهوية، حيث تلتقي أنقى عينات من البدو الرحل وسكان المدن من جميع الأجناس؛ الكثير من عوامل الجذب التي تحتفظ بالأجنبي وتجعله يُقدّر، كما ينبغي، كرم الضيافة الأسطوري للسكان".

كما يستدعي التقاء القوافل القادمة من الاسندرونة والبحر الأسود والفرات، ومياه نهر قويق، والريف الخصب للمحيط، والقلعة التي لا تضاهى، فإن هذا الجمع الغني يقول لمؤلف المقال: "مثل يحظر موقع على أولئك الذين يحتلونها في جميع الأوقات، أن يكونوا أحد تلك الشعوب السعيدة التي ليس لها تاريخ ".

لطالما احتفل الجميع بالمدينة: المعري، ابن بطوطة، أقرب إلينا، لورنس العرب، معجب متحمس بهذا "المشكال" وهذه "الطاقة المتعددة".

لم أقم بالرحلة إلى حلب أبداً.

كنت أرغب في ذلك بشدة.

لن أذهب إلى حلب بعد الآن.) إيرولدي.

ربما كان في مقدور نيكولاس تنزر، محاضر في الشؤون العامة الدولية، ومن خلال مقاله النازف "في سوريا يجب ألا يغطي الصمت الجرائم المرتكبة في إدلب، 18-3-2019 " ما يأخذ صورة نازفة لهذا الحدث الأليم إدلبياً:

"لماذا استسلم العالم؟

لماذا صمته الرهيب؟

لماذا لا أحد يهتم بنا؟

لماذا لا يتضامن أحد مع مصيرنا؟

هل نحن بلا قيمة؟

هل نحن مجرد أرقام؟

ماذا يحدث لهذا العالم؟"

كانت تلك هي الرسالة قبل أيام من فريد، صحفي ومصور سوري من محافظة إدلب. وقد تكررت هذه الرسالة مراراً وتكراراً منذ بدء حرب الأسد ضد شعبه، منذ مجازر حمص والغوطة ودرعا وحصار وسقوط حلب.

وهو يواصل القول إن تقاعسنا عن العمل يكمّل انهيار تمثيلاتنا السياسية والأخلاقية لما هو جيد وسيئ، وما هو صواب وخطأ. إنه يرسم مرة أخرى هذا الخط الأحمر غير

المرئي، ولكن أولاً، بين – من ناحية – أولئك الذين يهتمون، ويشجبون، ويحتجون، ويسمون أعداءنا بكلمات واضحة، ومن ناحية أخرى – أولئك الذين يمكن أن تحظى جرائمهم ضد البشرية بلامبالاة العالم وتختفي بضجيج الحياة اليومية).

تتداخل الذكريات للتشديد على ما كان، وما هو كائن، وكيف؟

(عندما كنتُ طفلاً، كنت أتساءل دائمًا عن هؤلاء الملوك القدامى وأباطرة العصور الوسطى والغزاة الغاضبين الذين استولوا على مدينة ودمروها بالأرض. للحلاقة، مثل العودة إلى الجلد، بواسطة الشفرة الخطرة، أو وجّه بلا لحية. ماذا كانت تعني إبادة مدينة في الماضي؟ أشعلوها في النار ودمروا ما يمكن أن تأكله النار؟ نهب الثروة؟ قتل الرجال والنساء والأطفال بالطبع؟ لكن الحجر، هذا الحجر الميسيني والروماني والبابلي؟ هذا الحجر غير المادي؟ هذه المدن الحصينة مع هذه الأسوار العالية والواسعة؟ كيف نكسر هذا؟

هل كان تدمير المراكز الحضرية أكثر من مجرد مكان أدبي؟ "، يسأل جان إيف جواني في استخدام الأنقاض L’usage des ruins.

الآن نحن نعرف كيف نُسحق. يمكننا أن نُطحن. بشكل هائل.

المكان المعلوم لم يعد من الخيال، المكان المعلوم هو اللانهائي الذي يميل نحو ذرَّة ذرَّة الذرَّة l’atome de l’atome de l’atome. المكان هو الغبار النهائي المحتمل. أصبح الجبل الحي سهلاً ميتاً.

القنبلة تمر وهنا بداية لا شيء. لا شيء على الاطلاق). إيرولدي

هناك أكثر من هناك، كما أن هنا أكثر من هنا، من خلال أكثر من صرخة مكتومة، هنا وهناك، أو بالعكس، وحيث الصور تشهد ببلاغة رؤيوية حجم الكارثي مكانياً.

مع نيكولاس تنزر، تخاطبنا صورة تتحدث عنا، عن الآخرين، عن نفسها في فجيعة أكثر من كونها فردية، وما يترتب على ذلك من صراخ لا يكف عن التدوّي:

(محاضر في الشؤون العامة الدولية، العلوم)



في خان شيخون بمحافظة إدلب، 26 شباط 2019: رجل يحمل رفات ابنته التي استشهدت في قصف لقوات النظام. أنس الدياب/ وكالة الأنباء الفرنسية.

المأساة مراراً وتكراراً

وفيما يتعلق بسوريا، تتركز الأنظار على السقوط الوشيك لآخر معقل لداعش في الباغوز و"عودة" الجهاديين الأجانب، فإنهم يبتعدون عن المأساة المعلنة في محافظة إدلب والمجازر التي لا تنتهي في سوريا. تحت سيطرة بشار الأسد.

احصل على الأخبار برعاية الخبراء، وليس الخوارزميات.

معلومات عنا

نوع من الليل يغلفهم، كما لو أن الحكاية التي تحملها قوتها عن انتصار مكتسب قد أعفتنا من عبء الغضب. هذا بالتأكيد ليس جديدا. كما لاحظ ميشيل دوكلوس مؤخراً:

"كانت المعركة ضد القوة الإرهابية للبغدادي على رأس أولويات الحكومات الغربية لمدة خمس سنوات، ويمكن القول إنها على حساب الاستثمار الحقيقي في القضية السورية ككل".

مرة أخرى، تم استهداف رجال الإنقاذ المدنيين من الخوذ البيضاء أيضاً. مرة أخرى، تتواصل جرائم الحرب التي ميّزت الصراع السوري، والقوى الغربية تلتزم الصمت، وكأنها أصبحت "طبيعية" جديدة.

خوف مزدوج

كان معروفاً أن منطقة إدلب، حيث تدفق نحو مليوني لاجئ من أجزاء أخرى من سوريا، بما في ذلك مناطق حلب والغوطة بعد مجازر النظام، ستكون ملاذاً محفوفاً بالمخاطر.

اليوم الخوف ذو شقين. من ناحية أخرى، يمكن للمرء أن يتخيل تماماً نتيجة القصف المكثف من قبل النظام وروسيا على منطقة تضم أكثر من 3 ملايين نسمة، بما في ذلك حوالي مليون طفل، والذين لم يعد لديهم أي مكان يفرون إليه. قد يكون أسوأ مما عاشه الشعب السوري خلال ثماني سنوات من الحرب.

من ناحية أخرى، فإن 80٪ من سكان المنطقة مدرجون في قائمة المطلوبين من قبل دمشق، وهنا أيضاً نعرف جيداً المصير الذي سيلحقهم به التعذيب وآلة الموت التي يمارسها النظام.

علاوة على ذلك، ماذا سيكون مصير المدنيين الذين سيتم تحريرهم من قبضة داعش بعد سقوط الباغوز؟ هل هربوا من جحيم الخلافة ليسقطوا في ذلك النظام؟

على مدار ثماني سنوات، لم نرغب في حماية وإنهاء القتل المتعمد لأكثر من نصف مليون شخص والسماح باستمرار الجرائم التي لا نهاية لها ضد الإنسانية وجرائم الحرب، لكننا قمنا بإخفاء ضعفنا تحت الكلمات المريحة المتمثلة في العجز الجنسي أو، الأمر الأكثر فاحشة، الواقعية والتعقيد.

إذا كان الأمر كذلك، فما هو الفضل الذي لا يزال بإمكاننا منحه للاحتجاج بقيم القانون والحرية والكرامة التي تحملها أورُبا؟ فكيف لا نراها كلمات جوفاء وبائسة؟)

حيوات مستميتة في إظهار الدائر

لأثبت مساحة أكبر لما يستحق العطاء لتعميق أثر الدائر بنسَبه الإدلبي:

(1 تشرين الثاني 2016. غيث جاسر "مواطن فرنسي من أصل سوري" يكتب رسالة مفتوحة طويلة إلى رئيس الجمهورية الفرنسية. تلخص هذه الرسالة كل الدراما في سوريا وكل تشابك الشيء السياسي القبيح في المنطقة وفي العالم. اقرأها مرة أخرى على syrie.blog.lemonde.fr.

على طول السطور، يتذكر غيث جاسر حجر حلب الأبيض، الفستق الحلبي، مربى الورد، موسيقاها، مطبخها الراقي. يتذكر المكتبة الوطنية. لقد أخفت وثائق "لا يمكن الاستغناء عنها".

كارثة، مرة أخرى.

يكتب غيث جاسر: "حلب اليوم ليست فقط تحتضر ولكنها تأسف لولادة الفيلسوف الملحد العظيم أبو العلاء المعري (973-1057) المدفون في مدينة سورية شهيدة أخرى (معرة النعمان) قرب حلب. نقش مكتوب على قبر الفيلسوف، تعلّمناه على مقاعد مدارسنا:

إنها الجريمة التي ارتكبها والدي ضدي، ولم أرتكبها بحق أحد

(البيت في أصله العربي شعراً:

هذا جناه أبي عليَّ   وما جنيتُ على أحد)".

أول هرب في زمن أمينوفيس الثاني ورمسيس الثاني، حلوان تحت سلماننصر الثالث (859-824 قبل الميلاد)، بيرية للإغريق وللمؤرخ الروماني فلافيوس جوزيفوس، تعرف رواية حلب الطويلة آلاف المغامرات، مثل هذا الدمار الذي لحق به. مدينة Ha-la-ap أو Halpa للملك الحثي موشيليش الأول. نفس الذي دمر بابل. دعونا

نعيد قراءة ملحمة هذه المدينة بأكملها التي يحتفظ بها اسم سامي باسم حلب: الحليب الطازج.

هذا هو ما قتله الروس الأشاديون بوحشية في حلب: ذكرى الحليب الطازج النقية. فكرة هذه النضارة المغذية هي حضارة كاملة.

اقتل بأي ثمن. اقتل، كسّر، تخلص من التاريخ، التعددية حتى يسيطر المرء على كل شيء، ويسحق كل شيء آخر. اقتل الحليب الطازج للآخرين.

يسأل هولدرلين: "إذن من أين تأتي الرغبة غير الصحية بين الرجال في أن هناك واحدة فقط وأن هناك واحدة فقط؟"

الشّعر، الشعر الذي أراد أن يستعيد المسافة المخترعة. لكن مصيبة الإنسان؟ لكن مصيبة المدن؟

اقتل المدينة. اقتل المصفوفة. بحيث لا يوجد سوى واحد. لكن من احتفال هزيل بعيد الميلاد في حالة خراب مع "صور مقدسة"، صور الجلادين الذين لم يحتمل أن يرحموا على وجه الشمع، الذين ماتوا بالفعل، لأنهم قضوا الكثير من الموت.

اقتل لقاء المدينة.

مارِس التطهير الحضري مثل التطهير العرقي.

وبعد ذلك: أن يتجول وحده في الأنقاض حيث كانت حياته من قبل. احتفل بعيد الميلاد وحدك في أنقاض رهيبة.

سحق المكتبات والمساجد والنوافير والساحات والمباني الشاهقة وكل المعالم التي تشير إلى الآخر، نوع من الخلط السلمي. امسح آثار الآخر. انشر "الكراهية الهائلة"، كما كتب فرانسوا شاسلين. يضيف بينيديكت تراتنجيك: "دمروا المشهد الحضري لتدمير

التمدن". إنكار المدينة وإنكار وجودها بمحوها من المناظر الطبيعية وحتى من تاريخ البشرية". في كل هذا، اجعل من مبيد الأرواح "الأكرونيا المضادة للمدن".

في هذا الكتاب الرائع: استخدام الأنقاض، يقرن جان إيف جواني في العنوان مشروعاً وحالة يمكن للمرء أن يفترض فيها عدم التوافق. ما "استخدام" يمكننا الاستفادة من الأنقاض؟ أولاً وجدت هذا الاقتباس من راندال جاريل من لوسيس: "في قاذفات القنابل بأسماء فتيات صغيرات، ذهبنا لحرق البلدات التي تعلمناها في الفصل ...". وكما تقرأ، فإن هذا التحليل: "إن فرض الأنقاض على المهزوم هو منعه من أنقاضه، وقطع التسلسل الزمني للمريض من أساطيره". يأتي المقتطف من الفصل المخصص للمهندس النازي ألبرت سبير، وزير البناء والأسلحة في الرايخ. كان لهذه العقيدة عقيدة فضولية، تتعلق بشكل حتمي بالخطاب الرومانسي أكثر من ارتباطها بآثار الحرب، أو نظرية قيمة الخراب Ruinenwerttheorie، أو "نظرية قيمة الأنقاض". يعود تاريخها إلى القرن التاسع عشر وكان مديناً للمهندس المعماري الألماني جوتفريد سمبر. أيد هتلر هذه الفكرة التي تنص على أنه "يجب تصميم وبناء أي مبنى جديد لغرض وحيد هو إنتاج أطلال جميلة"، يلاحظ جوان.

جبل الشيطان (Teufelsberg) في برلين، هو تل يبلغ ارتفاعه ثمانين متراً أقيم بعد الحرب العالمية الثانية، وفقاً لتعليمات الحلفاء، حيث تم جمع اثني عشر مليون متر مكعب من الأنقاض في برلين.

في الخريف الألماني، يكتب ستيج داغرمان، الكاتب والصحفي السويدي، تقارير ما بعد الحرب في ألمانيا. يلاحظ اختفاء هامبورغ. أخذ قطاراً عبر المدينة المنهكة ولاحظ أن الغرباء فقط هم من يشاهدون الأنقاض. يكتب: "[...] إذا كنت تحب التسجيلات، إذا كنت تريد أن تصبح خبيراً في حالة خراب، إذا كنت لا تريد رؤية مدينة خرائب بل منظراً طبيعياً من الأطلال، مقفر أكثر من صحراء، وحشي من جبل ومدهش كحلم

حزين، ربما توجد، على الرغم من كل شيء، مدينة ألمانية واحدة فقط على مستوى المهمة: هامبورغ".

سمّي قصف هامبورغ بعملية عمورة.

العملية التي جرت في الفترة من 25 آب إلى 3 أيلول 1943 تدين باسمها للحادثة التوراتية: "ثم أمطر الرب الكبريت والنار من عند الرب على سدوم وعمورة من السماء. دمّر هذه المدن، وكل السهل وكل سكان المدن ونباتات الأرض ... ".

وثيقة سرية بتاريخ 27 أيار 1943 من خدمات عمليات قيادة القاذفات: "تشير التقديرات إلى أن هناك حاجة إلى ما لا يقل عن 10000 طن من القنابل لإنجاز عملية التنظيف هذه".

النقطة. "الغرض. تدمير هامبورغ ".

كان الأمر يتعلق بالوصول إلى الإمكانات الصناعية للمدينة ولكن أيضاً في الأداء السيئ للغاية، والتأثير بشكل كبير على معنويات الألمان، تم القضاء على حي هامربروك بالكامل. ألتونا تعاني من أضرار جسيمة. النسب والأرقام وبعد فترة طويلة من انتهاء الحرب، تناثرت الأطراف إلى الأبد في الأنقاض. كشرِّ الجثث الذي لا ينتهي إلى العدم، متزوج من هذا الغبار الذي أصبح نعشاً.

كم آلاف الأطنان اللازمة لـ "تنظيف" حلب؟ قنابل روسية؟ قنابل سورية؟

أعيد بناء المدن الألمانية المدمرة. نورمبرغ، روتنبورغ، لوبيك، كولونيا، بريسلاو. آحرون. درسدن.

من درسدن، تذكر صديقي القديم أنطوان القصف. في شباط 1945، كان لا يزال يعمل في STO في مصنع في سوديتنلاند Sudetenland، على بعد أقل من خمسين كيلومتراً من المدينة. تم إسقاط القنابل العنقودية والحارقة من يوم 13 إلى يوم 15.

قال لي: "في الليل، يمكنك أن ترى هناك كما في وضح النهار". كثيراً ما أفكر في ذلك الظلام في العمل الذي أعطى الوهم بالوضوح ...

لقد قرأت أن 1300 قاذفة قنابل أسقطت ما يقرب من 4000 طن من القنابل على درسدن في ثلاث غارات. هذه المرة مرة أخرى، كان لابد من تدمير الروح المعنوية للألمان. مرة واحدة وإلى الأبد.

في عام 1946، أعطت اللجنة الدولية للصليب الأحمر عدد القتلى بأكثر من 305000. من سيعرف كم عدد الذين ماتوا في الحقيقة؟

عاد المصور ريتشارد بيتر إلى درسدن في أيلول 1945. وهو مسئول عن سلسلة من الصور. على وجه الخصوص، هذا التمثال الرمزي اللطف، على برج قاعة المدينة. تحت قدميه الخراب المطلق. في بادرة يديه وفي تعبير وجهه: غير مفهوم.

من المناسب أيضاً، في هذا الأدب المؤلم أدب الأنقاض Trümmerliteratur، أن نقتبس من ف. غ. سيبالد وعمله: عن التدمير كعنصر من عناصر التاريخ الطبيعي. قراءة سيبالد تعني البحث في ظلال قصة قتلها مؤلفون ألمان. إنه لاكتشاف هؤلاء الكتاب النادرين الذين تجرأوا على استكشاف أنقاض بلادهم، مثل فريدريش ريك، مؤلف مجلة يائسة، على سبيل المثال. في هذا الكتاب، يتعلق الأمر بمحطة في بافاريا العليا، 20 آب، 1943. سقطت حقيبة من الورق المقوى على المنصة وتنتشر محتوياتها: "ألعاب، طقم أظافر، كتان محترق جزئياً. أخيراً، تقلصت جثة طفل متفحّم إلى حجم مومياء كانت تحملها معها المرأة نصف المجنونة باعتبارها بقايا من الماضي لم يمسها أحد قبل أيام قليلة".

كم عدد الحقائب التي فتحت بعيداً عن الكارثة، مليئة بجثث هؤلاء الأطفال المتفحمة بفعل الحياة المستحيلة والقنابل؟ كم عدد المدن التي تم سحقها بصق الشهداء الصغار

التعساء في أماكن أخرى؟ إلى متى ستتقيأ المدن المختفية هذه العربدة من الوبر التي كان عليهم أن يبتلعوها؟

يقتبس سيبالد أيضاً كتاب تحت القنابل لجيرت ليديج. ذات يوم في تموز 1944، دمّر هجوم جوي مدينة ألمانية كبيرة. طيار أمريكي يسقط قنابله، لكنه قرر القيام بذلك على مقبرة. لتجنيب المعيشة... إيرولدي).

هناك ما يشير إلى الوجه الآخر من الحياة، المواجهة، التحدي، الموت اعتباراً، ومن ثم إشهاراً للمرئي وتشهيراً لما يشكّل إهانة للحياة عينها، ومن منظور نسوي هذه المرة.

ذلك ما يمكن التوقف عنده، انطلاقاً من مقال شارلوت لوريس روديونوف "المقاومة النسائية في إدلب: خط سير إحدى الناشطات".

المقال طويل نسبياً، ولكنه مدجج بالكارثة، بالاستجابة لمنطق الحياة المطارَد، طبعاً، وأنا أورد ما يكمّل خريطة الجرح الإدلبي المتفجرة أكثر فأكثر:

(يعطي هذا النص الكلمة لدينا، وهي شابة سورية من بلدة إدلب. هذه المدينة المتوسطة الحجم في شمال سوريا، على بعد ستين كيلومتراً من حلب، كانت خاضعة لسيطرة النظام وقوات المعارضة بالتناوب، قبل أن تخضع لسيطرة جبهة النصرة، وهي مجموعة من المقاتلين الجهاديين. أحد المكونات الإسلامية للمعارضة المسلحة في سوريا. التقينا في عدة مناسبات بين تحرير إدلب في آذار 2015 وتشرين الثاني 2017. اضطرت دينا إلى مغادرة بلدتها عندما علمت النصرة أنها تدرب النساء والأطفال على حقوقهم السياسية والمدنية. تعيش الآن في المنفى على الحدود التركية السورية وتنتظر بفارغ الصبر سقوط النصرة حتى تتمكن من العودة إلى ديارها.

عندما التقيت دينا في تركيا عام 2015، كانت لا تزال تعيش في شمال سوريا، في مدينة إدلب حيث تعيش مع والديها وتدرّس الرياضيات في الجامعة. تسافر بانتظام إلى تركيا حيث تقضي ما معدله أسبوعين كل شهرين لتنسيق عملها مع المنظمة التي

توفر لها التدريب في مجال حقوق الإنسان والتربية السياسية والمدنية للمجموعات النسائية في منطقة إدلب. "يشبه الأمر أن تكون مصاباً بالفصام وأن تضطر إلى التنقل بين تركيا وسوريا! تعتاد بسرعة على الظروف التي تعيش فيها ثم فجأة تضطر إلى تغييرها". قالت وهي تشرح أنه في إدلب عليها الآن أن ترتدي عباية، هذا الثوب الأسود الطويل الذي يلبس فوق الملابس، وأن تكون محجبة بالكامل باللون الأسود، أما في تركيا فيمكنها أن تلبس ما تشاء.

لا تحب قضاء الكثير من الوقت في تركيا، رغم أن ذلك يمنحها مساحة للتنفس، لأن العيش في إدلب ليس بالأمر السهل. لا يمكنها أن تقدر الحياة في تركيا: التسوق أو الخروج أو الذهاب إلى مطعم يمنحها متعة أقل من الشعور بالذنب. تشير بروح الدعابة إلى أنه حتى لو كانت تتسوق في تركيا، فلن تتمكن من ارتداء أي من الملابس التي ستشتريها في إدلب.

الاختلاف الأكبر بين الحياة في سوريا وتركيا هو عدم وجود طائرات أو مروحيات للإشارة إلى قصف وشيك. لكن دينا تشير إلى أنه حتى في تركيا، فإن أدنى ضوضاء لطائرة أو مروحية تخيفها. تتذكر أنه بعد تدمير منزل أختها في غارة جوية، انتقلت الأخيرة مع أطفالها وزوجها إلى منزل والديهم. لم تستطع ابنة أختها النوم خائفة من احتمال تعرضها لقصف آخر. لتهدئتها، أخبرتها دينا ألا تقلق، لأن الطائرات كانت تنام في الليل أيضاً. ولكن ما إن جعلتها تنام حتى سقط برميل متفجر على منزلهما. لم تستطع الفتاة الصغيرة أن تغفر لخالتها لأنها كذبت عليها. أخبرتني دينا أنها تحدثت معها عبر الهاتف قبل أيام قليلة وسألتها عما إذا كانت تفضل إدلب أم ألمانيا. أجابت الطفلة الصغيرة: "ألمانيا: لا توجد طائرة هنا! ". الكلمة دينا الآن.

لم يعد لدى أحد أحلام شخصية بعد الآن، كل ما فكروا فيه هو كيفية جعل الثورة تنتصر حتى يحصل الناس في النهاية على الحقوق التي يستحقونها. كنا نفكر في كيفية تحقيق العدالة للشهداء وإطلاق سراح جميع المعتقلين. كانت هذه أحلامنا.

وعلى الرغم من أنني كنت جزءاً من الثورة منذ البداية، فقد تمت مصادرة صوتي لاحقاً، ومثل العديد من النساء الأخريات، فُقدّتُ تلك القوة لإسماع صوتي.

لقد غيرت الثورة حياتي تماماً. قبل الثورة، شعرت أن حياتي ليس لها هدف. صحيح أن إنهاء دراستي، والزواج، وإنجاب الأطفال كانت، بطريقة ما، أهدافاً، لكن لم يكن هناك حقاً هدف أعلى في حياتنا. عندما بدأت الثورة، شعرت حقاً بتغيير في داخلي: شعرت أخيراً أن هناك هدفاً يتجاوزني، هدف لم يكن هدفي فقط، بل هدف مشترك مع بقية العالم... بدأت حياتي تتغير: لم أفكر في الأشياء التي كنت أفكر فيها حتى ذلك الحين. بدأت أفكر في أشياء أكثر أهمية كانت بعيدة كل البعد عني: ما الذي يجب أن أفعله لكي تنجح الثورة؟ مع من كان من الضروري أن نتحالف مع أنفسنا لضمان نجاحها؟ لقد قُطعت العلاقات مع الكثير من الأشخاص الذين كانوا أحياناً مقربين جداً، مع الكثير من الأصدقاء لأنهم كانوا ضد الثورة. وأصبحت جميع العلاقات تتمحور حول الثورة. ربما لم يكن اختياراً ذكياً تماماً! لأنني أدركت لاحقاً أن العلاقات التي أقيمت في اللحظات الأولى من الثورة كانت تستند أحياناً إلى سوء الفهم: كان هناك أشخاص لم يكن لدي سوى القليل جداً من القواسم المشتركة معهم في النهاية والذين وقعت في حبهم. أدركت أخيراً أن لدي اختلافات كبيرة عن الثورة، لكنها ظهرت فيما بعد.

رأيت منازل تحولت إلى رماد أمام عينيّ، لكنني لم أغادر. تسألني لماذا؟ لكن لماذا المغادرة؟ والداي وعائلتي لا يزالون يعيشون في إدلب فلماذا أرحل؟

كانت هذه الفترة صعبة للغاية: لم يكن هناك ماء ولا كهرباء ولا خدمة. كانت الفوضى والنظام يقصف باستمرار. نظراً لعدم وجود خدمة، لم تعد المدارس تعمل. لذلك، مع مجموعة صغيرة من النشطاء، قررنا محاولة إعادة فتح المدارس حتى يتمكن أولئك الذين بقوا أو عادوا من متابعة الدراسة، ومنع الطلاب من فقدان عامهم الدراسي بأكمله.

تمكّنا من فتح مدرستين، وأولئك الذين بقوا في إدلب بدأوا تدريجياً في إرسال أطفالهم هناك.

عند عودة السكان إلى إدلب، سيطر جيش الفتح على المدينة بأكملها وأجزاء من محيطها. فرض جيش الفتح قواعد معينة هناك: يجب على النساء ارتداء المعاطف الطويلة واللباس الأسود، الألوان محظورة؛ لا تستطيع المرأة الخروج بمفردها. السكان الذين عادوا إلى المدينة امتثلوا لهذه القواعد التي تم فرضها قبل وصولهم والتي كانت مرتبطة بالفعل بنظام القمع. في المرة الأولى التي قلنا فيها لك فقط أن تفعل هذا أو ذاك، لكن في المرة الثانية يمكننا إيقافُكِ أو إيقاف والدكِ أو أخيكِ أو زوجكِ.

أصبحت الحركات النسائية أكثر تقييداً. ومع ذلك، عادت النساء والفتيات إلى المدرسة، وعاد المعلمون إلى مناصبهم، لكن الجميع بدأوا يفعلون ما يريده الجيش. هذا حيث كنا مخطئين! كان يجب أن نقول لا منذ البداية. لكن الأهالي لم يرفضوا الالتزام بهذه القواعد خوفاً، وأيضاً لاعتقادهم أن هذا الجيش قد حررهم من نير النظام وبالتالي لا يستطيعون رفضه.

بالنسبة لي، النصرة هي نفسها داعش. يجب على النساء الآن ارتداء العباءة والحجاب الأسود. إذا لم يرتدوه، تتدخل شرطة الأخلاق. ومن الواضح أن المعطف الذي يرتفع فوق الكاحل ليس طويلاً بما يكفي، كما أوضحت لي شرطة الأخلاق مؤخراً. يذهب ضباط الشرطة إلى حيث تصطف النساء لشراء الطعام، ويخبرونهن كيف يرتدين من الآن فصاعداً، ويعلقن على ما يرتدينه. في البداية لم يكونوا مخيفين للغاية لأنهم لم يكونوا يحملون أسلحة، لكنهم الآن يتجولون مسلحين لتأكيد سلطتهم. ذهبوا أيضاً إلى الجامعة حيث يُمنع الآن وجود فصول مختلطة. لم أعد أستطيع تعليم الرجال. سألته لماذا هم طلابي بعد كل شيء، وأنا أدرسهم الرياضيات منذ سنوات ... لكن رئيس الجامعة أشار إلى أحد مقاتلي النصرة وأجاب: "سي هكذا الآن! إما أن نتبع قواعدهم أو يغلقون الجامعة ".).

وثمة ما يناظر هذه المدينة أو تلك، من المدن التي اكتوت بوجوه الإرهاب، ولكل مدينة سرديتها، تغريبتها، صوتها المدوي في برية يُشتبَه في أمرها.

هنا تحضر نماذج يوغسلافية إزاء المُشار إليه في حرب هتلر الفظيعة، وأبعد، مدن تتسلسل، تتساقط بأهليها وحيواتها كالفراشات في نيران مباغتة:

(على العكس من ذلك، أتذكر تلك المقابر البوسنية حيث استغلت القذائف الصربية أو الكرواتية الجنازات وسوء الحظ لإضافة المزيد، من الألم والرهبة إلى قلوب هي في حداد بالفعل.

ما زلت أتذكر سراييفو وكلمة: مبيد "urbicide" التي صاغها العمدة السابق لبلغراد، المهندس المعماري بوجدان بوجدانوفيتش للإشارة إلى "طقوس القتل في المدن". المدن، إذن، ليس كهدف استراتيجي ولكن كهدف هوية.

في سراييفو، حكم الكومسيلوك، وهي طريقة للعيش سمحت للمجتمعات بالعيش معاً. هذه الكوزموبوليتانية هي التي تم إسقاطها في نفس الوقت الذي دمر فيه الصرب بشكل منهجي كل التراث المتعدد الأعراق للمدينة: الطبقة العثمانية والنمساوية المجرية وطبقة ميتليوروبا وآثار القرون من اليهود والمسلمين، الديانات الكاثوليكية، الأرثوذكسية ...

طقوس القتل قد حدثت.

كان.

أنظر مرة أخرى إلى الصور الطويلة لجيرار روندو أثناء حصار سراييفو. مثل كل شيء رآه هناك، خلال ذلك الحصار البغيض، تمكن من التعبير، بالأبيض والأسود، عن البساطة الفظيعة. الحرب. دينه الصامت. الحياة اليومية التي تحاول المقاومة. الثلج...

كان الثلج يتساقط في سراييفو.

في ذلك اليوم كان الثلج يتساقط في حلب. وكان عيد الميلاد احتفلنا به. كما في حكاية ملعونة، لن تعرف أبدا الاطفال المتفحمين ولا أدري ما هي الأمتعة.

كتب موريس بلانشو أيضاً أن الكارثة تعتني بكل شيء

وحمص. وكاراكوتش. وجويرنيكا. وهيروشيما. وناغازاكي. وغروزني. ولوهافر. ولوفين. وبيروت في حالة حرب، كتب عنها برنارد واليت في كتاب "المناظر الطبيعية مع أشجار النخيل". وطروادة الذي أبولو وبوسيدون، يخبر الإلياذة، مختزلاً تحت الماء والرمال. وعقاد. وباريس التي أراد هتلر تدميرها. ويأس لييج الذي أحرقه تشارلز الغامق "بشكل كبير" لميشليه. وكل ما أنساه وأتجاهله

- طقوس القتل.

وقرطاج البونية التي سحقها سكيبيو إميليان لتولد من جديد مدينة رومانية. يؤكد جان إيف جوانيس: "أن أكون الجلاد والشاهد bourreau et le témoin، وأن يبكي على المنظر الذي كان سيقدم نفسه له".

ويصوغ هذا الأخير دليلاً قوياً: "إن المذبحة ترقى إلى مستوى العقاب، في حين أن الخراب سيكون وسيلة الإذلال".

وغدا الموصل، وغدا إدلب، واحسرتاه.

متى وكيف سنعيد بناء ما كانت خلفية الحياة وتاريخهم اللامتناهي؟

احترقت روما وبنى نيرون مدينة أكثر ضخامة.

لكن حلب؟ كيف نعيد بناء القرون والقرون؟

حلب، مثل أي مدينة أخرى، لم تكن قط حجرا على حجر على حجر. لقد كانت عمل فكرة متحركة، مثل سمرقند، مثل البندقية، مثل براغ، مثل القدس.

كيف تبني مدينة؟ حتى فيتروفيوس لم يعرف. حتى الكسندر. حتى سليمان. حتى قيصر.

المدن تخترعنا، نحن لا نخترعها أبداً، حتى كبناة وفنانين وفلاسفة، إلا بهذه الطريقة لتعكس ما فعلوه بعبقريتنا الحميمة والجماعية.

تدمير هذه الجغرافيا هو القضاء على رسم الخرائط الحميمة للجميع، إنه نهب للكنز غير المرئي. تدمير الجراثيم الأولى.

يضيف بلانشو أن التفكير في كارثة (...) لم يعد لدينا مستقبل للتفكير فيه.

أعيد قراءة هذا النص الرائع، الجسر فوق نهر درينا لـ إيفو أندريك. جائزة نوبل للأدب اليوغوسلافي تخترع مصير قرية فيزغراد، التي يتم تنظيمها حول جسر فوق نهر ومجتمعاتها.

تمر القرون صماء ومظلمة.

الجسر دائما يقاوم: "اتبعت القمريات بعضها بعضاً واختفت الأجيال سريعاً، لكنها بقيت دون تغيير، مثل الماء الذي كان يتدفق تحت أقواسه. لقد كان يشيخ، بطبيعة الحال، أيضاً، ولكن على نطاق زمني أكبر بكثير ليس فقط مدى عمر الإنسان، ولكن أيضاً سلسلة كاملة من الأجيال ... ".. إيرولدي).

كيف يكون النظر في الجهة الجالبة لأمان ما، للوجه الذي يشير إلى طريق خلاص ما، إلى اليد التي تطمئن بوصفها يد مصافحة، لا مسافحة، أو ضغط على الزناد، أو سحب للصاعق؟

إنها مناورات متداخلة، وقد تداخل العدو ومن كان صديقاً، أو برسم الصديق الآن في هذا المعمعان الجهنمي؟! والمقاومة نفسها محل اختبار، استناداً من كل رقعة مكانية.

لنمض مع إيرولدي، وهو يشير إلى الجسر ورمزيته، وما بعد وصف الجسر ورهابه:

(الجسر يعيش. "لقد اهتز، مثل الغبار، كل الآثار التي خلفتها أهواء الرجال واحتياجاتهم العابرة، وظلّ بالرغم من كل شيء، دون تغيير ولا تغيير".

كتب موريس بلانشو، دعونا نشارك الخلود لجعلها عابرة.

تساعدنا مدننا في هذه المهمة المستحيلة. جميع المدن هي مدننا.

قتلهم هو الغطس في كهف تدنيس المقدسات).

ثمة ما يستدعي الماضي لتكون لوحة الموت الجماعية أكثر فظاعة:

(لا أخلاق في هذا الأمر، لا غنائية، تلك المعاناة، خسارة جسيمة أخرى، تؤثر علينا أيضاً، من خلال حرماننا من ذاكرة أساسية كانت لدينا في قلوبنا أو حتى أننا لم نكن نعرفها والتي تشكلنا.

في النهاية، دعونا نشارك هذه السطور من الكاتبة السورية ماري سورات التي نُشرت في صحيفة لوموند في 17 كانون الأول 2016. ماري سورات من حلب. توفي زوجها ميشال سورات، الذي احتجز كرهينة في بيروت عام 1985، أسيراً في السجون سيئة السمعة لمنظمة الجهاد الإسلامي اللبنانية، المرتبطة بحزب الله، وهي حركة شيعية موالية لإيران. يستحضر قلعة المدينة. يعود التحصين الأول إلى الفترة الهلنستية ومن سلوقس نيكاتور، وهو جنرال من الإسكندر الأكبر. دمرها المغول عام 1260، ودمرتها قوات تيمورلنك عام 1400، وأعادها المماليك وسيادتهم الأشرف قانصوه الغوري في القرن الرابع عشر، وعبر العثمانيون الذين استولوا على حلب عام 1516. زلزال 1822م. اهتز قبل إعادة إنشائه في عام 1850 من قبل السلطان عبد المجيد الأول. في يوليو 2015، دمر انفجار جزءاً من أسوار القرن الثالث عشر.

هل تدمير المغول مقبول أكثر؟ لا بالطبع. لم يتم العثور على الخسارة، لكن القرون تم إصلاحها وظهرت أنطولوجيا جديدة للمكان. ومرة أخرى، يجب أن نعرف ما الذي نتحدث عنه عندما نكتب "الدمار على يد المغول".. إيرولدي)

بالمقابل نكون في مواجهة طبيعة التحركات داخل خريطة إدلب، لحظة الحديث عن "جيب إدلب المعارض":

(يشكل جيب إدلب المعارض، أكثر من مجرد منطقة تمرد، العديد من التحديات الدبلوماسية للقوى المشاركة فيه، وعلى رأسها تركيا وروسيا وإيران.

كجزء من عملية أستانا، تعهد الموقعون الثلاثة بإنشاء نقاط مراقبة على طول خط الجبهة لضمان الاحترام الفعال لوقف إطلاق النار بين المتمردين والقوات الموالية. مع الأخذ في الاعتبار علاقاتها "المتميزة" مع المتمردين، كان من المتوقع منذ البداية أن يكون لتركيا الدور الرئيسي في إنشاء نقاط المراقبة هذه التي تمكنت، علاوة على ذلك، من تثبيتها على الجانب الثوار من البلاد. وليس من جانب الموالين كما فعلت إيران وروسيا. نصت اتفاقية أستانا على أن تنشئ تركيا اثني عشر مركزًا للمراقبة، وروسيا عشرة، وإيران سبعة.

بالإضافة إلى ذلك، تحتفظ تركيا بعلاقات جيدة بشكل مناسب مع بعض الجماعات المتمردة في منطقة إدلب، التي أعيد تجميعها الآن، تحت قيادة أنقرة، في "الجيش الوطني" المذكورة سابقاً. بعض مجموعاتها، ولا سيما أحرار الشام، خدمت ولا تزال تعمل كمساعدين في العمليات العسكرية التركية ضد الكورد على وجه الخصوص؛ لقد أكسبتهم هذه الشراكة لقب "مرتزقة" تركيا من قبل الكورد، أو حتى "الجهاديين" بسبب الإيديولوجية الإسلامية التي تشترك فيها معظم الجماعات المتمردة المنضوية تحت راية "الجيش الوطني".

وبحسب منظمة المرصد السوري لحقوق الإنسان، فإن التفجيرات والاشتباكات في محافظة إدلب منذ بدء الهجوم في أيار تسببت في مقتل 900 مدني ورحيل قرابة 330 ألف آخرين إلى تركيا.. بارث).

ومع إميل بوفييه:

("أعظم كارثة إنسانية في القرن": هكذا تحدث مارك لوكوك، مدير الشؤون الإنسانية بالأمم المتحدة، عن الأوضاع في منطقة إدلب أمام مجلس الأمن في 30 تموز. إذا تم استخدام عنوان "أسوأ كارثة إنسانية" حالياً لوصف صراعات أخرى في العالم، فإن الوضع في منطقة إدلب المتمردة يتميز بخطورته، وعلى وجه الخصوص، من خلال إمكاناته الكارثية المتزايدة في حال فشل المجتمع الدولي في تنفيذ سياسة خفض التصعيد بين مختلف الأطراف المتحاربة في المنطقة.

جيب الثوار الأخير هذا هو جيب حقيقي في الأراضي السورية، محاصر من الشمال الغربي بالحدود السورية التركية، وأقامت تركيا على طوله جداراً، وتحيط به من الجنوب قوات النظام السوري، في الشرق وعلى جزء كبير من الشمال، يقع جزء من الجيب متاخماً من الشمال للأراضي التي يسيطر عليها الجيش التركي وقواته السورية.

أراضي هذا الجيب المتمرّد مشتركة بين عدة مجموعات متمردة والتي، وفقاً للباحث ديفيد ريجوليه روز، الباحث في المعهد الفرنسي للتحليل الاستراتيجي، تمثل "فسيفساء تجمع كل المشاعر الإسلامية". حركتان رئيسيتان تعارضان بعضهما بعضاً.

الأولى هي هيئة تحرير الشام. تشكلت رسمياً في 28 كانون الثاني 2017، وهي في الواقع حركة نشأت – وهي اليوم منفصلة – عن القاعدة، والتي أُطلق عليها على التوالي اسم جبهة النصرة في عام 2012 وفتح الشام في عام 2016. ثلاثون ألف جندي تسيطر على معظم أراضي إدلب.

ويعارض هيئة تحرير الشام تحالف إسلامي مقرب من جماعة الإخوان المسلمين وتدعمه تركيا. هذه هي "جبهة التحرير الوطني" (FLN – Jabat Al–Wataniya Al–Tahrir) ، وتتألف بشكل خاص من جماعة أحرار الشام، والتي تدور حولها مجموعات: فيلق الشام، وجيش العزة، وصقور الشام، أحرار الشام، حراس الدين، جيش النصر، جيش الأحرار، جبهة أنصار الدين، أنصار الإسلام وأنصار التوحيد.

مجموعة ثالثة، أصغر هذه المجموعة، تجمع العديد من الحركات المتجمعة داخل الحزب الإسلامي التركستاني. وهي تتكون بشكل أساسي من الأويغور والأوزبك والشيشان وتدعو إلى الجهاد الدولي، قاتل بعض أعضائها في أفغانستان قبل أن يلتحقوا بالمسرح الشامي.

أما بالنسبة لداعش، فلدى التنظيم عدة خلايا متناثرة وغير منظمة وبدون أي قيادة حقيقية، يقدر عددها بألف مقاتل على الأكثر.

وقد اشتبكت هذه الجماعات الجهادية مراراً وتكراراً من أجل تحقيق مكاسب إقليمية ونفوذ متزايد، كما كان الحال على سبيل المثال من 19 شباط إلى 24 نيسان 2018.).

وهكذا الحال مع نيكولاس تنزر والسخرية المرة والفاقعة للجاري هنا وهناك، كإجراء لحل، أو لإيجاد حل، في سوريا عموماً، وإدلب في المواجهة، طبعاً دون نسيان، أوجه العنف المدمرة، والإرهاب المرئي في الجوار، وأمكنة أخرى:

(تقسيم أوروبا على سوريا عامل مضاعف آخر، إلى جانب انسحاب المملكة المتحدة العالقة في خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي، من المسرح العالمي. عدم القدرة على التنبؤ من جانب تركيا العضو في الناتو وميل بعض دول الخليج إلى التخلص من جرائم الأسد من خلال إعادة فتح سفارتها في دمشق – والتي يجب أيضاً (على الرغم من عدم تأكيد القرار)، أن تُعاد إلى جامعة الدول العربية، التي ستُعقد قمتها القادمة في الحادي والثلاثين من آذار، كان له تأثير أيضاً على إضعاف تحالفاتنا المحتملة في المنطقة.

نعم يمكننا العمل

لكن فرنسا ليست خالية من أي قدرة على المبادرة وهي في وضع يمكنها من إقناع بعض الحلفاء في الاتحاد الأوروبي، سياستنا في سوريا لا تنفصل عن ثلاثة اعتبارات عالمية.

أولاً، تتم في إطار كفاحنا من أجل احترام القانون الدولي، وخاصة القانون الإنساني، ومسؤوليتنا عن الحماية (R2P): حجم الجرائم ضد الإنسانية وجرائم الحرب التي يرتكبها النظام وداعموه – وكذلك لا يمكن أن تكون الأطراف الأخرى، وإن كانت مشاركة بدرجة أقل، موضع إدانة شفهية وحدها.

عندما يحين الوقت – ما زلنا بالتأكيد بعيدين عن ذلك – يجب أن تضمن الانتخابات الحرة في سوريا، تحت السيطرة الدولية، مشاركة الجميع، بمن فيهم اللاجئون. بعد إفلاس المبعوث الخاص السابق للأمم المتحدة، ستيفان دي ميستورا، مهما كانت الأسباب، فإن الموقف الذي يبدو غير مدرك لحيل روسيا الجديدة، غير بيدرسن (الذي لم يطرح حتى مسألة إطلاق سراح السجناء السياسيين)، يمكن أن تكون إشكالية. يتطلب هذا الخطر أيضاً التزاماً أقوى من فرنسا وأوروبا، حتى لو علمنا أن الدبلوماسية لن تكون كافية.



من المستبعد أيضاً أن أكثر من 5.6 مليون لاجئ يمكنهم العودة وأن 6.2 مليون نازح داخلياً يمكن أن يصلوا إلى محافظاتهم – علاوة على ذلك، فإن القانون رقم 10 (الصادر عن دمشق) الذي ينظم نهب ممتلكاتهم يستبعد الكثير منهم. يجب أن تواجه هذه الملاحظة الواضحة أيضاً فرنسا وأوروبا – وبالطبع دول المنطقة – في سياسات اللجوء الخاصة بهم.

سوريا تهدد بأن تصبح هذه العلبة بعيدة عن الأخبار الدولية لأن الصرخات لن تصل إليها بعد الآن. قد يرتاح ضميرنا جباناً، ويخف إحراج جبننا، لكن انعدام الأمن في العالم سيتضخم وسيكون هذا إرثاً لنا).

والمفارقة الموازية بلسان آخر، وهو نسوي إدلبي تماماً، وعمق العذاب المرصود:

(ثورة ثانية على جيش الفتح؟

الجزء الأصعب هو رؤية من شاركنا معهم في المظاهرات الأولى ينقلبون علينا. أولئك الذين كانوا أصدقاءك، حلفاءك بالأمس، هم الذين يضطهدونك الآن! الأشخاص الذين سرنا معهم جنباً إلى جنب في الاحتجاجات المناهضة للنظام، هم أنفسهم الذين قلقوا على سلامتنا وتأكدوا من عدم حدوث أي شيء لنا في الاحتجاجات. هؤلاء هم نفس الأشخاص الذين يقولون لنا اليوم ألا نغادر منازلنا. إنهم يضطهدوننا بقدر النظام! ولكن كيف نقبل أن يأتي هذا القمع الآن من الذين انتفضوا معنا ضد النظام؟ عندما نقول لأصدقائنا أنه لا يمكننا الصمت، ولا يمكننا السماح لأنفسنا بالقيام بهذه الطريقة، يجيبون علينا: "هل من المفترض أن نبدأ ثورة ثانية؟ ألم نخسر أرواحاً كافية بالفعل؟"

المشكلة هي أن الكثير من الثوار تخلوا عن المعركة. وعندما أتحدث إلى الأصدقاء الثوريين، فإنهم لا يشعرون بالقلق مثل النساء الثوريات من المصير المفروض عليهن. إنهم لا يدركون أنهم التالون على القائمة، كما هو الحال في الرقة! حتى أنهم يفرضون هذه القواعد على زوجاتهم ... في الوقت الحالي لا يرون المشكلة، لكن القيود لا تتعلق فقط بالسجائر والملابس. يعتبر حمل العلم الثوري الذي يسمونه علم الكفر جريمة.

تحرير إدلب؟

لا يمكننا القول إن إدلب قد تم تحريرها! إنه شكل آخر من أشكال القمع الذي نشأ ... لا يوجد سوى عدد قليل من الأماكن في الريف حيث يقاوم السكان بفضل المجالس المحلية القوية، التي كانت موجودة هناك لفترة طويلة، والتي ترفض السيطرة ووجود

الأجانب المقاتلين. جميع المقاتلين محليون، وهذا أمر حقيقي لتغيير قواعد اللعبة. هذا يسمح لهم بفرض قواعدهم الخاصة ومواصلة العيش كما كان من قبل. كانت النساء هناك أكثر تحفظاً في القاعدة، لكننا لم نجبرهنّ على تغيير عاداتهنّ في ارتداء الملابس أو إعاقة الدورة الدموية بفرض حراسة عليهن. والرجال يدخنون الشيشة بحرية في الشارع. الشعار الأسدي "بشار أو لا شيء" أصبح "نصرة أو لا شيء": لقد أخذوا البلد لأنفسهم! الناس الآن يلومون الثورة على جلب النصرة إليهم، لكن هذا لم يكن على الإطلاق أحد أهداف الثوار ... لقد صادروا الثورة والآن هم يسرقوننا من البلاد!

النصرة تحرم الحديث بتعبير ثورة عن الوضع في سوريا. بالنسبة لهم هو جهاد! إذا اعترضنا على هذا المصطلح وقلنا لهم أن الأمر كله لم يبدأ بالجهاد بل بالثورة، فإنهم يرفضون هذا التفسير. بالنسبة لهم، إنه مجرد جهاد.روديونوف).

وإلى أين، أو وماذا بعد، بعد هذا الكارثي؟

ربما هناك ما يستوجب التقاطاً للأنفاس، والدخول في حساب سريع. التشاؤم بالمطلق، أم ببعض أو كثير منه، دون نسيان جرعة محمودة من التفاؤل، تجنباً للوقوع في أيدي الجلادين، أو إعلان نهاية كارثية لمن يواجه الخراب وذويه وحماته ومنظريه، والتشبث بالحياة:

(الآن الجدار قد عاد مرة أخرى – المكان المعلوم هو الجهاز المتفجر الذي تم التغلب عليه، وكتبت ماري سورات: "نسخة داكنة من القلعة مؤطرة في عام 1909، مؤطرة بعدسة لامبوين المكبَّرة، معلقة على شكل نذُر سابق على جدار مدخل بلدي شقة باريسية، وكأن على المنفى تحديد الجينوم الخاص بها. القلعة صورتي التقية، مجال مغناطيسي. مثل العذراء والقلب المقدس. دائماً في مرمى البصر، بجميع أشكاله وطبقاته، نقش، قلم، زيت، مائي. كانت هناك موارد شاملة في الماضي، والتي سمحت لي حتى وقت قريب بتذكر كل الذكريات: التعريشة، والياسمين، وكونفيت السترون. فستق ومشمش مجفف بالشمس، صابون غار، حمامات ساخنة، نوافير مجمدة.

والسمكة الذهبية في مثمن بركته. من الأفضل التوقف عند هذا الحد ... أليس ذلك أساساً من الذكريات التي يعاني منها الهستيري؟ أشاهدها وهي تفتح فمها في هذه القلعة. يبدو أنها لا تزال واقفة").

لكنه التفاؤل الذي يُخشى منه، على وقع هذا الخراب المستشري:

(الخوف من حلب جديدة:

بعد سقوط حلب في كانون الأول 2016، بدأ الخوف الشديد لدى الناس في إدلب. عندما رأينا كيف دمر النظام المدينة وعامل الثوار وكيف أنهك المدينة حتى اللحظة الأخيرة ... كنا خائفين لأننا من آخر معاقل الثورة في الشمال السوري مع بضعة أماكن في ريف حلب. رأينا كيف فر الناس وهم يعيشون الآن في المخيمات. فقط النشطاء والقادة العسكريون الذين لديهم بعض المال لاستئجار منازل وصلوا إلى إدلب. إذا هاجم النظام إدلب فأين نذهب؟ لم يتبق لنا أماكن أخرى للجوء إليها، خاصة وأن تركيا أغلقت حدودها ... لذا فالناس خائفون جداً جداً بعد سقوط حلب.

لكن ثوار إدلب كانوا يأملون أيضاً أن يؤدي وصول الثوار الذين طردوا من حلب إلى تغيير ميزان القوى في المدينة، بعد وصولهم، تظاهرنا معاً ورأينا مرة أخرى أعلام الثورة ترفرف في إدلب، كانت هناك لحظة أمل، كان يُعتقد أن اضطهاد النصرة سينتهي. وبعد ذلك، بدأت الجماعات النسائية في الاحتجاج على قواعد النصرة.

اخترت الثورة واخترتها جزئياً لأنني كنت أتمنى أن أحقق حياة أفضل لمن حولي، لكن للأسف لم ننجح في جلب أي شيء آخر غير الموت والدمار والقصف. واليوم آمل أن يتوقف القتال والحصار المفروض على السكان المدنيين وخاصة في الغوطة. لكن لأكون صادقًا، أشعر أن هذا الحلم ضخم وطويل الأمد. الحلم الذي سأتمكن بلا شك من تحقيقه هو وقف القتال... روديونوف).

أي غد ينتظر إدلب، ينتظرنا مع إدلب، ينتظر البلد، وضمناً إدلب، ينتظر البلد والمنطقة، حيث شعوب كثيرة تكابد إرهاباً متعدد الوجوه والألسنة، لكنه يعدم الحياة في كل شيء، حتى في نفوس الذين يتبنونه، أو يتفاخرون بما يقومون به، وتحت تسمية أخرى؟

هل ستُرى إدلب وقد خرجت من بين أنقاضها، كأي مدينة، تكون إرادة الحياة أقوى من تصورت القتلة، ومورّثي الخراب، والعنف هنا وهناك؟



مصادر وإشارات:

1- جان بول شانيولو: الإرهاب (وبلغة الجمع أيضاً) في ملتقى البحر الأبيض المتوسط 3/2017 .

Jean-Paul Chagnollaud: Terrorisme(s)Dans Confluences Méditerranée 2017/3 (N° 102)

2- سيرج ايرولدي: قبر حلب، وقتل في بعض الأماكن الأخرى، في ملتقى البحر الأبيض المتوسط 3/2017 (رقم 102)

Serge Airoldi:Tombeau d'Alep,Et de quelques autres lieux tués,Dans Confluences Méditerranée 2017/3 (N° 102)

3- بنجامين بارث: "أعظم قصة رعب إنسانية في القرن الحادي والعشرين" حالياً في إدلب بسوريا.

Benjamin Barthe :« La plus grande histoire d'horreur humanitaire du XXIe siècle » a actuellement lieu à Idlib, en Syrie

4- اميل بوفييه: أكبر كارثة إنسانية في القرن، 9-8/ 2019

Emile Bouvier: "plus grand désastre humanitaire du siècle" 29-8- 2019.

5- نيكولاس تنزر: في سوريا يجب ألا يغطي الصمت الجرائم المرتكبة في إدلب، 18-3-2019.

Nicolas Tenzer: En Syrie, le silence ne doit pas recouvrir les crimes commis à Idlib,18-3-2019, theconversation.com

6- شارلوت لوريس روديونوف: المقاومة النسائية في إدلب: خط سير إحدى الناشطات (مجلة الجلبة، العدد 83، 2018/ 2)

Charlotte Loris-Rodionoff: Résistance féminine à Idleb itinéraire: d'une activiste,Dans Vacarme 2018/2 (N° 83)

ملاحظة: أشيرَ في نص إيرولدي إلى ماري سورات، وأراها جديرة بالتنويه هنا، لأهمية الاسم ومأساة الاسم وتاريخه بالمقابل. ومن خلال متابعة انترنتية قليلاً. إن لها أكثر من موقع إعراب في هذا المقال المركَّب:

ولدت ماري معمر في26 كانون الثاني 1949 في حلب، كان والدها مزارعاً، حيث درست الفنون التصويرية في أكسفورد، ثم انتقلت إلى الولايات المتحدة، وفي عام 1973 التقت ميشيل سورا في بيروت، حيث تزوجت من عالم الاجتماع والباحث في المركز الوطني الفرنسي للبحث العلمي الذي اختطف في 22 أيار 1985 في بيروت من قبل منظمة الجهاد الإسلامي. تم إعلان وفاة زوجها في 5 آذار 1986، بعد هذه الأحداث كتبت كتاب "الغربان من حلبCorbeaux D Alep"، حيث أدانت نفاق السياسة. "عن ويكيبيديا"

ولها أكثر من كتاب، وهناك ما كتب عنها، وعن استماتها في الدفاع عن حياة زوجها، باعتبارها قضية إنسانية. وقد تمكنت من معرفة حقائق كثيرة جرّاء روحها المقاومة.

أي اكتشفت بالمصادفة ...DÉCOUVERT PAR HASARD، كما سنرى.

أخيراً، ستكون ماري سورات قادرة على الحداد عشرين عاماً لاستعادة الجسد من زوجها، الباحث مايكل سيورات، ولسنوات عديدة، بينما بدت ماري سورات تبكي في الصحراء، وراء الألم والدموع، قادت ماري سورات معركة طويلة وشاقة للعثور على جثة زوجها، الباحث الفرنسي ميشيل سورات، للتعرف عليها. وأخيراً تمكنت من التعرف عليها.

لتحزن مع ابنتيه. سمعت بعد عشرين عاما. نجح المختبر المركزي للشرطة القضائية في باريس في التعرف عليه بمقارنة الحمض النووي الخاص به مع أحد أبنائه.

خطوات كثيرة، أسئلة كثيرة ونفس صرخة التمرد نفسها: "اعثر على زوجي وأعدْه إلي"، ظلت ماري سورات تسأل. من كان يظن أنه سيتم سماعها أخيراً وأنه سيتم العثور على جثة، حتى عظام ميشيل سورات، ضحية الحرب في لبنان، وتحديد هويتها وإعادتها إلى الوطن!

ستكون محنة زوجته الطويلة مصحوبة به لفترة طويلة، إلى ما بعد وفاتها!

في 22 أيار 1985، في خضم الحرب، تمّ إبعاد عالم الاجتماع والباحث في المركز الوطني للبحث العلمي، ميشيل سورات (المعروف على وجه الخصوص بعمله في الحركات الإسلامية) الذي يعيش في بيروت مع زوجته، وكانا بالكاد ينزلان في مطار بيروت. حين أعلنت جماعة "الجهاد الإسلامي" السرية الموالية لإيران مسؤوليتها عن اعتقاله. لم يتم إعدامه في مارس 1986، كما أعلن سجانيه، لكنه توفي عن عمر يناهز 37 عاماً بسبب السرطان، وفقاً لشهادة زميله في الزنزانة، جان بول كوفمان. الذي تم إطلاق سراحه في 4 أيار 1988، مع اثنين آخرين هما الرهينتين الفرنسيين الدبلوماسيين مارسيل كارتون ومارسيل فونتين. في وقت مبكر من عام 1986، طالبت ماري سورات بإعادة جسد زوجها الذي لا يمكن تعقبه، وفي 25 تشرين الأول 2005، أبلغتها وزارة الخارجية الفرنسية بأنه "عُثر عليه".

اكتشفت بالمصادفة ...DÉCOUVERT PAR HASARD

بالمصادفة، في الخريف الماضي، كشف العمل في أحد مواقع البناء عن بعض العظام التي يمكن أن تخصه والتي أحالت السلطات اللبنانية عينات منها إلى قاضي مكافحة الإرهاب، جان لوي بروغيير، الذي كان يقود التحقيق في اختفائه في فرنسا. وكانت مديرية المراقبة الإقليمية التي تلقتهم، عهدت بهم إلى المختبر المركزي للشرطة

القضائية، الذي نجح في استخراج آثار الحمض النووي القابل للاستخدام. إنها، أخيراً، خاتمة محنة طويلة لعائلة سورات. سيدفن ميشال سورات في منزله على التراب الفرنسي.

في 22 أيار 2002، عندما أصبح "حزب الله" الشيعي، الذي يعتبره الرهائن الراعي الرئيسي لعمليات الخطف، قوة مهمة على الساحة السياسية اللبنانية، ماري سورات وابنتيها وخمسة رهائن فرنسيين اختطفوا في لبنان في ثمانينيات القرن الماضي (روجر أوكي، وجان بول كوفمان، ومارسيل كارتون، وجورج هانسن، وجان لويس نورماندين) قدموا شكوى ضد إكس أمام المحاكم الفرنسية بتهمة "الاختطاف المشدد والحبس القسري فيما يتعلق بمشروع إرهابي". فتح تحقيق قضائي. ماري سورات لا تتوقف عند هذا الحد. تستنكر تباطؤ العدالة الفرنسية. "كيف لا نتفاجأ"، كتبت في رسالة وجهتها إلى وزير العدل ونشرت في الصحافة الفرنسية، أن فرنسا، التي كانت المحرض على لجنة ميليس في لبنان وتبذل طاقة هائلة لتحديد (...)المذنب بارتكاب أعمال إرهابية، ويمكن أن تتصرف تجاهي بشكل عرضي"؟

بناءً على شهادة الرهينتين الفرنسيتين السابقتين، كوفمان وكارتون، والتي تفيد بأن زوجها كان محتجزاً مع رهائن أمريكيين، تستنتج أن رعاة عمليات الاختطاف قد تم تحديدهم وإدانتهم. "وهو ما يرقى إلى القول إن قتلة زوجي قد تم تحديدهم بالفعل من قبل العدالة الأمريكية".

Article paru dans "La Revue du Liban" N° 4039 Du 4 Au 11 Février 2006,www.rdl.com.lb

بالمصادفة كانت محافظة إدلب

خطيب بدلة

قاص وروائي سوري.

في سنة 1960 أصدر جمال عبد الناصر (الرئيسُ المصري الأسمر الذي أُهديت إليه سورية، في سنة 1958، ليحكمها بوصفه قائد الأمة العربية من المحيط إلى الخليج) مرسوماً بإحداث محافظة إدلب، وقد أشير إلى إدلب، في نص المرسوم، على أنها الأقضية الغربية من حلب.

هذا صحيح بالطبع، فإدلب لم تكن، يومئذ، تمتلك مقومات المحافظة، وما هي إلا بلدة كبيرة نسبياً، تبعد عن حلب، غرباً، حوالي 60 كيلومتراً، ريفية، زراعية، رعوية، وفيها صناعات يدوية تقليدية مثل صناعة الزنابيل والقواديس والحصر، إضافة إلى صناعة الألبان والأجبان ومشتقات الزيتون. وهي ليست ذات تاريخ عمراني طويل.

لم أقل هذا الكلام لكي أسيء إلى مدينة إدلب، كلا وحاشا أن أفعل ذلك وقد ولدت فيها، وعشت فيها، وأحببتها، وياما كتبتُ عنها وعن أهلها بحب، وما يزال لي فيها أصدقاء وأهلون، إنما أردت أن أقدم توصيفاً دقيقاً للواقع.. وأزيد على ما قلت أن أهل إدلب وأريافها، ظلوا، نحواً من أربعين سنة بعد مرسوم عبد الناصر، مرتبطين اقتصادياً واجتماعياً وعاطفياً ووجدانياً بحلب، فأثناء جلسات الخطوبة (فَصل حَقّ رقبة البنت)، مثلاً، كان أهل العروس، في كثير من الحالات، يشترطون على أهل العريس أن يكون شراء "الجهاز" والعفش من حلب، وإذا مرض أحدٌ من أهل إدلب وأريافها، وكان مرضه حرجاً، يذهب إلى طبيب مختص أو أكثر في حلب، وحتى الصور الشخصية كان الشباب الأدالبة يذهبون إلى حلب للحصول عليها من ستوديو ديكران، حيث تطلعُ صورة الإنسان فيها حلوة، وتبدو عيناه كاشفتين، وليس كمصوري إدلب الذين كانالزلمة

يطلع من تحت أيديهم (بيخوِّف)، أو – كما يقول أهل سراقب – (بيوَخِّف)، وكذلك يذهبون إلى حلب ليتمشوا في الحديقة العامة "المشتل"، أو شارع بغداد، ويتفرجوا على الصبايا المتحررات الجميلات، أو ليحضروا فيلماً في سينما فؤاد، أو سينما الزهراء، أو سينما حلب، أو ليأخذوا مدقّة عرق في خمارة هب الريح، أو عند حنا كعدة، لأن شرب العرق في إدلب فضيحة (جرصة)، وبعضهم كان يتسلل، بعد شرب المدقة باتجاه شارع 242، شرقي باب الفرج (هذا المكان الذي أغلق سنة 1974).. إلخ.

المهم بقى سيدي، صارت إدلب محافظة قبل الأوان، ومشيت أمور تطورها في البداية ببطْء شديد، ثم أخذت بالتسارع ابتداء من عقدي الثمانينات والتسعينات، فصرنا نقرأ، في الصحافة، دراسات نقدية، تتحدث، مثلاً، عن الشعر في محافظة إدلب، القصة القصيرة في محافظة إدلب، الرواية في محافظة إدلب، المسرح في محافظة إدلب.. وهذه التصنيفات، برأيي المتواضع، كانت تنطوي على كثير من الخطابة، والنوايا الحسنة، سيما حينما يُرفق معدُّ الملف كلمةَ إدلب بـ "الخضراء"..

أتوقع أن يسألني مَن يصل إلى هنا، بنبرة احتجاج: أأنت تستخف بهذه الدراسات؟ أم تريد أن تقلل من شأن كتاب إدلب؟

الجواب: لا طبعاً. أنا لا أستخف بأحد، لا في إدلب ولا في مقديشو، ولكنني أستغرب اللجوء إلى هذا النوع من التصنيفات التي تفضح الطبخة.. تصور، يا رعاك الله، أن معرة النعمان أصبحت، بعد سنة 1960، تابعة لإدلب، وبعض الدراسات الصحفية كانت تأتي على ذكر أبي العلاء المعري بوصفه شاعراً من محافظة إدلب! مع أن أبا العلاء، إذا توخينا الدقة، محسوب على الثقافة الإنسانية، يمنح متنوريها الذين يحترمون العقل شعوراً بالزهو، ويسبب للأغبياء استفزازاً يدفعهم لقطع رأس تمثاله أينما وجد.

الآن.. لو أن صحفياً مصرياً أراد أن يتحدث عن الرواية في محافظة الاسكندرية، مثلاً، لاستطاع أن يعثر على خمسين تجربة روائية اسكندرانية، بينما الروائي الوحيد الذي أنجبته محافظة إدلب هو الراحل عبد العزيز الموسى، من مدينة كفرنبل. وإن

كان أستاذنا حسيب كيالي قد كتب ثلاث روايات هي: مكاتيب الغرام، وأجراس البنفسج الصغيرة، وحكايات ابن العم (سيرة روائية)، فلأن حسيب كان أديباً شاملاً، أبدع في الشعر، والمسرح، والرواية، والمقامات، بالإضافة إلى هوايته الأساسية، القصة القصيرة..

ملاحظة: طبعاً، في وقت لاحق، كتبت ابتسام تريسي مجموعة من الأعمال الروائية، وكذلك عبد الرحمن حلاق.

وإذا أردتَ أنت أن تتحدث عن القصة القصيرة في إدلب، ستلاحظ، بلا شك، أن حسيب كيالي، وشقيقه الأكبر مواهب، عاشا في إدلب إلى ما قبل ظهور علامات النبوغ عليهما، فوقتها كانا يعيشان في دمشق، محسوبين على القصة القصيرة السورية التي بدأت ملامحُها تتشكل في الأربعينات والخمسينات، وكان عدد القصاصين السوريين، ابتداء من علي خلقي وفؤاد الشايب حتى وليد إخلاصي وزكريا تامر، لا يتجاوز أصابع يدين اثنتين، أو ثلاث، وإن كان حسيب قد استدعى، في الكثير من أعماله، الواقعَ الاجتماعي الإدلبي، إلا أنه لم يكن يأتي إلى إدلب، ولا حتى زائراً، فقد عاش في دمشق وباريس ودبي (ومات ودفن فيها، تموز 1993).. ومواهب كيالي عاش في دمشق مدة قصيرة، وأصدر مجموعة قصصية واحدة هي "المناديل البيض"، وكان أحد مؤسسي رابطة الكتاب السورية 1951، وانتُخب رئيساً لها، وحينما أصدرت الرابطة مجموعة قصصية مشتركة، كتب لها قصتين إحداهما بعنوان درب إلى القمة، وبعدها سافر إلى موسكو، وبقي فيها إلى حين وفاته 1977.

طيب؛ إذا فرضنا، جدلاً، أن القاصين مواهب وحسيب كيالي محسوبين على القصة الإدلبية.. بماذا نفسر عدم ظهور قاص واحد، حتى ولو كان وجهُه – على حد تعبير حسيب – بعرض إصبعين، إلى أواسط الثمانينات حيث بدأنا، بدأنا، نجم الدين سمان وأنا، نكتب القصة القصيرة؟ والحقيقة أن نجم كان يعيش في حلب، ويأتي إلى إدلب حينما يشتاق لوالديه وإخوته.

الجواب عندي أن البيئة الإدلبية، زراعية فلاحية على وجه العموم، ومن ثم هي غير منتجة للأدباء، ويمكننا اعتبار كل الذين ظهروا منها استثناءات من تلك القاعدة، والدليل أنه مرت عشر سنوات أخرى حتى ظهر كل من الراحل تاج الدين الموسى..

يمكن الحديث عن نجيب كيالي بوصفه كاتباً متميزاً في مجال أدب الأطفال، وقدم تاج الدين الموسى تجربة قصصية لافتة، تجلت برصده تفاصيل الحياة اليومية في قرية "المركونة"، وهو يقصد بها نموذجاً يمثل القسم الأكبر من القرى التابعة لمنطقة معرة النعمان.. وكان تاج قاصاً مهماً بحد ذاته، ولكن أهميته تضاعفت عندما مشى ابنه مصطفى على خطاه، واستمر يكتب حتى تجاوز المحلية الإدلبية، والسورية، وصار يُعرف في نطاق عالمي، وترجمت أعماله إلى لغات حية.

وفي وقت متأخر ظهر القاص عماد كركص بمجموعة قصصية ساخرة، ثم عمار الأمير بمجموعتين.

لا شك أن الراحل محمد الشيخ علي كان علامة فارقة في كتابة الشعر الحديث، وأنا سأغامر وأقول إنه كان مدرسة، وأعلل هذا الزعمَ بأن معظم الشعراء الذين جاؤوا بعده تأثروا به في بداياتهم، ثم حاول كل منهم، كياسر الأطرش وعبد الرحمن الإبراهيم وحكمت جمعة ومحمد شيخ إسماعيل، أن يحفر لنفسه مجرى خاصاً..

ملاحظات:

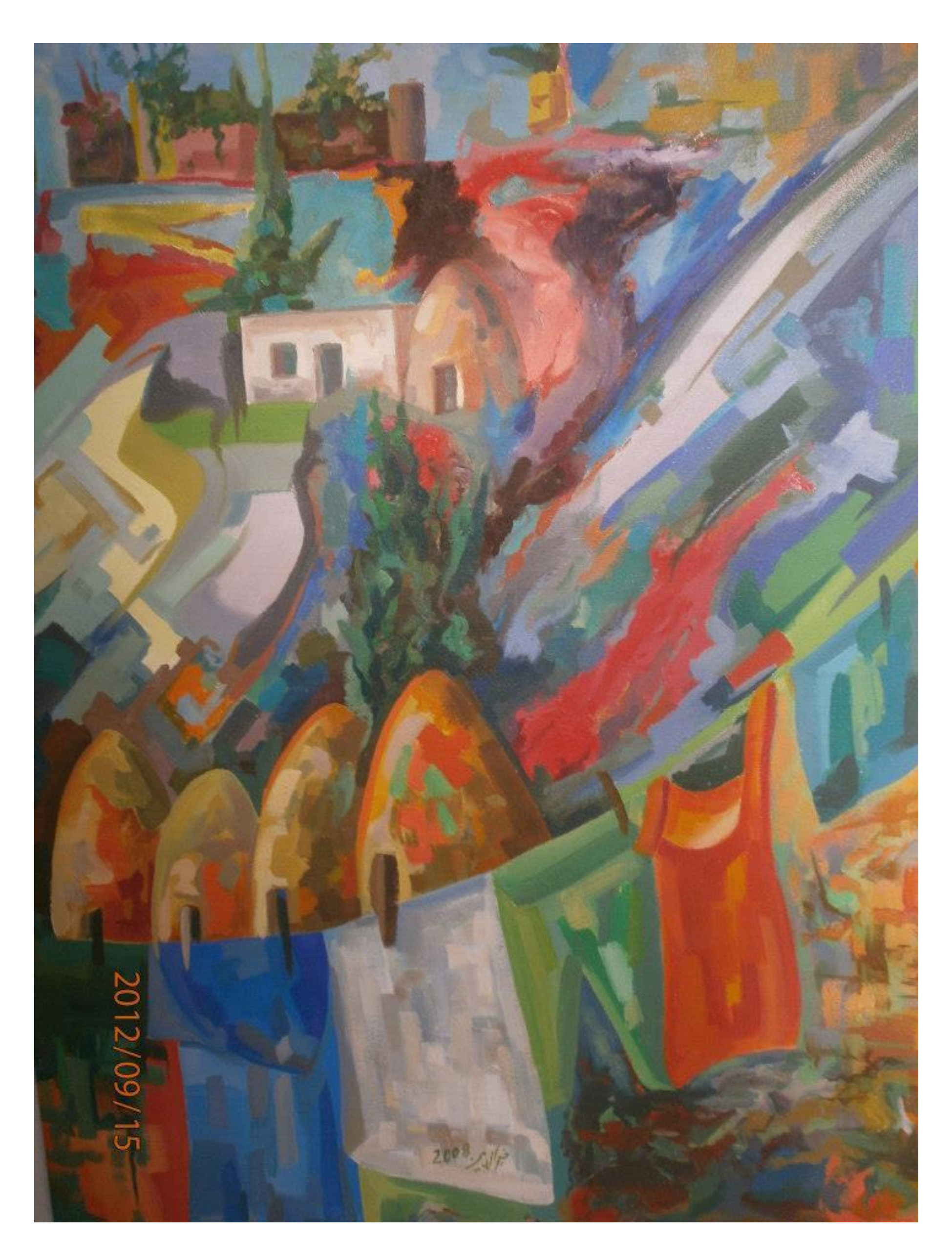
1-كان بإمكان عبد العزيز الموسى أن يكون أفضل مما كان عليه. وأظن أن السبب هو إصراره على البقاء في محافظة إدلب.

2-كان بإمكان محمد الشيخ علي أن يكون أفضل مما كان عليه. وأظن أن السبب هو إصراره على البقاء في محافظة إدلب.

3-كان يمكن لرياض نعسان آغا أن يكون أديباً كبيراً لو لم ينشغل بالسياسة والمناصب، فهو ذو موهبة كبيرة. (اقرأ بشكل خاص كتابه: سارح في الزمان)..

4-عند الحديث عن المسرح لا يمكننا إلا أن نشير إلى التجربة الغنية للأستاذ مروان فنري التي استمرت منذ الخمسينات.

5-أعتقد أن أهمية إدلب الكبرى، الآن، تأتي من خلال مأساتها الإنسانية الكبيرة، بعدما تآمر عليها نظام الأسد، وهجر قسماً كبيراً من أهلها، وهجر قسماً كبيراً من إخوتنا السوريين من جنوب سورية.



من أعمال خير الدين عبيد

إدلب كنز سوريا الحضاري والثوري

د. رياض نعسان آغا

كاتب ومسرحي وإعلامي ووزير ثقافة سابق.

أسعدني أن تخصص مجلة أوراق عدداً خاصاً عن إدلب، وأن تقفز هذه المدينة الصغيرة الوديعة التي كانت منسية قروناً إلى اهتمام إعلامي دولي، وقد تذكرت حادثة طريفة من أوائل خمسينيات القرن الماضي، حين خرج ثلة من أولاد حارتنا إلى الشارع يهللون ويغنون فرحاً فهرعت إليهم أسألهم عن المناسبة، فقالوا "طلع اسم إدلب في الراديو"، وكانت تلك البهجة الطفولية تعبيراً عن إحساس شعبي بقسوة الإهمال الذي عانى منه أهل إدلب ولاسيما حين خاب رجاؤهم بمرور القطار من بلدهم، فضلاً عن انزياح الأوتستراد الواصل بين اللاذقية وحلب وتحوله من أريحا إلى سراقب دون المرور بإدلب، وكان مروره يجعل إدلب واسطة العقد بين محافظتين كبيرتين، وكان المسافرون يجدون في استراحة إدلب فرصة طيبة لتذوق أشهر حلويات إدلب التي تسمى "شعبيات"، وقد زاد خروج الأوتستراد بعيداً عن مدينة إدلب من عزلتها، ولم يكفّ أهل إدلب عن المطالبة بوصلها بشبكة المواصلات الرئيسة، وأذكر أن وفداً شعبياً من وجهاء إدلب سافر في أواخر الخمسينيات إلى العاصمة للقاء المشير عبد الحكيم عامر يطالب بمرور السكة الحديدية في المدينة حتى لو طال الطريق قليلاً بين حلب واللاذقية أو ازدادت كلفته، فارتباط المدنية بشبكة المواصلات يفك العزلة وييسر لعشرت الآلاف من سكانها تواصلاً أكثر حيوية وأقل عناء مع باقي المحافظات، لكن المشير رفض ذلك، كما أذكر أن نخبة من وجهاء إدلب مضوا لاستقبال الرئيس ناظم القدسي حين زار إدلب، وألقى خطاباً من شرفة السرايا القديمة، في شارع ضيق لحرص أمني وقلق من مواجهة الناصريين والجماهير التي ترفض الانفصال، وكنت قد تسللت بين الناس إلى مقربة من الرئيس، فلما بدأ خطابه فاجأه الناس بالحجارة وبالشتائم وبالهتافات المضادة، وقد تابع الرئيس خطابه لكن الشرطة لاحقت الشباب الثائرين، وقبضت على

العديد منهم، وحدثت الفوضى واتسع الشغب، واختصر الرئيس خطابه، وصعد إلى قاعة الاستقبال حيث وجهاء إدلب يتفاءلون بفرصة تقديم مطالبهم، وقد روى لي والدي رحمه الله، وكان أحد أعضاء الوفد أنهم اختصروا مطالبهم إلى رجاء الرئيس أن يأمر بالإفراج عمن قبضت عليهم الشرطة ورجال الأمن، فاستجاب وأمر بألا يكون هناك معتقل واحد ممن اعتدوا عليه.

وقد تكرر المشهد في الزيارة الوحيدة التي قام بها حافظ الأسد لإدلب، وكنت أقف بعيداً عن الحشود الرافضة، وأرى سحابة من الأحذية تملأ الفضاء تعبيراً عن الرفض، وأحسب أن هذه الحادثة تركت لدى النظام نفوراً كبيراً من إدلب وأريافها، فازداد إهمال الحكومات المتتالية لإدلب، ثم جاءت أحداث الثمانينيات وتعرضت المحافظة كلها وبخاصة جسر الشغور لعنف ترك آثاره الدامية في قلوب الناس، واعتقل مئات الشباب، وقتل المئات، واتسع الشرخ بين إدلب والنظام.

ذات يوم سألني أحد كبار المسؤولين "لماذا يكرهنا أهل إدلب؟" وجاء جوابي دبلوماسياً "الطريف أن أهل إدلب يسألونني لماذا يكرهنا النظام؟" وذكرت له أن إدلب تشعر بإهمال حكومي مديد ومتراكم، فلا توجد مشاريع تنموية ولا يوجد اهتمام بتطوير المحافظة والإفادة من ثرواتها، وحين حملت حقيبة وزارة الثقافة "2006– 2010" أطلقت تسمية "المدن الحاضرة في الذاكرة" بدلاً من "المدن المنسية".

ويعرف الآثاريون أهمية محافظة إدلب بكونها معبر سوريا البري الأشهر نحو أوربا، وهي على مدى التاريخ من أهم الثغور التي دارت فيها الصراعات العسكرية منذ أن بدأ تحرير بلاد الشام من الاحتلال البيزنطي الرومي، وما تزال بعض الطرق الرومانية المعبدة حية في أرجاء المحافظة، ولن أتحدث عن آثار إدلب رغم اهتمامي الثقافي والحكومي بها، فقد كفانا الحديث عنها سيل من الدراسات والأبحاث الأثرية المتخصصة من كبار علماء الآثار السوريين والمستشرقين، وهذه مناسبة أوجه فيها التحية لصديقي

الباحث فايز قوصرة الذي أثرى بدراساته وأبحاثه المتخصصة بتاريخ إدلب مكتبتنا الأثرية.

ولقد تحدثت في كتبي "سارح في الزمان، وسارح في المكان، ومن أريج الشام" عن كنز إدلب الحضاري، وهو من أهم كنوز سوريا، ويضم أكثر من خمسمائة موقع شهير، وتحدثت عن لقائي الأول بالبرفسور باولو ماتتيه، عام 1975، وهو في طريقه إلى مكتب محافظ إدلب ليعلن كما أعلن أرخميدس "وجدتها"، يقصد "إيبلا"، فقد وجدت بعثته الإيطالية جذع تمثال من البازلت كشف الباحثون أنه لملك يدعى "ليم إيبت" وفيه كتابة مسمارية باللغة الأكادية، بينت أن اسم الموقع هو "إيبلا" وقد كشفت الأبحاث الأولى عن سويات من العصر الحجري النحاسي في بدايات الألف الرابع قبل الميلاد، وسويات من البرونز القديم والوسيط والحديث ومن عصري الحديد الأول والثاني، وأكدت هذه الاكتشافات أن إيبلا شهدت ازدهارها في الألف الثالث قبل الميلاد.

كان اكتشاف إيبلا بما حظي به من تغطية إعلامية دولية قد أثار اهتماماً دولياً بآثار إدلب، فتدفقت البعثات الآثارية لتكشف المزيد من خفايا الكنز الضخم الذي يتجاوز ثلث ثروة سوريا من الكنوز الحضارية، والمفجع أن هذه الكنوز تعرضت للقصف والتدمير، وللسرقة والتهريب، وبخاصة آثار إدلب التي عبث بها العابثون والمجرمون.

فأما الثروة الإنسانية البشرية الهامة في إدلب، فقد بلغت ذروتها الناهضة مطلع القرن العشرين، حين أطلق على إدلب لقب "الأزهر الصغير" لكثرة ما كان من أبنائها من العلماء، وكان أشهرهم الشيخ محمد طاهر ملا الكيالي الذي كان يحاضر في الأزهر الشريف في مصر، وهو أستاذ أجيال من نخب علماء إدلب.

وكان من أشهر علماء إدلب وشيوخها أستاذنا الجليل الشيخ نافع شامية، وكان من اللامعين الكبار أستاذتنا أحمد قطيع وحكمت المعلم وسليم الخطيب وآخرون يصعب حصر أسمائهم.

والمفارقة أن الجامع الحمصي الشهير في إدلب كان يبعد بضع خطوات من دار السينما، وفوقها بيتنا القديم، وقد نشأتُ بينهما، فأحببت الإسلام وأحببت السينما، ولعي بتّ وسطياً أتفهم أهمية تراثنا وحضارتنا العربية الإسلامية، وأهمية التواصل مع العصر وإنجازاته العلمية والتقنية والفنية.

كان صديقي الفنان مروان فنري عاشقاً للمسرح، وهو الذي دفعني لخوض غمار هذا الفن، وقد أقنعني بأن ألعب دوراً في مسرحية من إخراجه، كتبها صديقنا عبد الفتاح قلعجي وعنوانها "الفصل الثالث" وهكذا دخلت عالم المسرح، لكني بدأت تجربتي الأهم في الكتابة للمسرح، وقد كتبت مسرحية شعرية أخرجها مروان فنري بعنوان "تراجيديا أوليس"، وبها دخلت عالم الثقافة والفن هاوياً في دمشق.

كان نخبة أصدقائي من جيلي ومن الجيل التالي شباناً موهوبين، وقد برز كثير منهم في الساحة الثقافية الإبداعية السورية والعربية، وأول صديق لي كان عبد الله سمسوم، وقد أجلسنا الشيخ نافع في الصف الأول الابتدائي في مقعد الدرس متجاورين، وامتدت صداقتنا حتى وفاة عبد الله رحمه الله، وقد غادر إدلب إلى موسكو ودرس النقد وعمل في الصحافة والإعلام فيها، وكنا عبد الله وأنا أصدرنا مجلة مدرسية في مدرسة المتنبي بعنوان "براعم تتفتح" وقد استقلّيت بها وأصدر عبد الله مجلة بعنوان "نور على يقين" قبل أن يتحول إلى الفكر الماركسي.

وقد خطفني فن الدراما التلفزيونية مطلع السبعينيات، وواكب اهتمامي بها شغف صديقي رياض سفلو رحمه الله بفن المسرح ودراما التلفزيون، وحين انتقلت للعمل في التلفزيون أقنعت رياض سفلو بأن يغادر إدلب وأن ينتقل للعمل في التلفزيون، وقد مضينا معاً في مسيرة فنون الدراما والتلفزيون سنوات طويلة وكان رياض موهوباً ومهنياً بارعاً، فضلاً عن كونه رجل قيم سامية.

وسرعان ما برز في إدلب شباب مبدعون، تألقوا في الكتابة المسرحية والتلفزيونية والصحافة النقدية، كان من أبرزهم نجم الدين السمان وخطيب بدلة، وهما الأكثر تأثراً

بأديب ضخم خرج من إدلب إلى فضاء الأدب العربي، وهو حسيب كيالي، وقد أبدع خطيب بدلة ونجم الدين السمان في فنون القص الساخر، وكانت حلبات الشعر ملآى بمبدعين موهوبين كان أهمهم عندي محمد الشيخ علي رحمه الله، ولا يتسع المجال لذكر شعراء إدلب الذين ورثوا المكانة عن شاعر أستاذ هو بديع المعلم رحمه الله ، كما ورثوا الطرف من حسيب كيالي، ومن أبرزهم أنس دغيم ونجيب كيالي وبراء الشامي وجهاد نعسان آغا وعبد الرزاق كنجو فضلاً عن كونه فناناً تشكيلياً، فأما الشاعرات فحسب إدلب وريفها ما أبدعته سيدة الشعر العربي المعاصر صفية الدغيم.

ولسوء الحظ انقطعتُ عن مواكبة الأجيال الشابة في إدلب بسبب فاجعة التغريبة السورية، التي مزقت الأسر، وشردت الشباب، واحترقت في أتونها إدلب كما احترقت باقي المحافظات، وقد كبرت الفواجع في إدلب التي كانت وقود الثورة السورية، متفوقة على أجيال الآباء الذين أطلقوا الثورة السورية الكبرى ضد الاحتلال الفرنسي، وكان قائد ثورتهم البطل الرمز إبراهيم هنانو ونخبة من رجال المحافظة، وقد بات جبل الزاوية ميدان البطولات التي اتسع نطاقها وكبرت تضحياتها في ثورة الكرامة والحرية، وقد زاد الفجيعة انهيار الجيش الحر الذي هزم داعش وقدم بطولات أسطورية، لكن ضياع بوصلة الثورة وتعدد الجبهات فيها جعلها في مهب رياح الصراعات الدولية. وما نزال نترقب خلاصاً وتحقيقاً لأمل شعبنا كله في نيل الكرامة والحرية، وعودة الحياة الكريمة لسوريا وشعبها العظيم.

لماذا إدلب؟

عبد الرحمن حلاق

عبد الرحمن حلاق 1960 كاتب وإعلامي سوري من إدلب، صدر له مجموعة قصصية وروايتان.

قبيل المساء في يوم مضى من عام 1977، كنا مجموعة شباب تتراوح أعمارنا بين (16 –20) عاماً نتمشى في شوارع سراقب نتصارع بالكلمات ويحاول كل منا أن يُقنع الباقين بوجهة نظره الفكرية أو السياسية أو الأدبية، تجمعنا عدة أحزاب سرية. وكانت المعارك تنتهي دوماً بسهرة طرنيب عامرة ... كنّا ذات يوم مضى في مدينة اسمها سراقب.

على مدى نصف قرن تم تأطير المحافظة في صورة نمطية ساذجة، تظهر أبناء المحافظة في صورة المتخلف فكرياً، المتشدد دينياً، اللواطي الذي يستمتع بالمؤخرات، وعملت أجهزة المخابرات على ترويج القصص والطرائف والنكت التي تصب ضمن هذا الإطار في حالة من الترسيخ الدائم لهذه الصورة حتى باتت في أذهان معظم السوريين، وأسهم الكثير من السوريين البسطاء والسذج والمثقفين أحياناً في استمرارية تداول هذه الصورة، إن بوعي أو بغير وعي، إلى أن جاءت الثورة التي فاجأت النخبة المثقفة قبل غيرها، فأذهلتهم لافتات كفرنبل التي تخاطب العالم بوعي متقدم وراق وباللغتين العربية والإنكليزية، وكذلك فعلت جداريات سراقب، برسوميات إبداعية ورؤية فكرية واضحة، وأيضاً قدمت مظاهرات المحافظة القيمَ ذاتها بشكل عام. ووجد أصحاب الصورة النمطية أنفسهم أمام حركة تُظهر عكس الصورة المستقرة في أذهانهم، أما صانعو الصورة أنفسهم (النظام ومخابراته) فقد سعوا بكل ما يمتلكون من قوة تدميرية إلى نسف كل من يسعى إلى تكذيبهم.

لماذا إدلب؟

يستطيع المتتبع لوقائع الأحداث القول إن فرع حزب البعث في إدلب كان آخر فرع في سوريا يرضخ لسلطة الأسد، إذ لم يعترف بانقلابه إلا بعد مناورات كثيرة لعبها الرفاق على بعضهم البعض في حينه، لكننا ببساطة شديدة نستطيع القول في الجواب عن السؤال السابق: لأن حافظ أسد أول رئيس في العصر الحديث يتلقى صفعة بحذاء على وجهه أثناء إلقاء كلمته أمام جماهير المحافظة في زيارته اليتيمة إلى مدينة إدلب سنة 1971، كان عبدالله الأحمر إلى جانبه يومئذ، وهو من منع الحذاء من الوصول إلى وجه الرئيس. ولم تمض بضع سنوات أخرى على الحادثة حتى ألقى عليه أحد أبناء "كفرنبل" قنبلة في محاولة اغتيال كادت أن تودي بحياته، وإذا أردنا البحث أكثر لاستطعنا أن نستعيد أحداث مظاهرة سنة 1974 حدثت في إدلب احتجاجاً على غلاء الخبز.

فإذا كانت الحادثة الأولى (الضرب بالحذاء) قد تركت في نفس حافظ أسد ندبة لا تزول وعقدة لا فكاك لها ولا يمكن إخفاؤها، وكان من أولى نتائجها تحويل الخط الدولي بين دمشق وحلب والذي كان من المفترض أن يمرّ في إدلب المدينة ليبتعد عنها شرقاً مسافة ثلاث عشرة كيلومتراً ويعزلها اقتصادياً، فإن الحادثة الثانية (محاولة الاغتيال) قد أسست لحالة قمع تام لأي معارضة يمينية كانت أو يسارية بحيث تتصحر البلاد سياسياً كما جرى في مطلع الثمانينات. وتمّ بعد ذلك التعتيم الشامل على كل ما يحدث في المحافظة حتى أن التاريخ يذكر مجازر النظام في حلب وحماه ويتغافل عن مجازره في إدلب وأريحا وجسر الشغور، ولم يقتصر الأمر على الحالة السياسية أو الاقتصادية، بل طاول التعتيم الحالة الثقافية برمتها.

لم تكن صورةً حسنةً من وجهة نظر النظام أن يخرج مجموعة من الشباب في سراقب في مظاهرة يحملون فيها لافتات واضحة تقول (أنا كردي. أنا مسيحي، أنا علوي، أنا درزي، أنا اسماعيلي) تلخصها لافتة تقول (أنا سوري)، وعندما بدأت لافتات كفرنبل

بالظهور بدأ بعض الرماديين بمحاولة النيل من هذه البلدة (المتخلفة) لكنهم صمتوا بمجرد علمهم أن هذه البلدة الصغيرة تحوي أكثر من مئتي شهادة عليا، كذلك لم يعرف أياً منهم أن الروائي عبد العزيز الموسى الحائز على جائزة نجيب محفوظ هو ابن هذه البلدة، وهو المهمش مرتين الأولى لأنه ابن المحافظة والثانية بسبب آرائه الجريئة، كان من الممكن لصحافة النظام آنذاك أن تحتفل بفوزه لكنها انشغلت بالاحتفال بمن جاء بعده بالترتيب (حسن حميد) المقرب جداً من علي عقلة عرسان المفروض قسراً على اتحاد الكتاب العرب لأكثر من ربع قرن مضى.

وإذا عدنا في الذاكرة قليلاً إلى الوراء، واستحضرنا شيخ الأدب الساخر حسيب كيالي لأدركنا قصدية التهميش، إذ بقي هذا الأديب الكبير خارج اهتمامات السلطة ومثقفيها إلى أن توفي سنة 1993، ومرّ خبر وفاته في حينها كأي خبر اعتيادي، وبقي طيّ التهميش إلى أن أصبح رياض نعسان آغا وزيراً للثقافة، وبسبب قربه الشديد من بشار أسد استطاع أن يُذكّر النخبة المثقفة به، ويعيد طباعة أعماله ضمن بدعة احتفالية خاصة عُرفت في حينها باسم احتفالية (المدن المنسية)، وإذا كان شيخ الأدب الساخر قد استطاع أن يجد لنفسه موطئ قدم بين الأعلام الكبار قبل وصول البعث وأمينه العام إلى السلطة فإن مبدعين كثر من أبناء المحافظة قد جرى طمس أسمائهم في الداخل السوري رغم شهرتهم النوعية في الخارج، ويأتي في مقدمتهم الفنان التشكيلي عبد القادر النائب ابن مدينة أريحا.

لم يكن التهميش –بالطبع– علنياً، وغالباً كان يتم عبر أسلوب المنع، فالمخرج السينمائي منير فنري لم يستطع استكمال فيلمه عن الشمال السوري بسبب القصور المقصود في الدعم المادي من قبل المؤسسة العامة للسينما، وكاتب هذه السطور لم يُمنح الموافقة على سيناريو (جبل السماق) الذي يحكي بطولات ثورة الشمال ضد الاحتلال الفرنسي، بحجة أن التلفزيون السوري أنتج مسلسلاً عن نفس الفترة الزمنية. ولم تتوقف طرق التهميش عند هذا الأسلوب بل قد يصل الأمر إلى التهديد المبطن،

ولا أنس يوم زارني رئيس فرع إدلب لاتحاد الكتاب العرب سابقاً (م. ق) بعد أن قرأ روايتي الأولى قلاع ضامرة 2007، ليمنحني نصيحة لوجه الله بألا أُهدي نسخة من الرواية للشاعر (م. خ) مخافة أن يكتب تقريراً ناعماً لفرع الأمن فيلحقني أذى ما. أجبته يومها بأني أعطيت الشاعر نسخة قبل سنة فإن لحقني أذى فمن غيره. في الوقت ذاته كان بعض الأدباء في مقاهي حلب يتهامسون حول روايتي بأنها ما كانت لتطبع لولا وساطة صاحب دار الحوار كونه المستفيد الأول مادياً منها. وقد أسرّ لي أحدهم بخوفه من الكتابة عنها، ولولا خوفي أنا عليه لذكرت الأحرف الأولى من اسمه.

ضمن هذه الأطر الأمنية كان التهميش والاستبعاد يجريان على قدم وساق، حتى أن أحد أساتذة الجامعة في جامعة تشرين أبدى ذهوله ودهشته عندما علم أن ثمة أنثى من محافظة إدلب تكتب الرواية، كان ذلك في 2010 عندما دخلت (عين الشمس) للروائية السورية إبتسام تريسي القائمة الطويلة لجائزة البوكر، وعندما أرادت إحدى مذيعات التلفزيون أن تجري حواراً معها أخبرتها بأنها مصدومة بالفعل كيف لم يسمع بها أحد بعد ثلاث مجموعات قصصية وأربع روايات. المذيعة لم تستوعب الأمر بالتأكيد لأنها لا تعلم أن هذه الروائية هي ذاتها المدرسة التي فصلت من التدريس بسبب رأي لها في الرفيقة المظلية ألماظة خليل، كانت يومئذ مُدرّسة خارج الملاك وعندما تقدمت لمسابقة تعيين في وزارة التربية رُفضت أيضاً بسبب انتماء أبناء عمها لجماعة الأخوان، وربما لمواقف أبيها الذي خلّدت كفاحه فيما بعد بالجزء الثاني من جبل السماق.

أما عن الوجه المشرق الحقيقي لهذه المحافظة فقد تجلى واضحاً جلياً في المواقف الوطنية والرؤى الفكرية في بدايات الثورة السورية لأبناء وبنات المحافظة ويكفي أن نذكر بالمظاهرة النسائية الضخمة التي قامت بها نساء (معرة النعمان) ضد جبهة النصرة عندما استفحل توحش هذا الفصيل في القضاء على كل ما يمتّ للثورة السورية.

لقد شاءت أجهزة المخابرات الإقليمية والدولية أن تجعل من هذه المحافظة بؤرة لكل أشكال التطرف الديني، وذلك بأضخم عملية دعم لنظام الأسد إذ كادت هذه المحافظة أن تُسقط النظام الذي يحاول العالم اليوم إعادة تدويره، وبسواعد أبنائها فقط وبما تغتنمه من الجيش العربي السوري الذي انقسم برضوخه للسيادتين الإيرانية والروسية، لذلك حقّ عليها القول من الإدارة الأمريكية التي شاءت تعفين الوضع ولم تسمح بأي انتصار وأعلن أكثر من متحدث في الإدارة أن إدلب ستكون المحرقة، فضخوا فيها كل حثالات التشدد الديني ووجهوا إليها كل الباصات الخضر، وقضوا على كل أمل مشرق لدى أبنائها، والفصائل الإسلامية التي ادعت نصرة الشعب السوري اتضح أنها مصنعة بشكل أو بآخر للقضاء على ما أنجزته الثورة في البدايات، ومازال سجون جبهة النصرة على سبيل المثال تغص بشباب لم يستطع النظام اعتقالهم فغيبتهم في سجونها.

اليوم نستطيع القول بعد كل هذه المجازر بحق محافظة إدلب أننا لن نرى على أرض المحافظة في المستقبل القريب حلقات الدبكة المشتركة بين الشباب والصبايا، فقد أتمّ الإرهاب فكره. وغُيّب المتنورون، لن نرى كتاباً وأدباء لأن الأطفال في المخيمات ينتظرون السلال الغذائية ويمرحون في الطين، في ظل غياب التعليم، لن نرى لوحات فنية تشكيلية لأن الرسم حرام، ولن نرى مسرحاً لأن التشخيص حرام، ستغيب الفنون والآداب طويلاً وتغيب العلوم طويلاً ويبقى الأمل منعقداً على الأجيال القادمة عندما يعود المهجرون قسرياً إلى بيوتهم، ومثلما استطاعت مدن المحافظة أن تنجو من مرحلة الثمانينات بكل ما فيها من قهر وكبت وحصار، ستنجو كذلك من هذا الموات وسيخرج من أصلاب أبنائها الكثير من المبدعين والمبدعات.

مكتبة متنقلة... سقطت ولم تسقط

عدنان عبد الرزاق

كاتب وإعلامي سوري مقيم في تركيا

بالفعل، أهمل نظام الأسدين إدلب، والأسباب أكثر من أن تحصى، أو من أن تحدد بدقة، فما يقال عن ضرب حافظ أسد، بالبندورة أو بحذاء، من رجل اعتلى عمود كهرباء أو من على سطح بناء، خلال جولة حافظ أسد على المدن السورية بعد انقلابه بما يسمى "الحركة التصحيحية" وهو يقول "يا أسد قول للسادات ناصرية للممات" هي سبب وربما وجيه ويستأهل من منطلق حقد حافظ الأسد، أن يموت بعد نحو ثلاثة عقود، من دون أن يعاود زيارة إدلب.

لكن هذا السبب، من منطلق دولة ورئيس، غير كاف، ما يجعل لحلب ربما، المدينة الكبرى المجاورة والمستلبة لمعظم الضوء بشمال غرب سوريا، دور، أو لزرع محافظين ورؤساء أفرع أمنية بمدينة إدلب "ثقة ومقربين" سبب آخر، فالمقلّب لتاريخ إدلب بعد وصول الأسد الأب للسلطة، سيلحظ مسؤولين من "عظام رقبة الأسد" تبوؤوا بالمدينة مناصب تريح ربما حافظ الأسد، خاصة بعد حركة الإخوان المسلمين نهاية السبعينيات ومطلع ثمانينيات القرن المنصرم، وقت كانت إدلب من "المدن الإخوانية" البارزة، إن بجسر الشغور أو سرمين أو مدن جبل الزاوية، وهذا سبب إضافي على غضب الأسد على "الخضراء"

وربما من أسباب أخرى، يراها هذا أو يستنتجها ذاك، لكنها –الأسباب– مجتمعة، أبعدت محافظة إدلب برمتها، رغم الذي فيها من آثار، يقال خمس آثار سورية، أو ثروات زراعية وكفاءات بشرية، عن الضوء، وقلما خرج منها علم أو قامة، من دون أن تختم

له حلب جواز شهرته أو يذهب للعاصمة ليثبت كفاءته ضمن صراعات، بالغالب لها أثمان باهظة.

بيد أن ثمة مواهب وقدرات، مرت من إدلب وعليها، كانت شواذ قاعدة التعتيم، إذ تمتلك من الاختلاف والفرادة، ما جعلها، رغم أنها من إدلب، موضع طلب وحفاوة، وذيع صيطها من إدلب، قبل أن تتوّج شهرتها من خارج المدينة، والتي هي بالأصل-للتاريخ- تأثرت بسياسة الإقصاء والإهمال، فقلما رأينا تمردات ثقافية أو حركات معرفية، كما فعلت سلمية أو السويداء على سبيل المثال، واللتين لم تختلفا ربما، عن إدلب لجهة الإهمال والإبعاد عن الأضواء.

فقلما اهتم سكان إدلب بالثقافة والمراكز الثقافية والندوات المعرفية وحركة الفنون، رغم أن بعض دارسيها ومثقفيها، كانوا من قادة تلك الحالات في حلب.

وربما في هكذا طرح، أعتقده الأقرب للحقيقة وشهادة ابن البلد، استفزاز لبعض الغيارى على إدلب، وعلى وجاهته وأهميته، ربما الغوص فيه سيخرجنا عن هدفنا المنشود.

لذا، سآتي من دون مزيد استهلال، على حالة إدلبية، لم تخرج من قوقعة الإهمال لأضواء حلب أو شهرة العاصمة دمشق، بل تعدت حدود سوريا ودخلت من دون استئذان، غرف نوم جميع العرب وتسللت، بشكل أو بآخر، لكبرى المكتبات فباتت مرجعاً متخصصاً، يصعب ربما، على عربي يسعى للتاريخ التركي وسياسته وثقافته، أن يتجاهل كتبه أو يهمل أبحاثه.

عبد القادر عبد اللي الذي غيّبه الموت بمدينة أضنا التركية، فجر الخميس في الثاني من آذار عام 2017 عن ستين عاماً، بعد صراع مع مرض السرطان تاركاً ثمانين كتاباً ترجمه من وإلى التركية، وعشرات الأبحاث والأعمال الدرامية والسينمائية المترجمة، قبل أن يصبح مرجعاً للسوريين وغريهم، وبوصلة يسترشد بها الإعلاميون والمثقفون، لما جرى ويجري وربما لما سوف يجري، بتركيا ولها.

وعرف عن المرحوم عبد اللي المولود في مدينة إدلب شمالي غرب سورية عام 1957، الجدية والغزارة بالإنتاج منذ بداية دراسته بكلية الفنون الجميلة بتركيا عام 1979 وحصوله على الليسانس من جامعة "المعمار سنان" بإسطنبول ومن ثم الماجستير عن أطروحته "استخدام المنمنمات الإسلامية مع النصوص" عام 1985، ليبرز اسم عبد اللي، بالوسط الثقافي السوري أولاً، بعد ترجمته قصص تركية عام 1985، ليلمع اسمه إثر ترجمة رواية "زوبك " لـ"عزيز نيسين" عام 1989 لتساهم بشهرته ويرتبط اسمه باسم "نيسين" بعد أن ترجم له "حكايات" عام 1991 لتتوالى الترجمات، لنحو مكتبة صغيرة، من وإلى التركية، شملت كتّابا من اليسار واليمين التركيين، وتناولت أنواعا مختلفة من الأدب، قصة مسرح، رواية، إضافة إلى كتب بحثية وتاريخية، وهو ما أعطى التجربة غنى وتفردا، وخاصة بعد طلب الكثير من الكتاب الأعلام الأتراك،

حصرية ترجمتهم بعبد القادر عبد اللي، كما فعل النوبلي "أورهان باموق"، منذ ترجم له "اسمي أحمر" ومن ثم معظم أعماله البالغة ست روايات، فضلاً عن الترجمة لعدد من الكتاب المهمين من أمثال "يشار كمال"، "أورهان يشار" و"فقير بايقورد" إضافة إلى أعمال مسرحية، كنص "علي الكشاني" لـ"خلدون تنر"، ومختارات من القصة التركية المعاصرة.

أغلب الظن، لا يوجد غير عبد اللي، ترجم عن اللغة التركية ثمانين كتاباً، بل وزاد عن الكتب التي تعمّد أن تشمل القصة القصيرة والرواية والكتب التاريخية، السينما والدراما، فكان أول سوري يفتح نافذة تركيا للعالم العربي ليصحح ربما ما شوهته السياسة و"القومجيون" عن الجار الشقيق، مذ صوروه بالمحتل المتخلف وكرسوه بالذواكر كعدو مغتصب بغيض.

من الصعب ذكر عزيز نيسين، مروراً، حين التطرق ل عبد اللي والأدب التركي، فـ" زوبك" كانت مجرد بداية، بيد أن المترجم الذي يصحو باكراً كما قال لي المرحوم مرة، تابع إكساء تلك القامة الأدبية التركية الساخرة، لحماً وروحاً، ليسوقه على غير شبه

الاسطورة التي كان يسمع بها العرب عن صاحب "آه منا نحن معشر الحمير "ليعُرف فيما بعد، وخاصة بعد مكوثه بتركيا بعد الثورة واستعادة لياقته وعلاقاته، شيخ المترجمين" وأكثرهم محافظة على روح وخصوصية لغة وبيئة الأعمال التي تخرج عنه، بروح ورائحة عربية.

وعبد اللي من دون الدراما والسينما، تنكّر لبعض جهده، خاصة لجمهور لا يقرأ، فهو من دخل غرف نوم العرب جميعهم، بعد أن ترجم، أو –للأمانة– أول من ترجم الأعمال الدرامية التركية "مسلسل نور " ليتابع بعدها بأعمال عدة، ربما كان أشهرها "وادي الذئاب" وكأن الرجل أخذ على عاتقه نقل تركيا الاجتماعية وحتى السياسية، بعد تطورها وقفزاتها مطلع الألفية الجديدة، حتى للأميين ومن يكرهون قراءة الكتب وملاحقة الأدباء والاصدارات.

الحديث الموجع عن عبد القادر لا ينتهي، لما له من قدرات وما يتحلى به من جدية ومثابرة وتوثيقية افتقدها معظمنا، نحن أصدقاؤه ومدعي الثقافة والذي بغالب الأحايين، كنا مستمعين أو محاججين مؤدبين، وقتما يطرح عبد اللي موضوعاً أو يبحث بنقاش وقضية.

فلعبد القادر الإنسان المعطاء، مشوار طويل من القصص والنبل والشهامة، ولعبد اللي الحاد الذي لا يعرف المراءاة، اختبارات وإحراجات، بل وملاحقات لم يسلم منها، حتى بعد عيشة بدمشق بسني ما قبل الثورة.

إلا أن ذكر المبدئية بتلك القامة، واجب، يزيده مفرزات ومدعي زمن الانبطاح والتلوّن الذي نعيش، إذ لم يك بقاموس عبد القادر، من وجود لعبارات المهادنة أو التملّق، كما لم تدخل الخسارة يوماً، ضمن ميزانه، وقت يتطلب الأمر شهادة أو موقفاً أو فعلاً. ولعل بوقوفه إلى جانب الثورة آخر الأدلة، والتي بدأها مذ كان طالباً واستمرت عبر علاقاته مع المعارضة ودخوله بكل بيان وحالة، تعرّي نظام الاستبداد وتفضح جرائمه.

نهاية القول: في أيامه الأخيرة وأنا إلى جانبه بالمشفى، قال لي "أبو خيرو" سأشفى وأعاود العمل، أشعر أني عالة على نفسي من دون كتابة، وبصوت يكاد لا يسمع، بعد أن نال المرض الخبيث من جلّ صوته، حكى لي عن مشروعات مؤجلة وأخرى لم تكتمل، بأمل وهمة، ربما لم أرها عنده، طيلة معرفتي به الممتدة لنيف وربع قرن، لكن الحق نادى فاستجاب عبد اللي ليترك أحلاما مؤجلة وغصة بحلق كل من عرفه..

بيد أن الأمل بتجدد المشوار تعاظم، بعد أن نال ابن عبد القادر، محمد خير أخيراً، جائزة عن ترجمته رواية، عمل الشيطان للتركي حسين رحمي غوربينار، بمسابقة حملت اسم عبد القادر عبد اللي.. ولا أنكر أني حبست دموعي خلال تسلم محمد الجائزة وتكلمه عن أبيه، لأني رأيت فيه، بشكل أو بآخر، ربما معظم أسرار أبيه.



أعيدوا السوريين إلى منازلهم

غسان الجباعي

كاتب ومخرج مسرحي وروائي سوري ومعتقل سابق

من المحزن والطريف أيضاً، أن تُشكل، في إدلب الخضراء، فرق مسرحية تخلو تماماً من النساء، وذلك بسبب هيمنة المدعو أبو محمد الجولاني (القائد الأعلى لما يسمى بحركة تحرير الشام) وسيطرة الإسلاميين والتطرف الديني، على مدينة عبد الصمد الكيالي "أحد رواد المسرح في إدلب"، والحقوقي الثائر إبراهيم هنانو، والأديب المناضل صاحب "المناديل البيض" مواهب الكيالي (أول رئيس لرابطة الكتاب السوريين 1951) والأديب الساخر الأشهر حسيب كيالي، وغيره من المبدعين أمثال: تاج الدين الموسى، خطيب بدلة، نجم الدين السمان، رياض سفلو، مروان فنري وغيرهم الكثير.

لقد ألصقت تهمة الإرهاب بهذه المدينة المسالمة وأهلها الطيبين، ظلماً وعدواناً، كما ألصقت بالسوريين وثورتهم، علماً أنهم، مثلهم مثل أي شعب آخر، حلموا بالحرية والكرامة والتغيير.. وأهالي إدلب، مثل أهالي المحافظات السورية الأخرى؛ ليسوا طائفيين ولا إرهابيين، كما يحلو للبعض أن يصنفهم، بل هم شعب عريق متحضر منفتح؛ يحب الحياة ويحلم بمستقبل أفضل لأجياله.

وقد عاش السوريون الكثير من النكبات والنكسات، واستطاعوا –في كل مرة– أن ينهضوا من رمادهم، كما نهضت الشعوب التي تعرضت للمحن والأهوال: فعندما استسلمت ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، كانت حطام بلاد وبقايا شعب، وكذلك اليابان وفيتنام وكوريا، وأغلب دول إفريقيا وأمريكا اللاتينية؛ بعضها تمكن من النهوض بسرعة، والبعض ما زال يحاول..

شعوب كاملة في أوروبا أصيبت بالإحباط والتمزق والانهيار التام، بسبب الحرب! خمسة ملايين أسير ومعتقل ألماني (في سيبيريا وحدها)، عشرة ملايين قتيل، عشرات ملايين الجرحى والمعوقين، منازل ألمانيا ومدنها العامرة سُوّيت بالأرض، قوات الحلفاء فككت مصانعها وسرقت آلاتها ودمرت بنيتها التحتية بشكل كامل. لم يبقَ فيها غير النساء والأطفال والشيوخ... ثم تلتها فترة النهوض من الركام، بقيادة نسائها، وفي غياب

تام للحكومة: بدأن بجمع الأنقاض لإعادة بناء البيوت، ومن تحت الركام، جمعن الأوراق والكتب، وفتحن المدارس، وكتبن على بقايا الجدران المحطمة شعاراتٍ تبث الأمل وتحث على العمل (لا تنتظر حقك، افعل ما تستطيع، ازرع الأمل قبل القمح..) وفي عام 1954، فازت ألمانيا بكأس العالم لكرة القدم (وكانت أصابع اللاعبين تخرج من أحذيتهم المهترئة). بدأت مرحلة البناء بالإيمان والأمل والعمل، وتمكنت (نساء المباني المحطمة) من صنع النجاح تلو النجاح، إلى أن توحدت ألمانيا من جديد، وسقط جدار برلين، وأصبحت ألمانيا –اليوم– أقوى اقتصاد أوروبي.

يختلف الألمان –طبعاً– عن السوريين، وكذلك أهالي ستالينغراد ووارسو وسيربرينيتسا، عن أهالي إدلب وغيرها من المدن السورية، من حيث الثقافة والتاريخ والجغرافيا والاقتصاد، لكن الشعوب هي هي، إرادة الحياة فيها أكبر من الموت والدمار. إنها تحمل في جذورها بذور الرحمة والحب والعدالة والجمال، وفي نسغها رحيق المستقبل! وهي –في النهاية– ضحية الحروب والصراعات والأطماع السياسية والاقتصادية، التي تقف أمامها وخلفها، عبر العصور.

لا يوجد شعب طائفي أو متخلف أو همجي أو عنصري! ولا يجوز أن نطلق مثل هذه الصفات على أي تجمع بشري تجاوز عصر الظلمات، فما بالك إذا كان هذا التجمع شعباً واحداً، تحكمه وحدة اللغة والأرض والثقافة والقيم والتاريخ العريق والمصير المشترك؟ إذا أردت أن تتعرف على السوريين حقاً، اخرج من شاشات التلفاز والإعلام المغرض، وغص في أعماقهم. عش معاناتهم، وسوف ترى بعينك وتلمس بيدك، طيبةَ هذا الشعب المفعم بالعواطف واللهفة الإنسانية والأخلاق النبيلة والصبر. إنهم اليوم (بكل أطيافهم) يتقاسمون الرغيف واللحاف والدفتر، كما تقاسموا الدم والدمار والبراميل المتفجرة والموت تحت التعذيب. لم يعرفوا الطائفية قبل ثورة البعث والأحكام العرفية وحكم العسكر، وقبل أن يقوم نظام "الأبد" بسحقهم وتمزيق وحدتهم، وتخويف (الأقليات من الأكثرية)؛ ولم يعرفوا العنف الوضيع، قبل أن تتبرع الفصائل الطائفية المتوحشة (المصنعة والمستوردة) بذبحهم، دفاعاً عن الله وجنّتة الموعودة، أو صوناً للمقامات الدينية المنسية ورموزها البائدة منذ قرون...

من يريد أن يتعرف على هذا الشعب السوري، الذي تُرك في مهب الريح والقسوة، وتآمرت عليه وسائل الإعلام كلها –دون استثناء– العربية والدولة، الموالية والمعارِضة، وبجميع اللغات، بما في ذلك اللغة العربية التي كانت تصب النفط على النار، وتدفع هذا الشعب –بقوة– نحو الشيطنة والعنف والتطرف والطائفية والسلفية... ولم تستطع –حتى الآن– تحقيق أهدافها.

من يريد أن يتعرف على السوريين، عليه أن ينظر بعمق في عيون أطفالهم ونسائهم (المحجبات والسافرات)، ليكتشف –ببساطة– أنهم شعب لا يهزم، ومن لا يرى في هذه العتمة غير السواد، أو يرغب أن يدفع بالتي هي أسوأ؛ فله ذلك!

لا شك أن الأنذال وتجار الحروب والقوادين موجودون أيضاً، وقد عملوا على تفكيك وحدة السوريين، مستغلين تنوعهم الغني، بتأجيج الحس الطائفي واللعب على وتر الدين والعرق والمذهب، لكن هؤلاء الدخلاء لا يمثلون السوريين، بل يمثلون مشغليهم من الدول الإقليمية والدولية، ونحن، إنما نتحدث هنا عن الناس البسطاء الفقراء العاديين الذين فقدوا كل شيء، وهم لا يهتمون –اليوم– إلّا بالمنزل أو الحقل أو مسقط الرأس الذي يسمونه وطناً، ضاربين عرض الحائط بالتنظيرات والتحليلات السياسية والفكرية وخرائط الطريق كلها، وليس لديهم سوى خارطة واحدة هي مسقط الرأس، شرطاً وحيداً كافياً للوطنية والمواطنة. إنهم يؤمنون بأن سورية هي بيتهم النهائي، وهم من سيعيد بناء هذا البيت. فكم سوري اليوم، يتغنّى بقول المتنبي:

لَكِ يا مَنازِلُ في القُلوبِ مَنازِل/ أقفَرْتِ أنْتِ وهنّ منكِ أواهِلُ

إن اقتلاع الناس من أوطانهم، أو تهجيرهم القسري، باستخدام السلاح والحصار والتجويع والتخويف والاعتقال، مأساة كبرى وجريمة موصوفة ضد الإنسانية، تحرّمها وتجرمّها النواميس والشرائع السماوية والقوانين الدولية (حامية حقوق الإنسان)

ملايين المدنيين السوريين اقتُلعوا من أماكنهم قسراً، واضطروا إلى الفرار من لهيب الحرب والدخان، سواء تلك التي أشعلتها الدبابات والطائرات والبراميل المتفجرة والصواريخ، أو تلك التي افتعلتها الكتائب الجهادية المسلحة (الإرهابية والمتطرفة والأقل تطرفاً) باستخدام السكاكين والسياط والفؤوس والمتفجرات، والتي فرضت سيطرتها فجأة على مدن ومناطق واسعة من الأراضي السورية، رافعة شعارات دينية وطائفية، كانت

أشد فتكاً من الغازات السامة، ولا علاقة لها بالدين ولا بالشعب السوري وحقوقه المشروعة في الحرية والكرامة وإقامة الدولة المدنية؛ بل هي ثورة مضادة موصوفة، متحالفة مع الاستبدادين: السياسي الرسمي، والنظام الإقليمي والعالمي، الذين أرادوها أن تكون حرباً أهلية بين الطوائف والعشائر والقوميات.. فالاستبداد السياسي المتجذر، والديني الطارئ المتعصب، تحالفا معاً ضد ثورة السوريين الشعبية الوطنية المسالمة، وتمكّنا أخيراً من شيطنتها وحرف مسارها، إلى حرب ضد الإرهاب، باتت شعاراً واحداً ووحيداً، وذريعة محلية وإقليمية ودولية وأمنية، للقضاء، ليس على الثورة السورية فحسب، بل على ثورات الربيع العربي الملطخة بالدم والبارود.

إن التهجير القسري لم يبدأ من القصير، ولا من الزبداني أو الرقة أو حلب، ولا مع حصار الغوطة وتجويع السكان، والاعتقال والقتل تحت التعذيب، بل بدأ مع أول دبابة اجتاحت درعا، ومع أول برميل أو قذيفة أسقطتها المروحيات على دوما وداريا، ومع أول تدخل إيراني و"لبناني" ثم روسي وتركي وأمريكي... إنه قرار استراتيجي اتخذه النظام منذ البداية، وهو تحويل شعار الشعب: (الشعب يريد إسقاط النظام) إلى شعار: (النظام يريد إسقاط الشعب) وهذا ما حدث ويحدث حتى الآن! لكن (رُبّ ضارة نافعة)، كما يقال، فدرب الآلام الذي سار فيه الشعب الروسي وغيره من شعوب الأرض، يسير فيه السوريون اليوم! والدرب الذي اجتاح الحدود وقطع الجبال والبحار والسماوات، سيثمر مهما طال الزمن.

لقد أثبت السوريون –في الداخل والخارج– أن الدم سينتصر على السيف، وأنهم قادرون على تحويل الجرح إلى وردة، والآلام العظيمة إلى مواهب وملَكات وإنجازات. وهذا أمر بدهي، فمن يرحل يتجدد، شاء ذلك أم أبى، وهم الآن يتجددون، يتعلمون اللغات ويطلعون على الثقافات ويكتسبون خبرات وعلوماً جديدة، في دول متقدمة علمياً وتكنولوجياً، ومجتمعات منظمة سبقتنا في خوض حروب طاحنة، قومية وطائفية واجتماعية ووطنية، ومرت بظروف مماثلة لما يمر به السوريون الذين يندمجون –الآن– مع هذه المجتمعات المتنوعة، يكتسبون الخبرة والتجربة والمعرفة اللازمة، لإعادة صياغة أنفسهم وإعادة تعمير بلادهم، وما دمرته الحرب التي فُرضت عليهم، وبناء مستقبل أولادهم ومجتمعهم الجديد. وهذا الاندماج ليس عيباً، كما يعتقد البعض؛ فهو

أخذ وعطاء، وهو تميز وتجاوز للذات، وهو لا يعني –أبداً– ذوبان الهوية الثقافية والوطنية، بل يعززها ويقويها، ويبني جسوراً متينة وضرورية، مع شعوب الأرض. وهذا كله يعني شيئاً واحداً، هو أن ثورة السوريين ما زالت مستمرة.



"المخطوط الحَلدَبي"..

في وصفِ مدينةٍ لم تعُد مَنسيَّةً.

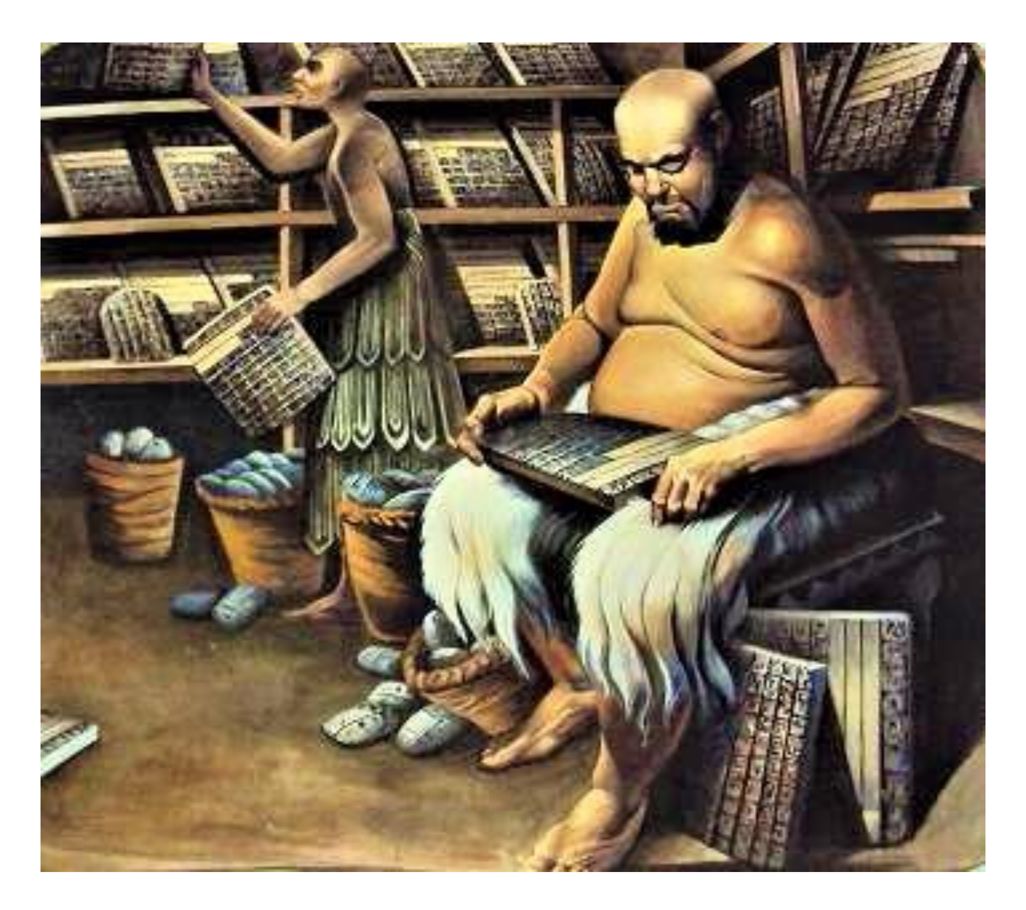
مقاطع اختارها: نجم الدين سمّان.

*- **هامش:** في آخر صفحةٍ من هذا المخطوط الذي اقتنيتُه من "بازار الأربعاء" في إدلب؛ وجدتُ تلك العبارةَ بالخطّ الثُلُث:

"ولمّا كان الحلبيّون يعتبروني إدلبيّاً؛ لأنّ أمي إدلبية؛ كان الأدالبةُ يعتبرونني حلبياً لأنّ أبي من أصولٍ حلبيّة؛ ولهذا قمتُ بنَحتِ صفةٍ لي من كلمتين.. فصِرتُ: الحَلدبيّ"؛ وكأنّي ابنُ مدينتين معاً؛ مثلما أنّي ابنُ سوريا التي من سفوح "طوروس" إلى قمّة "طور سنين".

***- إدلب الإيبلائيّة/ الآراميّة:**

ومِمّا كتبه الحَلدبيّ في مخطوطه: بعد اكتشاف مكتبة إيبلا؛ بدأ "ألفونسو آركي" عالم اللغات الساميّة القديمة في بعثة التنقيب الإيطالية يستعدّ لإصدار أولِ مُعجَمٍ لأول مئة كلمةٍ ترجمها من الإيبلائية إلى: الانكليزية والايطالية والعربية؛ فاستعصت عليه مُفردةٌ واحدة: **كَيَّات.. كَيَّاتي.. كَيَّاتو**؛ كما يستعصي الرقم مئة بعد ال 99.. حتى في استفتاءات الاستبداد الرئاسية!؛ فسأل عنها بحضوري في خيمتِه مُدرسَ التاريخ "عبد الله حَيّاني" من بلدة سراقب؛ لم يُجِبهُ الحيّاني على الفور.. أخذنا إلى مجموعة أطفالٍ يلعبون بالدِحل "الكريّات الزجاجية" في حارات "تل مرديخ/ مردوخ" بينما كان أحدهم يختلف مع آخر على مُلكية إحدى الكُرات؛ فاستخدم الكلمة المُستعصِيَة على الإيطالي:



- كل واحد يشوّفني "كيّاتو" بين إيديه.

فأخذ كلّ طفلٍ يُلملِمُ "كيّاته" كُراته الزجاجية أمام دهشة الإيطاليّ.

ثم تكشَّفَت مع ترجمة رَقِيمات مكتبتها مدى القرابة ما بين اللغة الايبلائية وبين اللغة العربية؛ من مثل:

إس- مَع - إيل: الإله إيل يسمعني؛ را- عي - نا - حَدَد: راعينا هو الإله حَدَد؛ دا - بي - حا - ما - لك: ذبيحة الملك وأُضحِيَتُهُ للآلهة؛ دِل - حِي - ل: صاحب الحِيل/ العَزم والقوة؛ كما نقول بالعامية حتى الآن: انهدَّ حِيلِي!.

ويستعمل الأدالبة مثلَ أغلبِ السوريين.. مُفرداتٍ آراميّة في لهجتهم: **أمُّو: أمّه؛ إيد: يَد؛ حَركَشَ: حَرَّكَ؛ دِيبو - دِيب: ذِئب؛ دَح: للثوب الجديد؛ أَحّ: للبرودة الشديدة؛ بَح: للنهايةِ؛ كخ: للوسخ؛ بُعبُع: للرُعب؛ واوا: للمرض والألم؛ إيع: للقرف؛ سَخسَخ: للغواية؛ تَختَخ: في الحبس؛ بَخبَخ: للريّ وللمطر الخفيف؛ طَخ طَخ: للقَنص والصيد؛**

جَخّ: للبذخ: نَخنَخ: للخصوع والمَذلّة؛ نِخّ.. نَخّ؛ تِشّ: للمشوار؛ سَق ونَق: للإلحاح؛ سِرّي مِرّي.. للذهاب والإياب.. الخ.

أطرف تفسيرات اسم "إيبلا" بأنه يعني "عَبلَة" وهي في العربية: المرأة البيضاء المُمتلئة؛ بينما كلمة إيبلا من مقطعين: إيب: إياب – عودة؛ إيلا: الإله السوري إيل؛ وتعنيان معاً: مُستقرّ الإله؛ وفي المعنى المجازي: الجنّة.

***- أهزوجة إدلبية في رمضان:**

يتذكر الحَلدَبِيّ في مخطوطه: يَهزِجُ أطفال إدلب بعد الإفطار:

"حليلِيّه مليلِيّه.. هَبّ الهَوَى ورماها

في حارة الشرقيّه

يا حارة يا مَنشومي.. دِقّ السِكّة عَ التومِه

قول يلّا ويا ستّار.. حلّوا الكيس واعطونا..

لولا محمّد ما جينا"

يخصّون بالاسم أحد رفاقهم من أطفال العائلة؛ حتى يُفتح باب الدار ويقوم صاحبها بتوزيع ما يتوفّر لديه من تينٍ وزبيبٍ مُجَفَّف؛ ومن قضامة مُلبّسة بالسُكر؛ أو "**تين بعجين**" أو "**حلاوة مقبَّطة**".. وسواها على الأولاد.

ثم يتابعون أهازيجهم.. على النحو التالي:

"يا ريتإنّي زَرزور.. واطلَع عَ السطوح

نَقّي الملَاح الملَاح.. والرَبّ يعطيني

صيني عَ صيني.. والربّ يعطيني

وشقوق الصُوبَرَه.. تِحلِب وتسقيني

يا حاحي يا حاحي.. ويا صَفِّة قدَاحِي

لا تلعب بالصُوبره.. لا تلعب بِرمَاحِي

أخدونا وجابونا.. وعَ القِشلِه وَدُّونا

ولمّا وظَّفونا..يا حِيف عَ الشباب"



***- حاشية بقلم الرصاص:**

لا يكتمل أولُ مساءٍ رمضانيّ لنا.. إلا إذا ذهبنا قبلَ الإفطار إلى "تلّةِ الرَمَادِة" قربَ "الجامع العُمَرِيّ" وهي تلّة يُقال بأنها مِن مُخلَّفاتِ "لُبِّ الزيتون" بعد عَصرِهِ واستخراجِ زيتِه "زيت البيرين" ممَّا يلزم لصناعات منها "صابون الغار" الذي اشتُهِرَت به إدلب

أيضاً؛ وبخاصةٍ بعد إعفاء صُنَّاعِه من الضريبة في العهد العثمانيّ؛ ومن أشهرهم "آل الصَنّاع" ويبدو أن كُنيتَهُم قد جاءت من تلك الصنعة التي أجادوها.

وهكذا تشكَّلت تَلَّتان من مُخلَّفات تلك الصناعة؛ ثانيها.. كان شمال ساحة البازار؛ وأذكر كيف كانت الحشائش والزهور البرية تنمو فيهما؛ ويتخذ أبو اصطيف الشرقيةَ منها مكاناً لتجهيز "مدفع رمضان" لكنّي رأيتُ بدلاً عنه كتلةً بين يديه ولها فتيل؛ ثمّ يصرخ بنا لنبتعد عنها وعنه؛ بينما يُشعِلُ قدَّاحته الحجريّة ذاتِ الفتيل؛ ثم ينفخ حتى يتوهَّجَ؛ فيُقرِّبُهُ من فتيلِ تلك المُفَرقَعَةِ الصوتية لترتفعَ في الهواء.. فترتفع معها رؤوسنا لنراها كيف تنفجر في الجوِ تاركةً وراءها سحابةً رماديةً من الدخان.

خيبتي من عدم وجودِ مدفعٍ حقيقيٍ لرمضان جعلتني لا أعودُ ثانيةً لمشاهدة ذاك "الطُوب" الذي يُفَرقِع فقط؛ ثمّ أنّي كبُرتُ.. وكَبُرَ أقراني؛ فجاء جيلٌ بعدَنا.. يهزجُ؛ وهو يدقّ الأبواب في رمضان:

"جيناكم.. جينا.. جينا / حلّوا الكيس واعطونا".

وفي أهزوجةٍ غيرَها:

"غزالي غزالي.. طاب عيشي طاب

والعمل ثلاجي.. بنِصّ الليل وغاب

يا علي لا تتعوَّق.. جِبلِي سرير مزَوَّق

جِبلِي غزالِه عَرجَه.. جرَيَّاتا طوَال طوَال

ما بيفوتو بباب الدار

صيني عَ صيني.. والرَبّ يعطيني

وشَنُّونِة الصوبَرَه.. تِحلِب وتسقيني

حَيّ عَ السطوح.. بتعطونا ولّا منروح"

ثم يذكرون اسمَ أحد أقرانهم من العائلة التي دقّوا بابها:

"لولا أحمد.. ما جينا".. الخ.

***- على حاشيةٍ في هوامش المخطوط.. كتب أحدهم:**

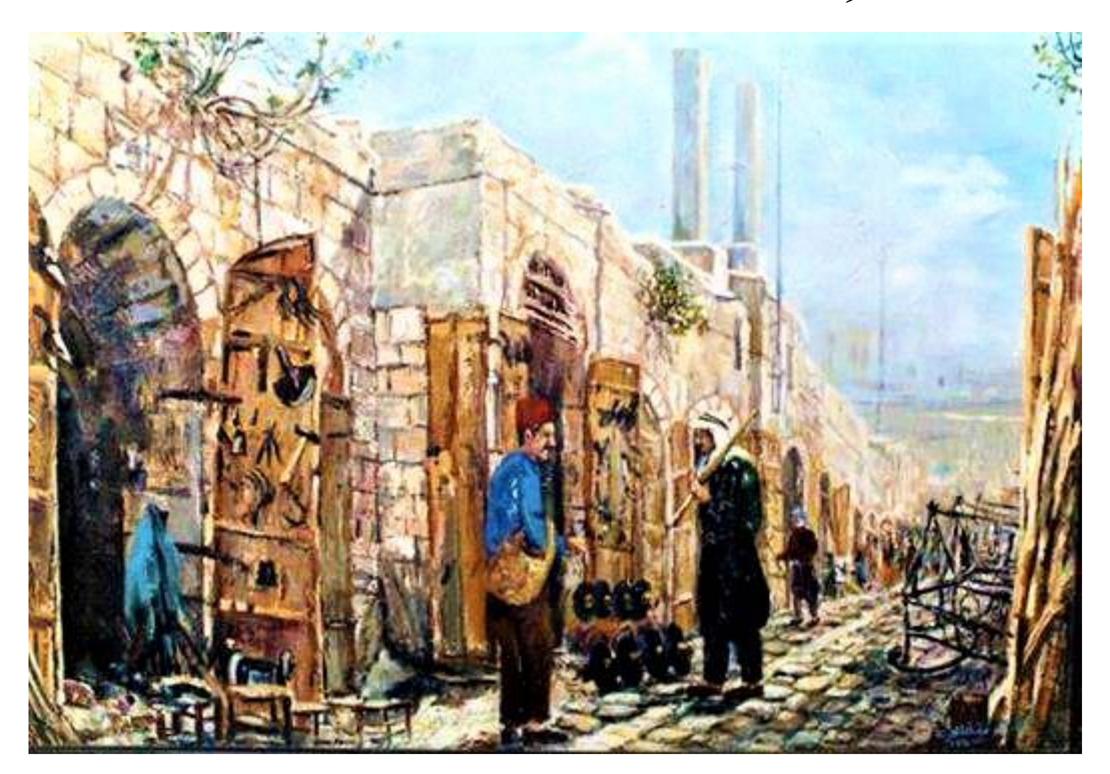
"ثمّة جيلٌ من أطفال إدلبَ ذاتها؛ لا يعرفون رمضان الذي عشناه؛ لم يعيشوا.. سوى مشاهِدِ شبيحة الأسد؛ ثمَّ أوهمهم إخوة المنهج بأنهم قد تحرّروا من الاستبداد؛ فإذا هُم في استبدادٍ جديدٍ باسم الدين".

***- يا وَرَق الدِلب الأخضر:**

وقال الحلدبيّ: ما بين إدلب وحلب مسافةٌ لا تزيد عن 59 كم؛ لكنها كافيةٌ لتجعلَ من "إدلب الصُغرَى" مُلحقةً بولايةِ حلب على مَرِّ العصور؛ تلفُّها غاباتٌ من أشجار الدِلب؛ ولهذا لَوَى المُتفَيقِهون عُنُقَ اسمِهَا الذي لا يُعرَفُ حتى الآن معناهُ.. ولا من أيةٍ لغةٍ أتى؛ فأفتوا بأنّ إدلب من الدِلبِ.. تصحيفاً؛ حتى اضمحلَّت غاباتُهَا الدلبيَّةُ شجرةً بعد شجرة؛ يقطعها الحَطَّابون؛ ويزرع الأدالبةُ بدلاً عنها.. أشجارَ الزيتون.

ويُقال بأنّ السلطانَ العثمانيّ قد أقطَعَ إدلبَ للصَدر الأعظم "محمد الكوبرلي باشا" – ما يُعَادِلُ اليومَ مَنصِبَ رئيسِ الوزراء؛ فأعفاها من الضرائب فازدهرت؛ وبنى فيها "خانَ الرزّ" وخاناً آخرَ.. لا يُعرَف باسمه الأصليّ وإنما باسم "خان الشحَّادين" كما نَظَّمَ لكلِّ حِرفَةٍ سوقاً خاصّاً بها وشيخَ "كار"؛ وكان فيها مئاتُ مَعَاصِرِ الزيتون الحجريّة؛ وأكثرُ من 30 مَصبَنةٍ لصناعة صابون الغار.. ثم اندثرت "إدلب الصغرى" لسببٍ غامضٍ في التاريخ لم يلتفت إليه المُؤرخون؛ وكانت عند "الرَام"؛ والرَامُ في السريانيّة: "النَبعُ الشَحِيحُ" ومِن حَولِهِ: شِبهُ بُحيرةٍ لا ترومُ مكانَهَا؛ كانت تُسمَّى "رَامَ حَمدَان". وكان "أبو الكيف" سائقَ أولِ باص سكانيا "هُوب هُوب" بين إدلب والشام؛ قد حَلَفَ بالطلاقِ ثلاثاً

قبل أن يقول: "حين بدأوا بإشادة أوتستراد "باب الهوى – إدلب"؛ انكشفَ لهم عند النَفَقِ الذي حَفَروه.. قوسُ بابٍ حجريٍّ تحت الأرض؛ وكنتُ أولَ النازلينَ إلى داخله؛ فرأيتُ جزءاً من سوقٍ عتيقٍ والدكاكينُ على جانبيه".



سوق النجارين للفنان اصطيف سفلو

والمدينة الحاليةُ هي "إدلب الكبرى" وبقيت "قائمقاميّة" تابعةً لولاية حلب حتى جاء جمال عبد الناصر بجحافل الوحدة؛ فأعلنها مُحافظةَ مُستقلة؛ فصارُ أغلبُ الأدالبة قوميين وحدويين ناصريين؛ ومنهم الكردي عبد العزيز الكردي صاحب "مكتبة الأقطار العربية"!؛ ثمّ ماتَ الزعيم فأقام الأدالبةُ صلاةَ الغائبِ عن روحه لم يتخلّف عن أدائها حتى المَشلول؛ لكن المجذوبَ على بركة الله "أبو فريد قريد" نفى موتَ الزعيم الخالد قطعياً؛ حالفاً بالطلاق ثلاثاً بائناتٍ.. بأنّ أبو خالد سيعود من منفاه قريباً؛ وبالضبط من جزيرةٍ في "بحر الظُلُمَات" ليترأس مصرَ والشام من جديد نكاية بالبعثيين!.

***- 100 عامٍ وعامين:**

كتب الحَلدَبِيّ في مخطوطه: رأيتُ في مكتبة جدّي الإدلبيّ كتباً عليها خَتمُ "نادي إدلب الأدبي – تأسَّسَ عام 1919" ثمّ أغلقه الفرنسيين؛ بحُجَّةِ مُسانَدَةِ أعضائِهِ لثورة الشمال بقيادة إبراهيم هنانو؛ فتقاسم أعضاؤه المكتبة التي اشتروا كُتُبها من حلب ودمشق وبيروت؛ وبالبريد من القاهرة؛ وبينها مجلاتٌ.. كانت إحداها مُختصة بالزراعة؛ ورأيتُ عدداً خاصاً منها عن" شجرة الزيتون".

وأردف الحلدبيّ: "فلمّا اجتاحت "الفرقة الرابعة" في جيش الأسد إدلبَ "تمشيطاً" لها من "العصابات الإرهابيّة المسلحة" بعد مجزرة حماة في ثمانينات قرنٍ مضى.. ولم يجدوا في المدينة سلاحاً ولا مُسلّحين؛ خافت خالتي من كتب "النادي الأدبيّ الإدلبيّ" الذي تأسّس مع الاستقلال الأول لسوريا؛ فأحرقتها كتاباً بعد كتابٍ تحت "قاظان" الحَمَّام.. بَدَل "الحطب".



منحوتة للفنان خير الدين عبيد

ومن المُفارقة.. أنّ إحراقَ الكتب تقوم به الأنظمةُ الاستبدادية؛ واللاهوتُ الدينيُّ المُتحالِفُ معها؛ خوفاً من انتشار عَدوَاهَا بين الناس؛ لكن أن يقومَ مُواطنٌ مَقموعٌ؛ مُستبَاحَةٌ حقوقُهُ؛ بإحراقِ الكتب.. خوفاً من عِقابِ تلك الأنظمة؛ على وجودِهَا في بيته؛ فهذا ما فَعلَتهُ خالتي فوزيّة.. بامتياز!.

***- حاشية في هذه الصفحة من المخطوط:**

أعدنا تأسيس "المنتدى الأدبي لمدينة إدلب" عام 1978 إحياءً لأولِ نادٍ ثقافيٍّ فيها عام 1919؛ وأصدرنا مجلّةً "طبعناها بواسطة ورق الستانلس" ضمَّت نتاجات شعرية وقصصية ومقالات؛ شارك في التأسيس: مصطفى قطِّيع؛ مصطفى الأخرس؛ وليدة عنتابي؛ علي الخطيب؛ يوسف الزير؛ عبد الله الخطيب؛ نجم الدين سمّان – وكنتُ أصغرَ المُؤسسين عُمراً – ثم أقمنا أولَ "مهرجانٍ لأدباء محافظة إدلب" على مدى ثلاثة أيام: للشعر والقصة والخاطرة الأدبية؛ شارك فيه خطيب بدلة؛ بأول خاطرةٍ ساخرةٍ له.. اسمها: عريضة لأجل برميل زبالة؛ طَوَّرَها بعد ذلك إلى قصةٍ ساخرةٍ تحت اسم: "قصة البرميل".

***- إهزوجة إدلبية عن هنانو:**

كلما شاهدنا ونحن أطفالٌ طائرةً في سماءَ إدلب؛ أخذنا نَهزِجُ:

طيَّارة طارت بالجَوّ.. فيها عسكر فيها ضَوّ

فيها إبراهيم هنانو.. راكِب عَ ضَهر حصانو.

وبعضنا.. يُرددها هكذا:

فيها ابراهيم هنانو.. مرَكِّب بِنتُو قِدّامُو.

وممَّا رَوَته جَدَّتي الإدلبية لي؛ أنَّ ابنةَ هنانو شاركت أيضاً في الثورة؛ وكانت أحسنَ من أحسن حكيم.. تُداوِي الجرحى؛ وشاطرةٌ أيضاً في ركوب الخيل وفي المناورة بها أثناء المعارك.

وأضافت: قصفتنا طيّارة فرنسية بقنبلة واحدة برّا البلد عند "الرام".. استنفرنا؛ بدأ التكبير في الجوامع ودقت أجراس الأبرشيّة لأنّ ابنةَ هنانو هاجمت القِشلة الفرنساوية في إدلب وهي مُلَثّمَةٌ مع مجموعةٍ من الثوّار "الجَتَا"؛ وكانت تضرِب فَشَكّةً؛ ثم تنزِل برجلٍ واحدةٍ على مِهمَاز الفرس فتختبىء وراءَ بطنها؛ لتُخَرتِش البارودةَ من جديد.

سألتُ جَدَّتي: – كيف عرفتوها وهي مُلَثَّمَة؟!.

قالت: – لمّا احتمت ببطن الفَرَس؛ انزَاح شمَاخهَا؛ وبَيَّنت منه ضفيرتها؛ فعرف الأدالبة أنها هي.

كان عُمر جَدَّتِي الإدلبيّة فوق السبعين حينَ سألتُها؛ ولم أكترِث وقتَهَا؛ وحتى الآن؛ إذا كانت تلك الحكايةُ صحيحةً؛ أم هي نِتاجُ خَيالٍ وتَوقٍ شَعبيّ لثورةٍ لم تَدُم طويلاً بسبب تآمُرِ فرنسا وتركيا وبريطانيا ضِدَّها.

*– **حاشية**: تذكرتُ هذه المُحادثة بعد 50 عاماً وأنا أُحصِي مَن تآمر على الثورة السورية منذ 2011 ومَن لا يزال يُحاصرها بالاحتواء المُزدَوَج!.

*– نجاح حفيظ.. في إدلب

يُذَكِرُنا الحلدبيّ في مخطوطه.. بما يلي: بدأت بواكيرُ النشاط المسرحي في أربعينات قرنٍ مضى كان من روّادها الفنان جميل كيالي؛ وبخاصةٍ في "مدرسة المتنبي" ثمّ في "نادي الإخاء الرياضي الاجتماعي" ثم في "نادي الفنون الشعبية" الذي كان عبد الرحمن النجّار "أبو التركي" من مؤسسيه عام 1965. وأتذكّر بأنّي دخلتُ "نادي الفنون الشعبية" لأول مرّة وعمري 8 سنوات؛ إلى مَقَرِهِ في الطابق الأرضيّ من بناء عبد الرحمن دويدري

في الشارع العام؛ حيث كان عمّي بهاء عضواً في الفرقة المسرحيّة للنادي؛ وأخرجَ لها عملين مسرحيين؛ لكنه اصطدم بعدم جدوى البحثِ عن فتاةٍ أو سيدةٍ في إدلب لتأدية الدور النسائي في المسرحية؛ فسافر إلى دمشق وتعاقد مع نجاح حفيظ؛ فأقامت في بيت عمي شهرين قي كل عامٍ.. دعماً لفرقةٍ مسرحيةٍ في مدينةٍ منسيّةٍ في الشمال السوري.



*- **هامش على حاشية المخطوط:** وأحصيتُ 92 عملاً مسرحياً قدّمته أجيال متوالية في إدلب؛ بينها 50 عملاً أخرجه الرائد المسرحيّ أحمد مروان فنري. كما أحصيتُ نصوصاً مسرحية من أبرزها: "الناسك والحصاد" 1969 "المهر زاهد" 1973 "في خدمة الشعب" 1978 "ماذا يقول الماء" 1986 لحسيب كيالي؛ ومسرحية "تراجيديا أوليس" عام 1972 لرياض نعسان آغا؛ ومسرحية "الحطّاب" لرياض سفلو 1975؛

و"ميم يبحث عن مدينة" للفقير إلى وطن نجم الدين سمان 1976. ومن المُخرجين الأوائل: عبد الله سمسوم؛ بهاء الدين سمّان؛ غياث عيّاشي؛ خليل قبيعة؛ أمين راجحة.. وآخرين.

***- أول ساعة في "ساحة البازار".**

*- هامش.. والساعة الحاليّة مبنيّة على برجٍ حجري؛ ثم صارت رمزاً للمدينة بعد ان صارت مع ساحتها مقراً للمُظاهرات السلميّة ضد النظام الأسدي عام 2011؛ وقد جاء في المخطوط حول الساعة الأولى.. ما يلي:

ما أن استقرَّ جدّي الحلبيّ نجيب أفندي في إدلبَ؛ وافتتحَ دُكَّانَهُ في أولِ سوقِ الصَاغَةِ؛ حتى بدأ العابرونَ أمام دكّانِهِ يسألونه: - شأَدّ الساعة.. يا أفنديناً؟!.

ثم فَقَعَت مَعُه؛ حينَ علّقُ أحدُهُم على جَوَابِهِ: - متأكِّد.. يا أفنديناً؟!.

فقال: - سأضَعُ ساعةً كبيرة في "الجَام" فلا تسألوني واعرفوا التوقيتَ منها.

ثم قرّر شيئاً بينه وبين نفسه؛ فلمّا خرج الناسُ من صلاة الجمعة؛ من جامع الشيخ بُرغُل في ساحة البازار؛ رأوا نجيب أفندي وعلى يمينه حَمَّالُ وعلى يسارِهِ حَمّالُ؛ ثم وضع الأولُ " السلّاتَةَ" وهي سلالِمُ خشبيةٌ مُثلثةٌ كالهَرَم الصغير؛ يستخدمها الإدالبة لقطف زيتونهم؛ فصَعَدَ عليها أحمد شيخ الحدادين مُثبِّتاً بمسامير الحديد شيئاً لم يُدرِكُوا مَاهِيَّتَه بَعدُ؛ ثم صَعَدَ نجيب أفندي؛ فَسَحَبَ السِلسِلَةَ وقد تدلّت من الطرفين؛ واضعاً أذنه على صفيحة الساعة؛ طالباً من الحشد الذي تجمَّعَ أن يصمتوا.

بعد دقيقةٍ أشبَهَ بالدهر؛ كان نجيب أفندي يُنصِتُ فيها لِدَقَّاتِ ساعته؛ استدارَ وهو في الأعلى قائلاً:

– أمّا بَعد.. فها قد صارت لإدلبَ سَاعَتُهَا العُمُومِيَّة؛ لم تُكلِّف خزينةَ الدولة شَروَى نَقِير؛ فكلٌّ ما تَرَونَهُ مِمَّا بينَ أيدينا: صاجان لخُبز التنُّور.. صنعنا منهما مينائَهَا؛ أما آلاتها فمِن ساعاتٍ قديمةٍ لديّ؛ وتبرَّعَ شيخُ الحدّادين بِلِحَامها وتثبيتها مشكوراً؛ وشيخُ الخطّاطين برسم تدرُّجاتها وأرقامِها؛ وشيخُ النجَّارين بعقارِبِهَا الحشبية؛ وضبطتُ لها وَجهاً على التوقيت الشرقيّ؛ والثاني على التوقيت الغربيّ؛ فلا يسألني أحدٌ بعدَ الآنَ عن المواقيت.

بعدَ أسبوعٍ من انجازِه.. أسَرَّ نجيب أفندي للمُفتي الكيّالي:

– أصابَنِي مَلَلٌ شديد يا شيخنا.

– ليش يا نجيب أفندي؟!.

– ماعاد حَدا يتغالَظ ويسألني: أديش الساعة بهالساعة.. يا أفندينا؟!.



***- جمهورية إدلب العظمى:**

كتب الحلدبيّ: فلمّا كان عمري 14 عاماً جاء حسيب كيالي إلى مسقط رأسه ليُلقي مُحاضرةِ فامتلأت صالةُ المركز الثقافيّ عن آخرِها؛ بشكلٍ غيرِ مَسبوقٍ، حضرها كثيرونَ وقوفًا، واستغرقت 40 دقيقة، استغرقنا فيها بالضحكات والتعليقات المُتبادَلة ما بيننا وبينه.



قال حسيب بأنه حين ذهب إلى باريس لدراسة الحقوق، التقى حسناءً فرنسية تدرسُ التاريخ القديم لشرق المُتوسِط، فلمّا سألته عن بَلدِه؛ قال لها: - جمهورية إدلب العُظمَى.

بحثَت المدموزيل ليومينِ في المكتبات العامَّة عن تلك الجمهوريّة.. فلم تجِدها؛ أردفَ حسيب: - مغفورُ للرجل أن يكذبَ على حسناءٍ حتى تعودَ للقائِهِ.. فتسألُه: - ولها عَلَمُ ونشيد؟!.

رَسَمَ لها حسيب زيتونتَين.. بينهما قُرنُ فليفلةٍ حمراء؛ دَندَنَ لها بالنشيد الوطنيّ لجمهوريته؛ وهو يفكّر كيف سيتمكَّنُ من ترجمته إلى الفرنسية:

"علي عُلعُل / طَبَخ بُرغُل.. إجَا ليصبُّوا / حَرَق..بّو".

قال حسيب: - كنتُ أكذِبُ.. لألتقيها مرّةً تلوَ مرَّة؛ مُستمتعًا بدهشة عينيها وبجمالها الباريسيّ الناعم، تكتبُ كلَّ ما أقوله.. لتبحث عن جمهوريتنا في كتب التاريخ.

ثمّ أردَفَ وهو يتأملُ أنوثتها: – ولها حكومةٌ مُنتخبَةٌ ديمقراطيًا!.

رمقته الباريسية بنظرةِ شكٍ.. لأولِ مرَّة؛ فبادرها:

– قبل أن يُطِيحَها أولُ انقلابٍ عسكريّ!.

فلمّا أخذ يُعدِّد أسماءَ وزراء حكومتنا الإدلبيّة العتيدة؛ وقد عَيَّنَهُم حسيبُ من أبنائِهَا؛ ضَجَّت القاعة بالضحك؛ فمع كلِّ شخصيةٍ في حكومته العُظمَى المُتخيَّلَة؛ كنّا نُترجِمُهَا إلى ما يُمَاثِلُهَا في حكومة حافظ الأسد بعد انقلابه على رفاقه؛ فنضحكُ حتى الثمالة. فقد عَيّنَ حسيب أشهرَ لِصٍّ مُحترفٍ في إدلب: وزيرًا للعدل، و"التُوم" أحد القتلة وزيراً للداخلية؛ وأبو طندو "كشّاش الحَمَام" وزيرًا للخارجية، وشيخًا من شيوخِ "السَلتَه" فيها؛ لا تفوتُهُ "جَوَازَةٌ ولا جَنَازَةٌ" وزيرًا للأوقاف؛ والإسكافيّ علي حسينو مدير عام "مشفى الصَرَامِي" في سوق "الكُندَرجِيّة": وزيرًا للصحَّة؛وعَيَّنَ حسيب ابنَ عَمِّهِ عبد الجَبَّار؛ الذي يعتبره من الشِقّ الأهبَلِ بين الكيَّالِيَّة ومِن عديمي الموهبة حين ينظم الشعر: رئيسًا لاتحاد الكُتّاب، وغالب العيَّاشي الذي خسر عدّة انتخاباتٍ نيابيةٍ منذ الخمسينات: رئيسًا للبرلمان، وبين وزرائِهِ.. سيدةٌ من إدلب مشهورةٌ بباروكتها عَيَّنَها حسيب: وزيرةً للثقافة!.

***– البواريد:**

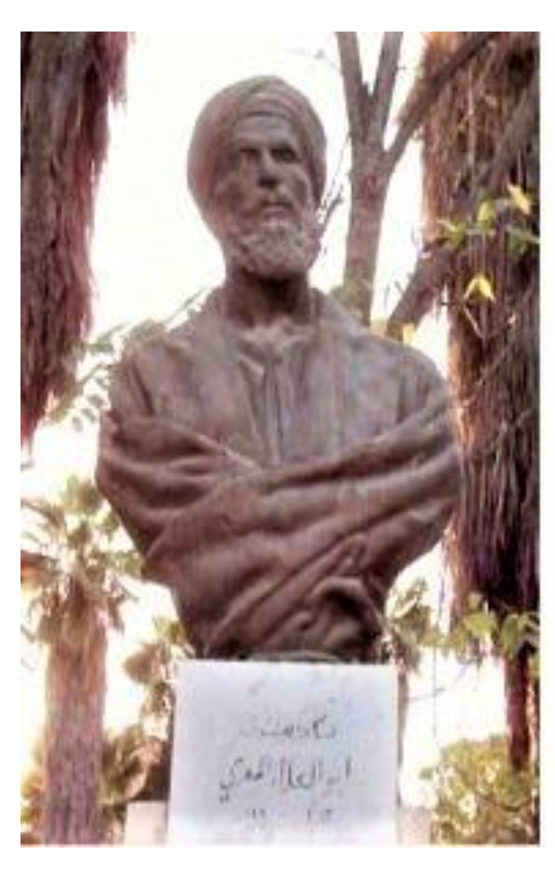
كتب الحَلدَبِيّ في مخطوطه: سحبني من يدي المجاهد السوري عمر الأبرش.. من معرّة النعمان؛ في إحدى دوراتِ مهرجان أبي العلاء المعرّي؛ ليُرينِي نقشاً بالسريانية ما زال موجوداً في حائط الجامع الأموي هناك. وكان عمر الأبرش قد شارك في ثورة هنانو 1920؛ ثم ذهب بعد الثورة السورية الكبرى 1925 إلى العراق؛ ليشارك في ثورة الكيلاني ضد الاحتلال البريطاني 1936؛ ثم في جيش الإنقاذ عامي 1947 – 1948.

قال الأبرش: – كنّا نُرسِلُ البواريد والفَشَك إلى الشيخ صالح العلي؛ من قريةِ "الشِغر" فوق بلدة جسر الشغور؛ على ظهور البغال؛ فيستلِمُها منّا.. ثوّارُ بلدة الحَفَّة؛ ثم يقومون بإيصالها إلى الشيخ صالح العلي في "الشيخ بدر" بجبال طرطوس.

*– **حاشية:** لو كان عمر الأبرش حياً.. لرأى مدينته التي دمّرها الغزاةُ مرّاتٍ؛ يُدمّرها طاغيةٌ.. من أبناء جِلدتنا؛ ولرأى كيف قطع إخوة المنهج رأس تمثال أبي العلاء المعرّي لأنه صَنَمٌ؛ وسيرى عمر الأبرش كيف أنّ جنود الأسد قد دمّروا ما رمَّمَهُ سابقاً في ضريح عمر بن عبد العزيز ونبشوا قبرَه؛ ولكان سيسمَعُ صوتَ أبي العلاء يتردَّد كالصدى ما بين ركام مدينته المُدمّرة:

ما أظنُّ أديمَ "أرضنا".. إلّا مِن هذه الأجساد.





***- باب الهوى/ إدلب / الدرب الروماني:**

كتب الحلدبيّ: يُقال بأن إدلب هي بوابة سوريا إلى الشمال؛ ومن هذا الشمال جاء الإغريق والرومان والبيزنطيّون والعثمانيّون وسواهم؛ وربما عَبَرَ امرؤ القيس من "بصرى الشام" إلى "باب الهوى" في طريقه إلى "بيزنطة/ استانبول حالياً" ليطلب تاجَ المُلك من امبراطورها.. كملكٍ للعرب.. فعاد بعَباءةٍ مسمومة!.

ومروراً من "باب الهوى" أنشأ الرومان درباً مرصوفةً بالحجارة لعرباتهم العسكرية والتجارية؛ ثم ماتَ هذا الدربُ بانهيار روما؛ فماتت المدن الرومانية والبيزنطية التي على جانبيه؛ حتى صار مُجرَّد صدىً لقرقعة الجيوشِ التي عَبَرَتهُ.. وعاشت كلُّ المحافظة في عُزلةٍ غير طوعية؛ ثمّ زادها عُزلةً حافظ الأسد ردّا على استقبال الأدالبة له براجماتِ الصرامي؛ رأيتها مع الجواريخ والكسريّات وشحاطات البلاستيك.. تكادُ تصل إليه وهو على سطح المركز الثقافي القديم؛ وأنا ابن الحادية عشر؛ في ساحة "الصَومَعة" التي صار اسمها: ساحة هنانو.

ومذ ذاك.. أُحكِمَ طوقُ حصارٍ حول إدلب؛ حتى أنّ القائد غير الأبدي قد أبعَدَ عنها الطرقَ الدولية حلب – دمشق و حلب – اللاذقية؛ وكذا مسارَ قطارِ حلب – اللاذقية؛ ولم تُدرَج في الخُطَط الخمسيّة للحكومة.. فانضمَّت إلى قائمة "المدن المنسية"؛ ولم يعًد أحدٌ يقصدها.. سوى رجال الأمن المفروزين إليها.

فلمّا بدأ انشاءُ اتوستراد "باب الهوى" وعَرِفَ الأدالبة بأنه لن يمرَّ بمدينتهم؛ اجتمعوا.. وكان والدي بينهم؛ فاتفقوا على "إضراب عام" في اليوم الذي سيجتمع فيه حافظ الأسد مع وُلاته "المحافظين"؛ طلب أبو محمد هرموش الكلام – وهو الأخ الأكبر لأولِ ضابطٍ انشقَ عن جيش النظام عام 2011- كما كان المُوزِّعَ الرئيسيّ لعبوات الغاز المنزليّ في المدينة.. فاقترح تفجيرَ عُقدة الأوتستراد بأسطوانات الغاز؛ وتبرَّع أبي وآخرون بها؛ فلمَّا انفجرت عَبَرَ صداها شوارعَ إدلب المُغلقة دكاكينها ومدارسُها ومؤسساتها حتى وصل إلى "قصر المُهَاجرين" فكان هذا أولَ حِرَاكٍ مدنيّ في العهد الأسديّ يُؤتي ثماره؛

حيث تمّ إجبارُ الحكومة على تعديل مسار اتوستراد باب الهوى – حلب – دمشق.. ليمرَّ فرعٌ منه بالمدينة.

***– الانقلاب.. بوصفه نقيضاً للسخرية.**

كتب الحلدبيُّ في مخطوطه.. قال: مررتُ بدُكّانِ علي حسينو مدير عام مشفى الصرامي؛ الذي لطالما كان مُلتقى أجيالٍ من شباب إدلب؛ فوجدتُهُ على غيرِ عادَتِهِ الساخرة؛ قال: – ما عاد الوضع يُحتَمَل؛ أحضِر لي في الحال والدك وحسيب كيالي. فلّما سألته: لماذا؟.. قال: – مرَّ والدُكَ بدكّاني مَرَّةً فلمّا سَمِعَ ضحكاتنا أنا وصديق طفولته حسيب كيالي، انضمَّ إلينا ونحن نروي الطرائفَ ونسخر ونضحك؛ حتى قَطَعَ صوتُ آذانِ الفجر ضحكاتِنَا؛ عَلَّقَ والدُك: – الله يعطينا خير هالضحك ويكفينا شرّه. فلمّا أفقنا في الصباح كان أولُ انقلابٍ عسكريٍّ في سوريا والعالم الثالث قد حدث. ولهذا أريدُهما في الحال. فصحكت: – من أين سأجلبُ لك حسيبًا وقد ماتَ في غُربَتِه؛ ولحِقَ بهِ والدي بعدَ أربع سنوات؟!.. ليش مُستعجِل كثيرًا على الانقلابات؟!.

فأشار علي حسينو إلى صورةٍ لحافظ الأسد على الجدار المُقابِل له: – طَوَّل هالعَرصَه.. كتير!.

كان الاسكافيُّ الذي وُلِدَ بشللِ أطفالٍ في قدمَيه؛ مُستعِدًا للموتِ ضَحكًا.. ليتخلّصَ السوريّونَ من طاغيتِهِم حتى لو بانقلابٍ ساخر.

***– درب حلب ومشِيتُو.. كلّه سَجَر زيتوني:**

من ذلك الطريق.. خرجت قافلةُ رجالٍ من إدلبَ إلى حلب مُكبّلةً بالسلاسلِ؛ بينهم جدّي الإدلبيّ اسماعيل؛ يحرسهم الجنود المغاربةُ والسنغاليون في الجيش الفرنسي؛ مَشياً على الأقدام حتى سِجنِ القلعة في حلب؛ بتهمة دعم ثورة هنانو ضد الفرنسيين؛ فما

لبِثَت حَنجَرةُ فلاحٍ بينهم من قرية "قميناس" حتى انطلقت بشجوٍ أدهشَ الضابطَ الفرنسيّ؛ وبَلَّلَ بالملحِ دموعَ الجنود المغاربة:

"دَرب حَلَب ومشِيتُو.. كلُّو سَجَر زيتونِي

حَاجِي تبكي وتنوحي.. بكرا منِجِي يا عيوني".

فلمَّا دَسَّها صباح فخري في سِياقِ أغنيةٍ له؛ غابَ ذِكرُ إدلبَ عنها؛ كحالِ القائمقاميَّة مع مركز الولاية في حلب.. على مرِّ العصور.

***– حاشية مُضافَة بقلم "كوبيا" أحمر.. بعد 2011:**

وعلى ذاك الطريق.. انقلبت الدباباتُ الأسديَّة على قَفَاها في المحافظة الإدلبية؛ بل انقلبت طائراته في أول مطارٍ مُحرَّرٍ في "تفتناز" من سماء القصف إلى رمادٍ مُشتَعِل.

انقلبت فيها الثورة السلميّة إلى كفاحٍ مُسلّح؛ ثم انقلبت أولُ الإدارات المدنيّة الحرّة إلى "شَرعيَّاتٍ" على النَسَقِ الطالباني؛ وتحوَّلت محافظة إدلبُ من أول محافظةٍ مُحرَّرةٍ من الاستبداد الأسدي إلى مركز ولايةٍ إسلاميةٍ غير مُعلَنةٍ!.

في ذاك الطريق بالضبط.. سنَعرِفُ إذا كانت ستُستعَادُ الثورةُ مِن الذين واجهوها بالقتل والتدمير والتهجير؛ ومِن الذين اختطفوها؛ ومِن الذين حاصروها بالاحتواء المُزدَوَج؛ أو.. سنَطوي أولَ صفحةٍ لِكُبرَى ثوراتِ الربيع العربيّ؛ كما طُوِيَت أولُ ثورةٍ في الشمال السوريّ على المُستعمر الفرنسي!.

أوراق الشعر

لوحات 50 × 70

محمود باكير

شاعر ومحامي مواليد 1970، سراقب في محافظة إدلب، أنشأ مجلة الكواكبي الثقافية 2011، وينشر في العديد من الدوريات السورية.

- 1 -

(من طبقات الغجر)

1-الجورة:

....

فقراء بلا بيوت..

بملامحهم السمراء..

مثل أسراب الشحارير..

و هم مكتومي القيد والهوية..

ينهمرون على عجل.. إلى المدن..

من خيامهم البعيدة.. والأرياف..

بالأحذية الجلدية والكلابيات المفتوحة من الأسفل..

بأطفالهم الصغار..

و هم يتمخطون بأكمامهم تحت شجر السرو..

في الحدائق.. وفوق حجارة الرصيف..

بالدراجات النارية الثقيلة..

تلك المدججة بالفراء والخلاخيل..

يوزع الرجال زوجاتهم..

على المداخل والشوارع والبيوت..

بالخوف الواضح..

الساكن في العيون السود..

وبالضحكات البسيطة وهم يرسمون لك الخرائط..

والذكريات..

عن أعراس أكلوا فيها مناسف اللحم..

تحت قرع الطبول.. قرب مواسم الصيف..

وهم يزرعون البن الثقيل.. والرائحة..

على شرفات العصر..

حتى الشتاء..

ليعلن الغيم عودتهم إلى مشارف القرى..

وهم يحملون الخبز وأكياس البصل الأبيض..

إلى خيامهم.. بصمت..

2- غرب شعبة التجنيد:

....

غجر البيوت المستقرة..

والرخام الأبيض..

صناع أسنان الذهب..

والسكاكين القرباطية..

تجار أسلحة أو طيور جارحة..

سياح يتوافدون إلى المطارات.. نحو أمريكا..

ملامحهم ملتبسة بالضحكات والصمت الطويل..

أغنياء ولربما طغاة..

لا يزوجون البنات للغرباء..

أو لعشاقهن من الأحياء المجاورة..

تلاحقهم دوريات الأمن..

وهي تبحث في بيوتهم عن قطع الأسلحة.. المعطلة..

أو المسدسات التي بلا رخص..

يخطفون القاصرات..

على دراجة..

ويشتبكون في مشاجرة..

تقص في نهايتها الجدائل..

فوق جثث الرجال..

ويكثر العويل..

وتعقد الصفقات..

....

الغجر..

روح الشتات..

وجسد الفرح المستباح..

وهم ينتشرون كالريش..

في مهب الجغرافيا..

سكان الريح..

وطيور الحذر..

- 2 -

(مرتفعات ميدانكي)

شمس مريضة.. ونهر نحيل..

بين اعزاز وكفر جنة طريق قصير..

يتعرج كالروح..

وهي في منعرجات النزوح الصاعدة..

نحو هاوية أو غيوم..

....

كل شيء مريض..

الشمس.. السماء.. الغيوم..

وحتى القطط..

ولا شيء سوى الإسفلت المتعب..

وهذا المرار الناهض في الحلق والقلب..

بطعم الدفلى..

حافلات.. حافلات..

وهذا الطريق الطويل..

تحمل البشر والمنازل المكبلة بالحبال..

وبعض الخراف..

وكل هذا التعب..

....

النهار العجوز..

يسير على قدم واحدة..

يحمل عكازه.. راية للحرب فوق الخيام..

الأشجار شاحبة..

والتلال بلا رعاة..

وكل هذا الحطب..

....

بلاد مهملة منذ عصور..

فقدت ملامحها.. ولا شيء الآن..

سوى ذكريات أو وجوه غريبة تعبر الحواجز..

نحو مصائر المجهول..

والهويات القديمة التي تركت آثارها..

كالندوب..

في هذا الفضاء الحزين..

....

خيام في كل الجهات..

وأنت تنزل من تلال كفر جنة نحو الماء في ميدانكي..

تبحث عن شيء ضاع..

لا تعرف..

هل هي شجرة زيتون كنت تعرفها..

أم بيت قديم..

أم وجوه لرجال قساة..

أكلت خبزهم ضباع البراري..

وحرب الأخوة الأعداء.. والجغرافيا..

....

قال لي صديقي:

"الهواء ناقص هنا.. وهذه الوديان مقفرة..

تبحث عن أهلها.. وهذا الماء مالح..

غريب أمر هذا الاختناق..

ولكأن أحدهم.. أكل أوكسجين هذي البلاد..

وتركنا وحدنا..

وحدنا........؟!

من نحن.. أصلاً..؟!!

قلت:

لا طيور هنا لتخبرنا.. عن الجهات..

ولا جهات سوى لمن عبروا نحو موتهم فوق الجسور..

وهذي البيوت أضاعت أهلها.. وضعنا..

....

يقول رجل الحاجز العاشر:

- من أين أنتم..؟!

- نقول:

نحن من تراب.. نريد الذهاب الى الماء..

كي نعطش قليلاً..

- يقول في دعة:

- اذهبوااااااا..

....

في الوحشة..

تنتابك أصوات أحبة غادروك..

مواويل عتيقة..

و صوت بزق يتكسر فوق رأس ثقيل..

تبحث أنت في التفاتك..

عن "قبج" يطير على سمت أغنية تعرفها..

عن "اللاووك" وهو يسح أحزانك الكبرى..

على حائط غادرته للتو..

بحة.. ولولة.. أو أنين..

....

تنكمش على كتف الماء كاليتيم..

تتذكر طفلة عبرت ماء أيامك..

في كراج الأشرفية..

اسمها وردة..

سمراء.. وكأنها من عنبر..

بشامة.. شاهقة..

وصوت أشقر..

تدرس الأدب العربي..

وتحب أشعار المتنبي..

وتعبث بالكلام واللغة الفصيحة..

- من أين لك هذه الشامة يا وردة..

- "من رياح السموم أيها العربي الغر..

ومن مزابل البلاد..

المترامية قرب مجد الطوائف..

واللاشمانيا..

ومن حبة حلب..؟!

....

في طريق العودة..

تطحن روحك أغنية.. عن البيت..

عن طريق البيت..

والبلاد التي بلا أبواب..

أما الشمس..

شمسك المريضة..

فتتكسر تحت ضربات الغيم والعتم..

وهي تسقط نحو الأرض..

كل هذي الأرض.. الضيقة..

....

* القبج: طائر كوردي.. يعادله عند العرب طائر الحجل.

* اللاووك: غناء فلكلوري كوردي حزين... نغم يشبه الولولة أو الأنين الطويل.

- 3 -

(تشكيل)

"تخطيط بالفحم..

عن هواجس اللون والرائحة..

لوحة 50 × 70 سم..

- مرسم ضيق..

والمدى.. خفيف..

كانت الشمس.. تشرق من أصابعه..

أو من تراب القباب..

من العشب الأشقر..

فوق الحجارة والشبابيك..

منذ البداية..

وهو يشكل الذاكرة..

تلك الجورية الوحشية..

تلك "الململومة"

مثل الحكايا وتلال القش..

وظلال الكروم.. والبيادر..

والصيد بـ "الفواقيس"..

هكذا حافية تركض على الهوامش..

والأرصفة.. والتلال البيض..

مثل "المرقط"..

الذي كسرت الأفخاخ.. روحه..

وأغمدت في تلافيف قلبه.. خناجر أو رماح..

وطاردته.. أرامل السرو.. وعرائس الرمان..

كنت أطارد اللوحات..

كمن يطارد طيور القطا.. والورار الملون..

وهو يلاحق النحل والقبرات.. على شجر الغضا..

كي يعود..

....

علمني جاري الفنان..

التدخين بشراهة..

والمنظور..

والبعد الثالث..

وكيف نكتشف العمق..

بنزق فرشاة تضرب..

على خد تفاحة..

أو حبة كمثرى..

في طبيعة صامته..

....

وكنت أفتش عن الكلام..

لأعرف كيف "يدور" الرعاة..

على شمسهم.. في البراري..

وهم يصطادون الثعالب..

ويرتدونها كالمعاطف في الريح..

وهم يحرسون الخراف..

أو.. وهُم..

"يتفرجون" على ديكة تتقاتل..

وعلى أعرافها الحمر..

يسّاقط البرد والدم والسؤال..

....

في المساء..

كنت أرسم قبعة للصباح..

وأنحت على دروب الغبار.. معلَّقة..

تتحدث عن عكاز.. للنهار البغيض..

ليعبر.. جسر النميمة.. كي أنام..

....

في النساء.. رسمتك..

رسمت أمي.. و"حطاطة سوداء"..

وقناديل من الذهب العتيق..

بحار من الكحل..

والحرير..

والحكايا..

....

في النساء أيضاً..

رسمتك عارية.. مثلنا..

حمامة..

غلالة بيضاء..

على تخاريم من الحليب والنوايا..

شمعة تذوب..

وردة محروقة..

على خشب مولع..

بالحريق..

....

على قماش أبيض 50 × 70 سم..

وبالفحم المتراكم في الروح..

رسمتك..

فراشة..

قبساً.. من الفل..

دالية.. تنمو..

على شالك الوردي..

أو في العيون..

....

الصديق الذي علمني.. خطوطك..

دروبك..

والمفاتيح..

من زاوية السقوط..

سيذهب إلى الشوارع الجانبية.. في نزهة..

ليرسم.. "المرحبا"..

أرصفة..

للباعة..

والبدويات..

وهن يلوحن بأقراط الغواية..

ورائحة البن والتراب..

لتهتز الأرض بالخلاخيل..

مثل موال.. أو جرس..

ليسقط الخيال..

عن ظهر قلب..

أو عن..

متاريس المخافر.. والحرس..

أو.. عن وعينا اليومي..

في لوحة..

أو عن.. فرس..

- 4 -

(توت.. الذاكرة)

للشرق..

ذاكرة خبيثة..

مخاتلة.. وتكتيكية الانتقاء..

يظنها الغريب.. أو الغبي.. قصيرة..

منهكة وضعيفة..

كمثل عجوز..

يحملها عكازها.. على رصيف غريب..

....

في الشرق.. ذاكرة.. يخافها الطغاة..

ويخاتلها الأبناء الأغرار..

بالكتب المزورة.. وببسطة من الكلام الجديد..

....

في الشرق..

لا يضيع النباح.. ولا الأنين.. ولا البكاء..

بل ذاكرة تطاردها اللعنات..

وممحاة غليظة.. لرجال بلا وجوه..

تتوارى في المواويل..

في أحاديث الليل.. والمناقل.. والصفيح الفقير..

على التكايا..

على تلال الحصى.. والتراب النبيل..

على تخوم الحصيد.. وتحت خيام النوم..

في شرفات أيلول..

وعلى أسرة العرس.. وأبواب البيوت..

ولو بموال..

أو بيت شعر.. قليل..

....

في الشرق..

ثارات من الصمت الطويل..

وذاكرة.. تنصب الكمائن..

لتفتح في جدار العفاف والمجاملات العائلية..

"طلاقة".. للرصاص القديم..

....

في الشرق..

عادية.. تلك الخيانات المدفونة في مقابر القرى.

كي تضيع بين القبائل.. كالحروب..

....

في الشرق.. ذاكرة عجوز..

تعرف.. مواسمها جيداً..

وتعد الأوان..

على ورق تعفن..

في عزلة الجوارير.. والقلوب السود..

غيمة لتمطر على وقتها..

وتعرف.. خائنة الأعين..

وكيف تضرب الغرماء.. قبل قسمتهم..

وكيف.. تعود الدروب.. إلى دربها..

أو تموت..

....

في الشرق..

ذاكرة.. تتقطع قليلاً..

توت.. توووت.. تووووووووووت..

ولكنها كفرض الصلاة..

تجيء على وقتها..

وتطعم.. الأطفال.. توت..

....

توت.. توووت.. توووووووت..

– 5 –

(ذات الوشاح الخفيف)

*_ كي لا ننسى.. وكي لاااااا نندمج..؟!

"الحارة الشمالية.. مرة أخرى..؟!"

....

ليست بعيدة كل البعد.. عن السوق..

وليست قريبة كل القرب..

بما يكفي كي يتعلم الأبناء التجارة..

....

بل هي عائلات فلاحية..

لا غربية ولا شرقية..

بعقول زراعية..

وملكيات لأراض..

تتفتت بفعل الزمن وصراع الورثة وكثرتهم..

قريبة على حدود البراري..

وسهوب الشمال والتراب الأحمر والكروم..

إلى أمد قريب..

كان الأهل والأبناء.. يتنابزون بالألقاب..

لكل عائلة لقب..

ولكل طفل أيضاً.. نداء أو صريخ..

....

الحارة..

أمومية التربية..

بلا بطاركة.. وبلا مرجعيات..

حيث ترافق وصول الإسفلت وأعمدة الإنارة..

مع هجرة الآباء إلى بلاد الخليج..

....

سهول..

تصلح لزراعة القمح والأمل..

وللعب كرة القدم.. وركوب الحمير..

تصلح للصيد..

وسرقة البطيخ الأحمر..

من تخوم الحقول المتشابكة في شمال الشمال..

....

خرائب..

للعشق.. ودخان الحرائق..

وملاحقة الخطيئة والشغب..

....

ليسوا أغنياء..

وليسوا فقراء أيضاً..

بل هم وسط كالفضيلة.. بين تطرفين..

كمن يمسك عصاه من المنتصف..

....

"شوافعة" ..

مع الشافعي في العراق..

ومعه في هجرته الفقهية إلى مصر..

يؤمنون..

"بتغير الأحكام بتغير الأزمان"

"وينزحون" من بئرهم التي ولغ فيها الكلب..

7 نضحات..

ويشربون الماء.. من كف كريم..

....

ملوك السخرية..

بلا خجل أو تكتيكات عائلية..

شجعان.. دون مغامرة..

وأذكياء.. لا يحبون المدارس والدروس..

....

قساة..

وأصحاب كلام فصيح.. وشعارات..

خونة..

يستجرّون "الكنّات" الجميلات..

من غير أقاربهم..

من الشوارع الجانبية..

والحارات المجاورة..

....

عشاق.. بلا تحفظ..

يكرهون الشرطة..

ورجال الأمن..

....

أصحاب ترجيع بعيد..

ومواقف وارتدادات..

يفترشون الأرصفة في الليل..

ويحبون المال والسهر..

والشاي الثقيل والنميمة..

يتبادلون الأطباق..

والزيارات التي بلا مواعيد..

وتقاطيع "الكبة النية".. بلا حرج..

وكأنهم من سكان عام 1979..

....

كذبة..

بل شعب موهوب بالكذب..

يبدعونه.. كمن يرش الملح والأغنيات..

على أرض بلا نكهة أو ضمير أو تراب..

....

ليسوا..

طبقة وسطى..

ولا رعاع..

لكنهم خميرة الأرض..

وروح البلاد القاحلة..

يزرعون الضحكات في حقول الآخرين..

ويتركونها...

كمن يترك في كل شيءٍ.. مذاق...؟!

- 6 -

(من رسائل الغفران الأخيرة)

... وقال:

كيف قُتلتَ إذن.. يا أخي..؟

قال: كنت في الحرب.. قرب الحدود..

برصاصة في الخاصرة..

و أنت.. كيف مُت..؟

قال: كنت أرتب أسماء من هربوا.. ومن صمدوا..

وقُتلت بالسم على خبز المساء..

وأنت..

هتفت لله والوطن المهمش..

وأنت..

عبرت الطريق إلى ربطة الخبز..

وأنت..

كنت.. قرب المدرسة..

وأنت..

كنت.. في السوق.. على بسطة الخس..

تحت الشمس..

وأنتِ..

كنت أرضع طفلتي.. فاصطادني القناص.. عصراً..

وأنت..

كنت.. في صلاة الصبح.. أقرأ سورة..

عن حزن اليتامى..

وأنت..

على صليب.. في طريق الجلجلة..

وأنت..

كنت.. على رصيف الموت..

أبيع البسكويت.. للعابرين.. إلى موتهم..

وأنتِ..

كنت أحمل.. طفلتي.. وأعبر النهر..

نحو طوروس..

قتلني انكشاري.. قبل الغروب.. بطلقتين..

وأنت..

في آخر الطابور.. في نفق الإغاثة..

وأنت..

في برية الروح أهش على غنمي.. وعضتني الطائرات..

وأنت..

قالوا.. بقذيفة مجهولة سقطت..

على بيت الصفيح..

وأنت..

في زنزانة.. نصبت كميناً.. للطغاة ..

وأنت..

في قصيدة.. هربت..

من فوق أسوار.. وزارة الإعلام..

وأنت..

في رواية.. ممنوعة عن الحب الشفيف..

وأنت..

هناك.. على معبر الورد..

وكنت أغتاب الخيانة.. خلسة..

وأنت..

تحت صهريج المياه.. وبالعطش..

وأنت..

كنت أحمل جثة مجهولة.. إلى طبيب..

وأنت...

على باب مخفر.. وبتهمة الجوع القديم..

وأنت..

في شاشة التلفاز.. كنت أبحث عن وطن..

وأنت..

قرب باب الدار.. كنت أبحث عن صباح.. أو حليب..

وأنتِ..

في بيدر.. وأنا "أكشّ"..

الخوف عنهم.. والجراد..

وأنت..

في قبو.. وكنت أبحث.. عن غيوم في السماء..

وأنت..

في مشفى.. وأنا على حجر مسجى.. من دماء..

وأنت..

في منفى.. وأنا على باب غريب.. كالغياب..

وأنت..

نازح.. وكنت أبحث عن خيام..

وأنت..

على سلم.. يصعد نحو بنك الدم..

وأنت..

في الطريق.. وكنت وحدي..

وأنت..

في نزوح.. الجائعين..

وأنت..

في تظاهرة.. بعيدة..

وأنت.. في صلاة الغائب.. المجهول..

وأنت..

في حبر الجرائد..

وأنت..

هكذا.. كالعادة.. من جوع وخوف.. كالحمام..

وأنت.. في كتب قديمة..

عن حروب.. أو ملوك.. أو زحام..

قال الذي قال.. أول مرة:

يا أخوتي.. ليس من الغريب.. أن يمر الذئب من جناتنا..

ونحن في حقل الذئاب..

ذئب أكل..

ابن الشرطي..

ذئب أكل..

ابن الجندي..

ذئب أكل..

ابن صاحب الدكان..

ذئب أكل..

ابن صاحب الصهريج..

ذئب أكل..

ابن صاحب وكالة الغوث..

وذئب أكل..

ابن السياسي..

وذئب أكل..

ابن الوراق..

وذئب أكل..

ابن المفتي..

وذئب أكل..

ابن الشاعر..

وذئب أكل..

ابن الحرااااااااااااام..

كلنا في النار يا اخوتي.. كلنا في النار..

والذئاب الوديعة.. التي أكلت..

في علّيين.. في علّيين.. في علّيين..

وقال الذي قال أول مرة:

وكيف إن أكلت.. أباه..؟!

وكيف إن أكلت.. أباه..؟!

و كيف إن أكلت.. أباه..؟!

– 7 –

(على دروب القنجرة)

حكاية.. جرت أحداثها..

قرب باء البحر.. في جيم الجحيم

– قال أبي:

لا شيء هناك يا ولدي..

ثمة بحر.. وبيارة ليمون.. ونساء فقط..

حتى الآن وبعد كل هذه السنوات الطويلة..

لم أستطع معرفة كنه هذا الرجل.. أبي..؟!

لم أستطع تحديد ملامح الحكم النهائي والممكن..

تجاه هذا السر.. بملامحه الوسيمة جداً..

بقبضته الحديدية.. بالقسوة النهائية..

وبالحنان النهائي..

وما بينهما من القوة والضعف..

والتفاصيل.. لم أتمكن.. حتى الآن..

....

حتى بدايات ذلك الصيف الحار.. لم أكن أعرف البحر..

إلا في الصور..

صور الجرائد والمجلات.. وعلى شاشة التلفاز..

كان البحر.. يشبه أبي.. مبهم.. وبعيد..

قاس.. ولكنه محبوب..

كان الصيف في أيامه الأولى..

والشمس غزالة.. تحاول البحث عن بيتها..

على جبهتي..

أنا الطفل الذي يعشق..

البراري والكروم والصيف..

وصيد طيور "المكحل".. وركوب الحمير..

وصحبة الرعاة.. في نزهات القطاف..

قطاف البطيخ.. والعجور .. والجبس..

استعد..

"بدي أخدك ع البحر هل الصيفية..

إذا نجحت في الانتقال إلى الصف الثامن.."

هكذا قال أبي.. الذي لا يمزح عندما يقول..

طار عقلي.. مثل دوري حبيس في قفص..

وروحي صارت هناك.. على ضفاف المتوسط..

قد أكون كاذباً..

إن قلت لكم أنني شممت رائحة البحر حينها..

رائحة اليود.. وخشب المراكب المنسابة..

وأعشاب البحر والرمل الطري..

رغم هذا..

لا بد لكم.. من أن تصدقوني.. كي تكتمل الحكاية..

عن البحر.. الحب.. الحرب..

وعن رائحة اليود والشمس.. عن الصبايا الصغيرات..

عن الهدايا من ورق الغار والليمون والبرتقال..

وتين الصبار.. "الصبر".. وعن القبل..

....

كان أبي يملك حفارة لحفر الآبار الارتوازية..

كان يعمل هناك..

على الساحل الشرقي للمتوسط منذ سنوات وسنوات..

كان يجيد.. حفر هذه الأرض وثقبها..

ويستخرج من طبقات ترابها الماء والخير.. ويطعمنا..

....

على الطريق الدولي بين حلب واللاذقية..

وعلى مقعد في باص قديم.. يطل على جبال..

دروب ملتوية..

منحنيات خطرة.. ووديان مليئة بالروائح..

على..

غابات من البطم والإسبندار..

أنا الطفل الصاعد إلى المراهقة..

كنت أتحسس بضع "حبات شباب"..

قد توردت للتو فوق وجنتي..

كنت أسأل: "ترى..

هل يحب أبي.. البحر والفتيات.. مثلي..؟!"

....

لم يكن أبي ممن يفصح عن عواطفه بسهولة...

كانت عواطفه عصية.. ومبهمة...

رغم هذا.. مرة.. أمسكت دموعه على زاوية خده..

وهو يرفع قدمي المكسورة عن أرضية ملعب كرة القدم..

ويحملني في أحضانه إلى الطبيب..

ومرة.. سمعته يدندن أغنية لأم كلثوم..

بشجن هائل..

"عايزنا نرجع زي زمان..

قول لزمان ارجع يا زمان.."

....

لم يفت الموعد.. أيها الصيف..

يا فصل العشق..

و يا مواسم الخوخ والأغنيات والسهر ..

في الطريق الطويل إلى الساحل..

وتحت قبة من القيظ والشمس..

وأنا التهم صندويشة "الكباب" المباركة بنهم..

في المقعد الذي قبل المقعد الأخير..

في حافلة "الهوب هوب" المتعبة..

أنا الطفل القادم من السهل..

من سهوب القش والقمح والتراب الأحمر..

كان يغمرني الشجر وتغمرني الروائح الحريفة..

وكنت أبحث في الأفق الجديد والطيب..

عن الزرقة والماء..

وعن وجه البحر الغريب..

على دروب منحنية..

من الخضرة والوجوه المنهمرة..

من كل حدب وصوب...

....

القرية ليست بعيدة..

إلى الشمال من المدينة بكرم من التفاح..

وكرم من الليمون وبيارة من البرتقال..

وسياج من الصبار والشوك..

"القنجرة".. كمشة بيوت فقيرة..

تتعربش على تلال بسيطة من الليمون والبرتقال..

إلى الشرق من طريق اللاذقية – كسب..

فرن ريفي..

قهوة بسيطة من القش وجرار العرق والنبيذ..

ومن بقايا الخشب.. والكثير الكثير من الفقر..

والعجائز والصبايا والشجر..

....

الشباب أقل..

لعلهم في المدينة يعملون في الفنادق والمطاعم..

لعلهم يبيعون سلال الدراق وتين الصبار في ساحات اللاذقية..

في "الشيخ ضاهر".. أو في الكراجات التي يشرّق منها الناس إلى حلب..

لعلهم في معسكرات التدريب الجامعي..

في دورات الصاعقة..

في الكليات الحربية والبحرية والجوية..

لعلهم يبيعون أوراق الحظ.. على الشاطئ الأزرق..

لعلهم في شوارع الشام.. في ساحة المرجة..

وعلى أبواب الفنادق الرخيصة..

وشوارع الشام الجانبية تلك الشوارع..

المفتوحة والمباحة لكل شيء..

أو على كل شيء ممكن..

أو على.. كل احتمال..

....

في القنجرة..

كل شيء بسيط..

الناس والبيوت والدروب الترابية وخبز الفرن الوحيد..

الحواكير والكروم وأشجار التين والحمضيات.. الوارفة..

الآبار.. التي يطلب حفرها..

العلاقات والتعارف "الزراعي" على طريقة أهل الريف..

التي تعقد في لمسة المرحبا..

لتصير من أهل البيت.. بمجرد أن تقول:

"صباح الخير" أو "مساء الخير"

....

بيت.. "بو اسماعيل.."

أول بيت دخلته..

العائلة التي تحفر بئرها الآن..

الأب موظف متقاعد..

يتنقل على طرق القرية بجرار أحمر..

متهالك أو يكاد..

من نوع "فرسان"..

يذهب مع بداية النهار إلى البحر..

كي يصطاد السمك..

ويعود قبل غروب الشمس بقليل..

البحر ليس ببعيد ولا بالقريب.. 10 – 15 كم..

عن بيوت القرية المتناثرة بين بساتين الليمون والبرتقال..

هناك الكثير من الفتيات والأمهات في البيت..

والأطفال الصغار من الحفدة..

الأم عجوز تشع طيبة وهدوء..

نحلة لا تكل ولا تمل..

من الصباح حتى المساء..

الشباب.. طلال.. طالب بكالوريا ينتظر النتائج..

ويحلم بالتطوع في الكلية الحربية..

فراس.. لم أتعرف عليه..

بل شاهدت صورته بصدر الغرفة..

تحتها علق وسام شرف..

وهو باللباس العسكري وبرتبة مقدم..

"وحدات خاصة" حيث إنه منح هذا الوسام..

بمناسبة بطولاته في القضاء على..

"عصابة الإخوان المسلمين العميلة؟!"..

هكذا كتب على حافة الإطار الذي يحتوي على الصورة..

والمعلق على الجدار..؟!

....

لم يبق.. سوى محمد وسهى..

محمد.. أشقر بنمش.. من أبناء جيلي..

يحب كرة القدم.. ويريد أن يصبح طياراً لطائرة مقاتلة..

سهى..

سهى.. مربط الفرس..

ومناط الرحلة.. ومفتاح البحر.. والبساتين..

سهى.. تفاحة ساحلية..

حبة برتقال متوسطي.. حمامة فينيقية..

بيضاء..

عمدتها الشمس بالضوء وبملح البحر والرمل القريب..

فتاة من رشيم الشمس.. ولون العيون الخضر..

تلك التي.. من أوراق شجرة زيتون نضرة..

من أقصى الاخضرار.. أقصى البياض..

أقصى الشمس والبرونز والفضة..

قالت لي أول ما قالت:

"عيّن.. عيّن.. محمووووود..

أنا شاطرة كتير بالمدرسة..

أنا نجحت ع الصف السابع"

أنا لن أحدثكم عن مباريات كرة القدم بيني وبين محمد..

وكيف كانت المنافسة حامية الوطيس بيننا..

ونحن حفاة على التراب..

في شوارع القرية..

كيف كان يخسر ويتلقى الأهداف الحاسمة..

على مرأى ومسمع من مشجعتي الرائعة.. سهى..

حيث ينتهي اللقاء دائماً بوجبة الغداء..

من الرز بحمص..

في بيت الخالة أم اسماعيل..

....

سهى.. رفيقة الصباح..

رفيقة الظهيرة.. والعصر والمساء..

كل الساحل والبحر صار سهى...

كل الأشجار.. كل الدروب والعصافير..

كل تفاحة سهى.. كل برتقالة.. وكل حبة خوخ..

في الصبح تأخذني إلى رحلة قطاف "الصبر":

"عيّن.. عيّن.. أفيك تلمسون هيك..

بخاف عليك من الشوك محموووود .."

بعصاة طويلة.. تنتهي "بسقرق" من المعدن..

مفتوحة الأطراف..

كنا نلتقط حبات تين الصبار الناضجة..

نعمدها بالرمل والتراب.. والماء..

حتى تصبح مشتهاة..

يسيل لها عسل القلب والروح..

وندى الصباح البكر..

الذي يتسرمد في يدها..

وهي تطعمني حبة الصبر الناضجة..

وكأنه صباح الأبد.. الأبد المشتهى..

الأبد المستحيل..

الذي لا يحول ولا يزول.. ولا يقال..

....

في الظهيرة... نعود معاً..

إلى الحفارة..

نتفرج على عمالها وهم يحفرون البئر..

نقف على حافة "برميل" الماء..

نتخابث.. نضحك..

نمد الأصابع الصغيرة لنلعب معاً في برودة الماء..

نغافل أبي.. حتى تتلامس الأصابع تحت الماء..

في باكورة البراءة والحب والمواسم والقطاف..

حتى أن لقاء "البرميل"..

صار هو الطقس والحلم والاشتهاء النبيل..

صار البرميل.. بحر..

وصار البحر.. أصابع سهى..

بذات الاشتهاء الفذ.. وبذات الرائحة..

واللون.. والطعم.. والحنين..

وأنا لم أعد أعرف الجهات.. ولا جهة البحر ولا الماء..

صار البحر.. اسمه.. سهى..

....

لم تك سهى فتاة الصباح فقط..

بل شهد العسل.. في المساء أيضاً

وهي تصنع من أوراق شجرة التين.. سلة..

فينضج الشهد.. في كفها.. لذة من تين..

كل سلال سهى.. كانت لي..

سلة تين الصبر في الصباح..

وسلة الماء والأصابع في الظهيرة..

وسلة التين الأخضر في العصر.. والمساء..

أنا.. أسير السلال.. أعلن أن سهى..

كانت تأخذني في الصبح الى البحر..

لتعود بي عند الظهيرة.. صادياً..

أموت من الحب والعطش..

أنا الطفل "الشريقي"..

القادم من حواف البادية.. أعلن هنا..

على حافة هذا الأقيانوس العظيم من الماء..

أن كل سلالي.. أصبحت فارغة..

....

في المساء..

لم يكن المسلسل الدرامي المصري..

"سباق الثعالب" سوى حجتي مع سهى..

والليل..

الليل.. ذاك الذي سيذهب بنا نحن أبناء العطش..

إلى بحر من الظلمات والموت الطويل..

....

على رمال الشاطئ الأزرق..

كنت وحدي..

أبي غادر إلى حلب.. منذ صيف طويل..

تركني هناك..

ملقىً على الرمل.. وحدي..

البحر لم يعد يعرفني أنا "الشريقي"..

أنا الغريب..

وحدي بين الرمال والماء..

لا سماء لي ولا مراكب..

سهى الآن.. تدخل في الحرب..

قناصة.. تطلق الرصاص على قلبي الصغير..

وتنتقم لغيابي..

وللوعود التي قطعتها للتين والصبار..

ولم أعد..

محمد.. صار طياراً الآن..

يركب طائرته ويقصفني..

ينتقم لكل الخسارات والأهداف..

التي سجلتها في مرماه..

بقدم حافية..

على دروب وتراب القنجرة..

تحت حر الظهيرة..

برميل الحب والماء وعناق الأصابع..

ينزل الآن على البيوت..

وهو يحمل الموت والبارود والكراهية..

وأنا.. على رمل المتوسط..

وحدي.. بلا أب..

أكتب اسمك البحري..

على رمل الشاطئ الأزرق هكذا..

"سوهاااا".. مثل طفل..

لا يجيد إملاء الأحرف والكلام..

بل يحاول أن يرسمك.. نقشاً على قلبه..

أو شامة سقطت..

من سلال العنب والتين والصبر..

على دروب الحرب والبحر..

والياسمين...؟!



من أعمال الفنان عمار سفلو

شاعر يجلس كالقطة أمام النافذة

فواز القادري

شاعر كردي سوري مقيم في ألمانيا، وله العديد من الإصدارات الشعرية.

ما أخبارهم؟

تسأل الروح وهي تقرفص إزاء النافذة

تسأل النافذة وهي تتمرأى بأشجار اللهب

أوراق صفر وأوراق رماد

وهذا الحريق موجع في الذاكرة

ما أخبارهم؟

والحجر الخريف جاد هذا المرّة بتعرية الشجر

لا كرامة للعصافير ولا خاطر لشرفة الشاعر

منجله بيده كما يفعل الموت هناك

ما أخبارهم؟

لا يجيب أحد على السؤال

تعول الريح في فراغ ذاكرتي فقط .

*

أعود إلى ميونيخ وهي ليست المبتغى

في الطريق إليها ضيّعتُ الطريق

لا علامات ولا أثر يدلّ على الفرات

يا حبور يا سرور عاشقة بعد لقاء عاصف

لا أثر للكؤوس الشقر ولا للمازات المزّة

ضيّعتُ عباءة أمي السوداء وما بكيتُ

ضيّعتُ الشبابيك والأيدي التي تلوّح وما بكيتُ

ولكني حينما خسرتُ رقصة أمواجه وطريقي إلى الشطآن

رائحة الشجر رائحة الخبز ورائحة الطين بكيتُ

مرّت أمامي جميع الطرق بمسافاتها الشاهقة

جميع الأنهار وجميع السواقي وجميع المزن

نوم الظهيرة وسهر الليالي إلى الصباح

لا بساتين أعرفها كي أسرق عنقودي الأخير

لا سواتر طينيّة لكي أقفز هاوية الأزمنة

لا ألعاب ولا نياشين أعلّقها على أكتاف الفرح

بكيتُ حين وصلتُها ولم تكن "إيثاكا" الفرات .

*

الطرقات تفتنني ويغويني السفرخلفكِ

أتبعك أينما ترحلين ومعي رائحة مطر صديق

بالخناجر والصرخات أرقص رقصة الحياة

كرجل بدائيّ تتدلّى من عنقه تعويذة القدر

ويرقص رقصة الموت فتى الخوف الطائش

قطط الشارع الخالي من الناس تموء بحزن

قططكِ تموء وتنثر أصوات حنينها

قططك الوسيمة بكت حين لم تجد لكِ أثراً في الدار

الكلاب تتلفّت إلى الوراء وفي عينيها صور أحباب راحلين

وصايا العجائز معي وحكمة الشيوخ ونزق الشباب

أبحث عنكِ ولا أمل

أقلب الدنيا رأساً على رأس

إلى المحيطات أرسل بحّارتي النشطاء

يجوبونها جزيرة جزيرة

يفتشون أرخبيلات لم يطأها لا بحارة ولا قراصنة

أتبعك وفي آخر الأمر

أغلق الكوكب على أواجاعه

حتى لا تفرّي مع دمعة صغير نفرت قبل أن يموت .

*

أتبعكِ تصعد سناجبي عالي الأشجار

تفتش طيوري عنك بمناقيرها

رئات الحدائق وحوصلة الأدغال

المدن وأسواق الباعة العجولين

أماكن العبادة وحانات السكارى

تطعم الأسماك وتسأل

تطعم الفراخ وتسأل

وحين ينفد صبر القدّيسين منّا

ولاتكتشف الأحاجي اسمك النوراني

تغلق عينيها أمام أجراس غياب ترن

حين لا تحس البلاد بخسائر العشق الجسيمة .

*

في طريق العودة إلى ميونيخ

ميونيخ هودج حضري غارقة في الحلم والضباب

والعاشق لا يمتلئ إلّا بجسد بنلوبي الدافئ

وبنلوبي يحاصرها الزناة والقتلة وتنتظر

تنسج ثوب صبرها وتجمّله بالحيلة

فرسان عزّل ومحاصرون يحرسون ظلها

وإيثاكا المشتهاة تشمشمها الكلاب

وتبقى بعيدة عن متناول القلب .

*

أتبعكِ وعيوني على الوعول وحجل الجبال

السماء قريبة وفي متناول القلب

أتبعك ومعي أسماء كل الأنهار والجسور

تلف رأسي ولا تتوقف الدنيا عن الصرير

أنادي خجل الفقراء ورموش الأعين الخائفة

لا يقربني أحد من المشردين وأبناء آوى

أتبعك وكأنّك سراب في الضباب

خيولكِ تصهل وتقفز حواجز خوفي العالية

وأنا أكتم صهيلي وأتبعك من الأثر إلى الرائحة .

*

أتبعكِ حتى آخر الأرض

حتى آخر الدموع في قصص الحب

حتى آخر الأشرعة في أعالي البحار

حتى آخر القوافل التي أضاعت الحداء

حتى آخر أنفاس العشاق الحبيسة في الأغاني

حتى آخر المواويل في الدبكات الشعبية

حتى آخر المراثي وآخر الموتى الذين لا يتذكّرون

حتى آخر مواعيد الحب السرية في الحارات

وحين أتعب

سأنتظركِ على آخر رصيف في هذا العالم

كبطل رواية رومانسيّة مهزوم .

*

أتبعك حتى آخر الطرق

حتى آخر الظلام

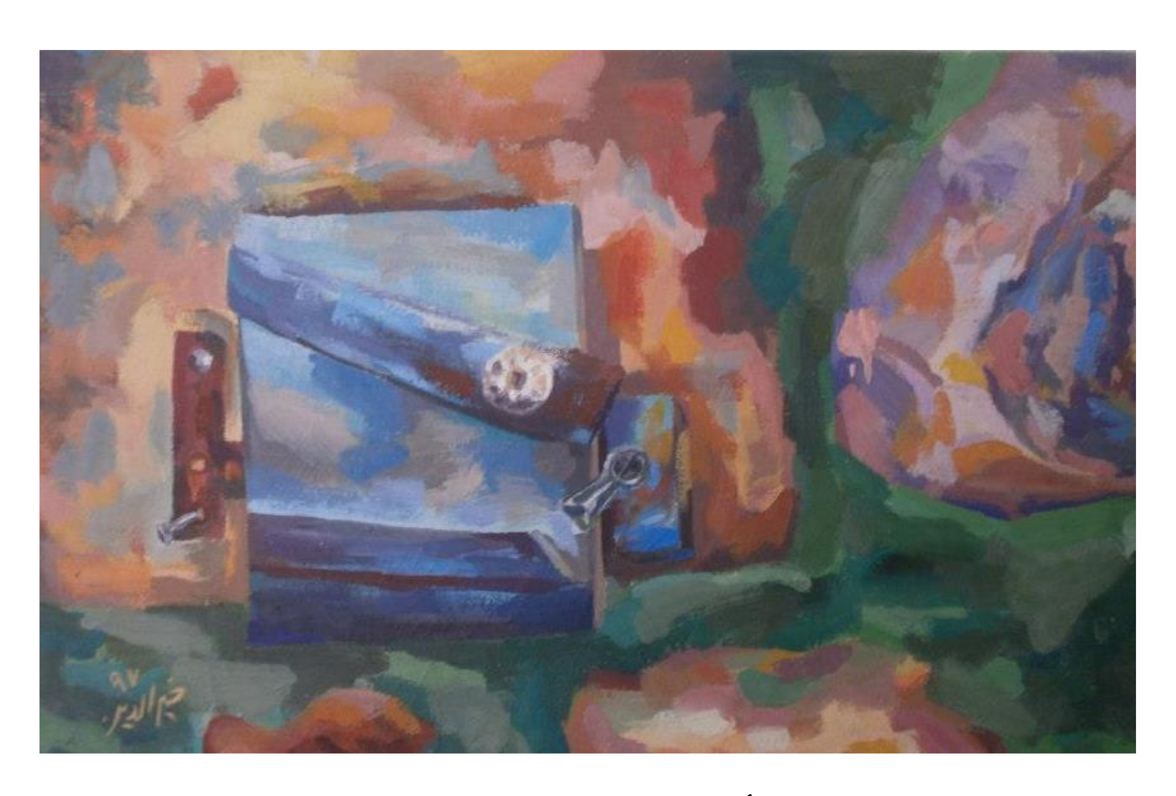
حتى آخر الأغاني

حتى آخر الشهيق

وحين تشرف قصيدتي على الانتهاء

أكتبك على هيئة حسرة

وأترك بشائر فرح عينيك للخاتمة.



من أعمال الفنان خير الدين عبيد

برد

عبد الرحمن الإبراهيم

شاعر سوري من قرية الغدقة في ريف إدلب، له ستة إصدارات الشعرية، وجديده "أظافر الأنبياء" تحت الطباعة.

البردُ فيروسٌ جديدٌ..

واسْمُه في معجم الأخلاق: وَغْدُ

سُمٌّ بناب عصابةٍ

لَسَعَتْ عروقَ الشّمس فانطفأ اللظى

وتغّلْغَلَتْ لتقيم – بعد الاغتصاب –

على رماد نهودها عرشاً..

تربَّعَ فوقه (أي فوق صدر الشّمس) بَرْدُ

مَنْ يوقظُ الغيمَ المدثَّرَ في سرير البحر..

والشّمسُ الجميلة لم تعدْ تنمو سنابلُ شعرها

صبحاً على خدِّ النّهارْ؟

مَنْ يُجلِسُ الغيماتِ..

يرفعُ رأسها بالدّفءِ عن خَدَرِ الطحالبِ..

ثم يُلْبِسُها فساتينَ المطرْ؟

من في غيابِ الشّمس..

يمسحُ ما تراكمَ من جليدٍ..

عن جفونِ عيونِها

لتصُبَّ فوق الزَّعترِ البردانِ..

دمعاً دافئاً؟

من يا ترى؟ والشّمسُ بَرْدُ

جفَّ الحنانُ بطرده..

من قلب ذاكرة الترابْ

أعصابُ أهدابِ الجّذور تجمّدَتْ

سدّتْ متاريسُ الصقيع دروبَها

والبردُ منهمكٌ بترسيخ العماءْ

من في غياب الدفـءِ، يعرفُ دَرْبَهَا؟

والدّفـءُ عكّازُ الجّذورْ

من ذا يترجمُ في ظلام الأرض..

قصَّةَ شوقها.. للغاتِ آلاف الزهور..

وبلهجة الرّمان والزيتون والتين الصّبورْ؟!

والبردُ أميٌّ فجورْ

من أيَ رَحْمٍ

سوف تنجبُ حبّةُ القمح النّحيلةُ سبعةً

في كلِّ سنبلةٍ رغيفٌ للجيّاع..

وبطنُ هذي الأرض بردُ؟!

*

عبثاً جويراتي.. كسالى القبَّرات..

تُضيفُ ريشاً ثانياً لثيابها.. والرّيشُ بَرْدُ!!

هرَعَتْ إلى الوكر المدفَّأ بالأغاني والأماني..

للفراخ القادمات مع الربيع المرتجى

والوكرُ بَرْدُ!!

فتحاشدتْ بالزّقزقات..

تقيمُ حول الكوخ قدَّاسَ الفراق..

ويمَمَتْ نحو الجنوب بهجرةٍ

وجنوبنا كشمالنا المطعون.. بَرْدُ!!

*

رغم الأبابيل التي تُلقي على الإرهاب فوق مضاجع الفقراء..

من سجيلها (وبكلِّ عطفٍ)

ما تيسّرّ من براميل الجحيمْ!!

والرّاجمات (المحسنات) تمدُّهمْ

وعلى مدار البرد تُّصليهمْ عناقيداً مسعرَّةً..

من الكرم المخصَّب باللظى

والكرم صاحبه كريمْ!!

ومدافعٍ نّضَجَتْ حديثاً من عيار جهنّمٍ

فأضافها للبرد.. بَرْدُ!!

رُغمَ السّخاءِ العالميّ بكلِّ ما ملكَتْ سَقَرْ

فالبردُ بالموت اغتنى

والدفءُ (شبَّرَ) فانتحرْ

لم تحترقْ إلّا الضمائرُ في البشرْ

*

مستثمرٌ في الله (أي في البرد)..

يلهجُ بـ (الضّحى) مسترزقاً

و (النّاسِ) مُتقيّاً بها شيطانَه

أمّا الحسودَ فبـ (الفلقْ)

متحمّسٌ لله..

يربُطه بحضرة أو بغبطة أو بحُجّة سادنِ الفيروس..

حبلٌ مِنْ لّحى.. أيْ من ذَهَبْ!!

مُتخصّصٌ بمخيماتِ النازحين من البلدْ

وإلى البلدْ

والهاربينَ إلى الذئاب من الأسدْ!!

يتلقّطُ النُزَلاءَ من إخوانه في الله..

يُنجيهمْ من البرد المريعْ

وبركعةٍ وعلى مسافة دمعةٍ

من جفنِ قلّةِ حيلتي

لَبِسَ المكانُ خيامَه

متدفئاً بدموعِ مَنْ بعروقهمْ جَمُدَ النّجيعْ

وتقاسمَ النّزلاءُ أشباهَ الخيامِ وبالتّساوي..

بينَ آلامِ الجميعْ

صَفَنُوا على أبوابها

وتَعوذَبوا بالبردِ مِنْ أجوافِها!!

لكأنّها رئةُ الصقيعْ

وطنٌ فظيعْ

الخيمةُ الثكلى يراودُها المموَلُ..

وقتما صرخَ الرضيعْ

وقعتْ على كفِّ المخيّمِ بغتَةً

(من غير طلْقٍ موجعٍ)!!

أُولى ثمارِ الزّمهريرْ

فبِطَلْقَةٍ مِنْ مدفعٍ

تُعفى جميعُ مواخضِ الخيماتِ..

مِنْ طلْقِ الولاداتِ العسيرْ

كيف التي بالموت – ممّا في مضامينِ المخيّمِ –

تستجيرْ !!؟؟

وطنٌ قتيلْ

جذّتْ ضفائرَها الكرومُ وأشْعلتَها..

للخيامِ الحافياتِ من الأمانْ

والبردُ.. بَرْدُ!!

قطعَتْ أصابِعَها الكرومُ وأضْرَمَتْها

ثُمَّ كسَّرَتِ الزُّنُودَ وأحرَقتها

للخيام العارياتِ من الحنانْ

والبَرْدُ.. بَرْدُ!!

*

أُوّاهُ يا كوخي الذي عيناكَ – رغم البرد.. والعتَماتِ – ما زالتْ..

تَنُوسُ كما الفوانيسِ العتيقيةِ..

بينَ أهدابِ الضبابْ

في بال حزنكَ دائماً

للرّوح تتْرُكُ مَطْرَحَاً

بينَ العذوبة والعذابْ

أفكلّما أرَّقْتُ تحتَ الشّاي جَمراً..

أرَّقَتْ عيناكَ قلبي..

ثُمَّ أحْضَرَتِ الغيابْ؟!!

الوقتُ غير مناسبٍ لقراءتي

فاقرأ بهيبةِ وِحْشَتِكْ

ما شئتْ من أدبِ المشاعرِ..

في أمُومةِ نَعْجَةٍ مرَّتْ بوهمِ وليدِها

ريحُ الذئابْ

تالله تفتأٌ تنبشُ الصورَ الحبيبةَ..

ثمَّ تمسحُ غبْرَةَ التاريخ عنها..

كيْ أرُّشَ على سُهادِ جُفونها

شَوقاً تخضَّلَ بالعتابْ

أتظنُّ "عشتارَ" القصيدةِ أشْرَكَتْ في كُحلها

أيْ آمنتْ بعقيدةِ الفيروس..

فاختنقَ الهوى متأثراً بالبرد..

حتّى مات في حوض القوافي غيلةً

حبقٌ ووَرْدُ؟!!!

البردُ أرحم صدمةً

من أنْ يُقَالَ..

: يمامةٌ صَبأَتْ

وما عادتْ تُغَطّي ذكرياتِ ضلوعها

بقطيفتين من الهديل لينتشي بالدّفءِ..

(رغم الوغْدِ) تحت جناحها

شوقٌ وَوَجْدُ

ما هكذا للرّوح يبدو

فلَعَلَّه في البرد يَخْرَفُ حَدْسُنَا

فَيُشَمُّ مِنْ ريحانةِ الأشياءِ ضِدٌّ

*

مِنْ خيمةٍ حدباءَ..

بعضُ عروقها قُطِعَتْ بعَرْبَدَةِ الهواءْ

خرَجَتْ تَلُّفُ على أنوثتها القتيلةِ..

فَرْوَةً لشقيقها

أَخْفَتْ بِكُمَّيْهَا قصيدةَ مِحْبَسٍ

وأصابعاً، للبرد فيها غايةٌ

ليستْ صليلَ (الكرتعةْ)

وروايةً تشْتَمُّ دفءَ فصولها

مِنْ جمرِ ذاكرة الأساورِ..

والأساورُ مُفْزِعَةْ!!

عَزَفَتْ على ناي التأوّهِ..

قبلما سألتْ: وماذا (أيّها البردانُ) بَعْدُ؟

قلتُ: الذي ما مِنهُ بُدٌّ

ووعظتها كمثقفٍ وكعارفٍ بالبرد..

ثمَّ كمشفقٍ

: لا تُسْرفي بتناول الآهاتِ والآخاتِ..

خلّيها لما قدْ يستجدُّ

فلكلِّ بَعْدٍ في كتابِ الْبَرْدِ بَعْدُ

عادتْ تكرّرُ بازدراءٍ..

: ثمَّ ماذا أيّها البردانُ بَعْدُ

فأجبتها متفلسفاً

: في الثلج.. أيْ في البرد يا ابنةَ خيمةٍ

تتشابهُ الطرقاتُ

تُصْبحُ كلُّها كطريق "حمزة"* ..

ما لها قدمٌ تَجُدُّ

صَرَخَتْ: "وماذا بعدما أعطاكموا........"

عَثَرَتْ بغُصَّتها الحروفُ فأجْهشَتْ لهنيهةٍ

ثمَّ انتشتْ، وكأنّها اتّقَدَتْ بمسٍّ..

من حنان عيونه

ومضتْ تُوَصِّلُ ما تقطّعَ من نشيج حروفها

: "غنمتْ جلودُ نسائكمْ

دفئاً وفيراً من دماء جراحه

ليزُجَّه في بردِ جوف القَبْرِ.. بَرْدُ"!؟

وبَكتْ بدفءِ عيونِه ما تشتهي

وجفونها كالغيم ترتجلُ النجومَ..

وهكذا يبكي الإباءْ

(والله لو تبكي القصيدةُ مثلَها

لنقشتُ بالدّمع المُقفّى..

ألفَ شمسٍ في السّماءْ)

وصَحَتْ أساورُها على وقع الخيولِ..

العابراتِ من الدماء إلى الدماءْ

وبكبرياءٍ صعبةٍ

حَلفَتْ بعزّةِ بوطه.. تتوعّدُ

: "سأدوسُ رأسَ عصابةِ الفيروس يوماً"..

هكذا وعدتْ، وحزنيَ يشهدُ

مَنْ آمنتْ بحبيبها

وبأنّه سيظلُّ كالأمواج حيّاً دافئاً

وعلى شواطئ قلبها يتجَدّدُ.

نَصٌّ

عبير خديجة

شاعرة سورية من سلمية

وئيدُ الخُطى وعلى كتفيَّ أحملُ غيماً ثقيلاً شطرتني الرِّيح

ولم أُنذِر بمَطر.

أَمرُّ بالوردةِ فتجرحها الرِّقة ويُعطِشها نداءْ

وأنَّ الحُزنَ في وجوهِ الطالعينَ من جلودهم صُبحاً

رشيقٌ نحوَنا.

منذُ طعنةٍ أنا ظل الله راقصٌ على الأرض أُخمّنُ، أنَّ العالم مثلما ابتدأ سينتهي بخطئٍ فادح.

رشيقُ الخُطى بعدَ خيبةٍ ستأتي غداً.

مُحمَّلٌ كاهلي بخطايا الحمقى ولي فرادةُ القول:

نحنُ أبناء الخواطئ أقدامنا على بلّورِ قلوبنا المكسورة، وننهضُ .. ولنا بضاضة العُشبِ بعدَ المُطيرةِ الأولى، ونسمةٌ تَنِزُّ من لحمكم دماً ولكم هناءتكم في هذا الجحيم.

نحنُ أبناء المَهانةِ ولنا علاقةٌ حميمةٌ مع الموت، نؤمن بأنَّ العيشَ على هذهِ الأرض انتحارٌ دُفعنا إليه فصرنا من سلالتهِ مسعورينَ نُجرِّب في كلِّ لحظةٍ انتحاراً ونفشل نخرجُ من صلبهِ مشوَّهين .. ونقول: الموتُ سهل.

طريقنا ليست واحدة، أقدامنا الرّاجفة ألعوبة الرِّيح في خريفٍ لن يأتي أبداً ... فلوِّن وردكَ من وريدي – العالم المخبوء في قطرةٍ حيٌّ – كي لا ننفصل أبداً.

نحنُ أبناء هوَّةٍ حرفتنا أن نبقى على الحافةِ أبداً. نحنُ أبناء الماء ونموتُ عطاشى، أبناءُ المتاهاتِ وتُهنا، أبناءُ السَّكرتين ونحيا بشمَّة عِطر .. وفي عينِ كلّ ابن لاهيةٍ جُناةُ طقسٍ، وإن برؤنا رُجمنا.

ملحونٌ قهرنا ومعلقةٌ أرواحنا بطرفِ جَناح. فضاؤنا خانِقٌ وعوالمنا هشيم في كفِ نار. مَضحوكٌ علينا بالأمل يئسنا من كوننا لا نيئس وأننا ضدّانِ حميمانِ ويختصمان!!

ليلاً يغمَقُ الأبيَضُ، في لحظةِ الموتِ الصريح كلُ أبناءِ عاهرةٍ يقرأون!!!

صراخٌ كثيرٌ في الحناجِر، وصوتُ فصدِ اللحمِ عن اللحم .. ليسَ مهماً، إنَّكَ الآن أعمى.

فاكتب كأنَّ حتى الله ومثلما يفعل دائماً قد نامَ عنك .. اكتب والأصابع ليست ضرورة.

العالم لا يُشبه نفسه الآن.

بطل...

محمد محمود العيسى

شاعر سوري، والقصيدة من ديوان قيد الطبع.

ضمة ريحان ودمعة ودعاء طويل

هكذا قالت لي أمي حين أعطيتها أول راتب لي أجر " زق البحص"

من الشارع الضيق في آخر الطفولة إلى الطابق الثالث في أول الضوء.

*

لم يخطر ببالي أن يأتي يوم وألقي نصاً نثرياً أو قصيدة

أمام أكثر من شخص واحد

قلق في الحنجرة

وركاكة في الإلقاء والنحو ومخارج الحروف

أصاب بالإرباك فأتعثر بالهمزة والفتحة أو بضمة غير متوقعة

فينكسر خاطر فنجان الشعر

ويندلق فوق خدي طحال إرباك أحمر.

أهرول في كل صباح قبل أن تبزغ الشمس من حي "العويجة"

إلى آخر حي "بستان الباشا" حيث موقف دار المعلمين بسواره الافحج

لأمتطي من هناك حلماً محدودب الخاطر من حديد يسمونه

هوب هوب

*

هوب هوب ..

زمان من صدأ ونكبات في مواسم القطن

دولاب منفوخ بأحلام من هواء سكري أحمر

ليأخذني إلى معمل السكر شرق المدينة بتسعين كيلو من الإحباط المعبد بالشعارات الملقاة على الوجوه والأحاديث التي تتم بين المرء ونفسه تحت طائلة تقسيم جائر لتضاريس اللسان

سنوات إنفلونزا الشعارات

وحصباء الفكر

أحزاب لها خوار تخبىء قرنيها تحت جبهة شيطان أشقر

سنوات من المكر السكري الأبيض..

وأنين في عظام المخابز الآلية للدولة

التهاب بأسنان محالج الأقطان

والأمنيات المعبأة في معاهد الصم والبكم والعمى المدروس.

لا أذكر بأنني حملت محفظة نقود في جيبي

تعودتُ أن أحمل في جيب القميص هويتي

بعض النقود الوسيمة الوزن

وعلبة سجائر "حمراء طويلة"

كانت ضحكتي تتدلى من وجهي مثل حبات الكرز

وفي الوجد صوت ساقية بعيد

قناة "من ورد وماء وأغنيات من ريف وجوع وقطع أصابع العشق إن زاد حد القبلتين

ضفيرة شقراء بخيوط عطر أخبئها تحت ساعة القلب.

بطل رغم الورق الذي تتكون منه أضلعي

أحلم في كل يوم خمس مرات

وأتوضأ بأغنيات الشجر مع النسيم والعصافير والضوء

أسابق خيوط الفجر إلى سطح الطابق السابع أحمل ستين كيساً من "البحص"

وزرادة الحجر

قبل أن تجف الزهرة في حنجرة عصفور بفارق زهرة

وأبكي قبل أن يبكي طفل مازحه الجوع وعض ضحكته من الأصابع والقلب

*

في العطلة المدرسية يتربع الصيف أمام القلب بعوز خشن وناب بليد

فأقتحم بكتفي النحيل سوار الجوع

أهرول من باب "الفرج"

ماراً بالساعة "التاريخية" محاذاة دار الكتب الوطنية

باتجاه باب "الجنائن" حيث ورشة باب أنطاكية ساحة العمال اليوميين

مدججين بالأحلام والمجارف وأدوات العمارة "والزنابيل" المفتوحة بالرجاء لأمل ينقض ظهر الجوع.

*

مصاب بأنفلونزا الربيع

أسأل عنك غبار حبات الطلع

وهتافات السنابل والمعامل والساحات وعناق الماء للماء

أطوّق اسمك بالمجاز البشوش الأزرق

زفرة البراكين والقصائد التي تأتي من تحت إبط النمل

عرق ينز من لحاء الشجر

خوف يخور أمام زهرة خوخ

وعتمة تفر من العتمة بموال

عاشقة لا تبكي في آخر الموال.

*

ماتزال فينا ضحكات البساتين والساحات

وزغاريد السواقي حين تفيض في أول كل ربيع

فتبتسم ذاكرتنا لرائحة أزهار المشمش واسمرار حبات التوت

في شجر يبتسم فوق خد الرصيف والكون.

قصائد

محمد القادري

شاعر وفنان تشكيلي.

حال لا يسمح لي بأمنيات جميلة

أفكّر بماذا أعبدك؟

قال فكّر كيف ترتاح صلاتك

وكيف تتسامى أنت في الهواء دون إزعاج؟

وما هي الهيئة التي سترتديك إذاً في هجرتك المقبلة؟

فكّر ولا تتردد فهي لعنتك الأخيرة حتى لا تتشظى قطرات الدمع على عظام المنفى

وتدور أنت بذراعين ممتدتين بفلكك حتى يبلغ الهذيان ذروته

وحتى لا تُعقد أكاليل الريبة في الجموح

كن على يقين

حالك لا تسمح لك بأمنياتٍ جميلة بعد كل شيءٍ

إذاً ماذا تختار؟ وماذا تحب؟

. أحب الألوان والطيران والرائحة الجميلة والاستشعار

وسأتكلم كالخالق بكل الألوان

أنا فراشةٌ عرجاء، تحمل أعباء الرحيق الذي أضاعته

عبقٌ حزين راسخٌ يفوح بها الى حافة التيه

وأجنحة مجعّدة كانت قد استراحت عليها الندوب

في إحدى محطات أزهار اللبلاب الخاطفة.

إغارة على القلب

أمعن في الضوءِ باللحظة التي اشتعل فيها الظلام

وكنت تود أنت البقاء فيه

لا أتطلّع إليكِ لأنفذ بجلدي

أنت الطفلة اللعوب

قلبي صلصال منبسط في طريق الحب

ورقتي الخريفية التي سقطت من صدري

تستديرين وتنظري حين أمضي

عيناكِ رصاصة

الظهر جرحُ طلقك الناري

الثقب في الصدر شاهدٌ على الوقت

وعندما يتعلق الأمر بالأسئلة المحرجة

فأنت تميلين غالباً إلى التخلص من مسؤولية هذه الغارات "النظيفه" على قلبي دون إراقة الدماء دون عنف

لأنني لست شجرة تفقد أوراقها فحسب؛

أما إذا كان بإمكاني اعطاء شخص ما نصيحة

فهي أن لا يقع في الحب أثناء اي غارة على القلب كانت

هذا لا يجلب الا سوء الحظ.

حينها فقط

هذا المسمار لن يصمت في لحمي حتى تكف الأحلام

عن انصهارها الأُفقيّ بين الجدران

وتبتل التربة حتى الجذور في مياه الأمنيات

وتنبذ الأرض الجرداء جفافها المسن بإقبال متجدد

وتتماهى هي بإطلالتها الجديدة الراشدة

حينها .. حينها فقط

يكف الليل المغتر بنفسه عن نخر عظام الروح ونفسها المتعب

حينها فقط ستتسارع الابتسامات المتباينة عبر الهضبات الى أفواه المحبين.

أوراق القصة

ترميم

سلوى زكزك

كاتبة وقاصة سورية حتى النهاية

في بلاد الجوع، لا تسكن عند المحطة الرئيسية للحافلات المتجهة نحو كل جهات المدينة، ولا عند مواقفها الفرعية، لا تحاول إحصاء عدد الواقفين على المحطات.

لا تنظر من نافذتك إلى الشارع المكتظ بالنعاس والتعب والضياع، لا تجلس على شرفتك لتشرب قهوة الصباح، ستفتقد طعمتها الحقيقية! وستصير قهوتك حنظلا بفناجين أنيقة.

السادسة صباحا، جلبة ساخطة وشتائم نسائية، سيدتان عابرتان نحو مركز عملهما، انكسر كعب حذاء الشابة، صرخت حين التوت قدمها ومال جسدها وكادت أن تقع، خلعت حذاءها ذو الكعب البلاستيكي المشغول بطريقة الصب، قالت لمرافقتها: ما في أمل! وفي محاولة يائسة لتثبيته، تبقى في يدها أكثر من نصف الكعب، قضي الأمر إذن.

عامل النظافة مشغول بتسجيل أرقام السيارات الواقفة بمحاذاة الأرصفة، لم يعنِ الحدث له شيئا، وربما تحتفظ ذاكرته بمئات القصص المشابهة، المهم بالنسبة له أن الحادث طبيعي ولا مبررات لأي ارتياب أمني، مجرد كعب حذاء ينخلع أو ينكسر أو يضيع لا فرق، بنظرة شمولية وحاسمة، قيّم وحفظ في سجله العملي توصيف الحادث، لا شيء يدعو للقلق، وتابع تسجيل أرقام السيارات مع إضافة بعض التوصيفات أمام بعضها كاللون، أو عبارة (غريبة).

طفل يجمع القمامة من حاوية كبيرة، قصير القامة ونحيلها، جمع ما يعتبره ذا قيمة من على أطرافها، ثمة كيس يغريه بالنزول في قلب الحاوية، حاول تسلقها مرات متتالية، لكنها فجأة مالت وكادت أن تدهسه، في لحظة تشبث بالحياة أو ربما مجرد ضربة حظ قفز كفأر خائف وسقطت وهو بعيد عنها بمسافة تبلغ أقل من حجم كفه الضئيل، كانت الحاوية قد فقدت أحد دواليبها، فمالت وسقطت بفعل عدم التوازن عندما حاول الفتى القفز بداخلها.



جلس على الرصيف مرعوبا، بان عري قدميه، كان حافيا! في يوم بارد من أيام كانون، طفل حافٍ! كيف وصل إلى هنا؟ وكم هي المسافة التي قطعها على جلد قدميه المتقرنتين؟ لا شيء مهم، سجل عامل النظافة الحادثة على أنها عرضية وسخيفة ولا تدعو للقلق أيضا، وربما قال في قلبه: هذا هو الجزاء العادل لكل من يقاسمنا رزقتنا.

اجتمع على الرصيف شابة بحذاء كعبه مكسور، وطفل بلا حذاء، وعامل نظافة يتابع مهمته بحس عال من المسؤولية وبنباهة عالية، يقترب رجل منه، يسأله عن مطاطة! يضحك عامل النظافة ويقول: أتريدها نظيفة وسميكة لجمع رزمة الأموال الكبيرة التي في جيبك؟ كان يسخر! لكن الرجل لم يكن معنيا بسخريته، شكله يوحي بأنه لا يملك حتى أجرة الانتقال إلى نقطة أخرى من المدينة، يرفع فردة حذائه في وجه عامل النظافة، حذاء أسود قديم ذابت كل أطرافه وخاصة كعبه، لكنه قرر اليوم فتح مقدمته، ربما قرر التحرر من قبضة قدم الرجل الخشنة، بدا الحذاء كفم تمساح لابد من إحكام ربطه بمطاطة لاكتفاء شر أنيابه، كان الرجل مضطرا لربط مقدمة حذائه لمواصلة السير نحو شقاء لا يكل ولا يمل.

فكت الشابة صاحبة الكعب المكسور وثاق كيس تحمله في حقيبتها ومنحت مطاطة شعر عريضة بيضاء اللون للرجل صاحب الحذاء المفتوح، ربط بها حذاءه، ضحك الجميع حتى عامل النظافة، قالت السيدة المرافقة بلهجة ساخرة: (بدو بكلة شعر ألماس)، بدت مقدمة الحذاء المحاطة بمطاطة بيضاء وكأنه غرة لامرأة ربطت شعرها القليل وينقصها شكلة شعر ماسية قد يعوض لمعانها عن ضآلة حجم غرتها.

سأل الرجل صاحب فم الحذاء المربوط الشابة عن مشكلتها، أرته الكعب المكسور وشبه المعلق بفردة حذائها، أخرج نصلا حادا من جيبه، قطع الكعب، شهقت خوفا، أسكتتها شريكتها قائلة: (أصلا خالص عمرو)، طلب الرجل فردة الحذاء السليمة، وضعها ملاصقة للفردة مقصوصة الكعب، بحركة معلم خبير علّم بالنصل على حدود الكعب السليم، رفع الحذاء وقص كعب الفردة السليمة بمستوى العلامة، منح الحذاء للشابة قائلا بزهو: (صاروا نفس المستوى ونفس الارتفاع).

طلب الفتى جامع القمامة النصل الحاد من الرجل بذريعة حاجته لفك وثاق الكيس الذي أغراه للنزول في قلب الحاوية، رفض الرجل قائلا: ما زلت صغيرا جدا لتحمل (كندرجية) قد تقتل بها رجلا! أمره بجلب الكيس وفك له وثاقه بخفة بالغة.

سارت الشابتان نحو عملهما الذي تأخرتا عنه، والفتى هلل فرحا لما وجده في الكيس، قال محدثا نفسه: (قلبي قلي إنه كيس محرز)! جمع كل محتوياته المؤلفة من قدور معدنية تبدو جديدة ولامعة وابريق نحاسي اللون، جمعها في كيسه وركض سعيدا مسلما قدميه لقساوة الطريق.

اقترب عامل النظافة من الرجل حامل النصل الحاد، قال له بلهجة استعلائية:(بتعرف أن حكم حيازة الكندرجية قد يصل لسنتين؟) ضحك الرجل باستخفاف وأكمل طريقه متجاهلا وجود عامل النظافة كلياً، أخفى النصل الحاد في جيبه، قال في نفسه: سنتين في مكان دافئ ووجبة طعام واحدة أفضل من المؤبد الذي نحياه.

في صباحات بلاد الجوع، لا تتابع وجوه البشر وحكاياتهم ولا أقدامهم، كل عمليات الترميم ليست إلا وجعاً مضافاً لقائمة الآلام القاهرة، أغمض عينيك ما استطعت، أغلق ستائر نوافذك، وانس الشرفات لأنها عيون لاقطة للألم المباح، والبوح صرخة ذعر، لقطة خاطفة لتبادل خدمات ترميم غير مجدية، الصباح ليس مجرد كلمات ممزوجة بالقهر، سيبدأه الكثيرون بالشتائم، بصرخات الذعر، بفقدان القدرة على متابعة السير، الصباحات في بلاد العجز ليست إلا نصلا حادا ينغرز في القلب، يدميك وفوق الوجع حكم باسم القانون على اقتناء الجرح.

دمشق 7 كانون الأول 2021

وذهبتُ إلى العراق ..

موفق قره حسن

لقد كنت في دمشق حينها، ولم أعد أذكرُ أين كنتُ أقف على وجه التحديد، متعباً .. مرهقاً بعد سهرةٍ طويلةٍ.. رافعاً سبابتي .. مشيراً إلى تكسي قادمة من بعيد:

– على شارع بغداد معلّم؟

– طلاع.

نعم، كنتُ أقيم حينها في شارع بغداد في بيت دمشقيّ قديم، هو أشبه "بقارورة العطر" كما قال (نزار قباني) واصفاً بيته، وصعدتُ التكسي وانطلقنا.

كان السائق –ولمحضِ الصدفة– يضعُ أغنية عراقيّة تراثيّة، والتي تقول في مطلعها (عونك يا وطن يابو الحضارات)، ولِأنّني أحسب نفسي شاعراً، ومهمة الشاعر "أن يبكي وردة تموتُ في آخر العالم"؛ هوت دمعتي وأنا أتذكّر مظفّر النواب ووجعه مع المنفى، أتذكّر قصائده وحزنه مردّداً قوله "شباكِ في الشامِ وشباكيَ بغدادُ"، أتذكّر لياس خضر ومطولاته الحزاينيّة، وليلة سقوط بغداد، والأميركي الجبان، والمواطن العراقي الذي أسقطَ طائرةً أميركيّة ببندقيّة للصيد، كانت جلّ ما أسقط في الحرب وقتها، ومحاكمة صدام حسين، فعلى الرغم من كرهي له ولكنّني قلتُ إنّه يجب أن يعدم رمياً بالرصاص كما يليق بعسكريّ، لا شنقاً صباح عيد الأضحى، تذكرت أصدقائي العراقيين (محمد الشمري).. (ومحمد المغربي).. أين هم؟ ماهي أخبارهم؟ هل عادوا إلى العراق؟ أم أنّهم ما يزالون في سوريا؟ أم أنّهم اتجهوا إلى القارة العجوز؟ هناك حيث يستطيعون أن يعيشوا في عراق آخر، ولكن دون دجلة، دون كركوك، ودون الموروث الثقافي العباسي، ودون أن يكون هنالك أثرٌ لحوافر جيوش المغول، وهوت دمعة أخرى

والسائق يشاهد حزني الكبير ولكنّه لم يكتفِ بهذا القدر بل رفع مستوى الصوت أكثر وأكثر وهو يضرب على الدركسيون متأثّراً ومتمتماً مع الأغنية كلماتها.



كم أحسدكم أيها العراقيون على هذا الحزن! على هذه المشاعر الفياضة! لو أنّني كنت عراقيّاً مثلكم، لو أنّني شاطرتكم وجع التجربة، وألم الشتات؛ فتجربتي الشعرية ستكون أغنى بكثير، كيف لا أكون عراقيّاً؟ وأنا الذي استمعتُ إلى (سعدون جابر) مراراً، وحفظتُ أشعار (السياب) عن ظهر قلب، ودرست أبا نواس تراجم ونقداً، والسائق بدأ يترنح ويميل برأسه ذات اليمين وذات الشمال، والمطرب يصرخ (بكيت لوحدك ما حدا بكى وياك)، لا بدّ وأنّه من الشعب العراقي الحزين في منفاه الآن، وربّما ترك حبيبة هناك، ولا بدّ من أنّه شاعرٌ أيضاً؛ فكما يقولُ (لقمام ديركي) "بأنّك إن تسأل أي عراقي عمّا يفعل في حياته يُجِب: شاعر ..كاتب .. ماجستير بالإخراج المسرحي من بلغاريا"،

نعم، لا بدّ وأنّه شاعر، ولو أنّني أحفظ شعري أو أملك دفتري لكنتُ أخذت رأيهُ بقصائدي؛ فمن المؤكّد أنّه شاعرٌ فَذٌّ عراقيٌّ أصيل.

ولوهلة عدتُ إلى وضعي الطبيعي بعد أن جفّت دمعاتي التي أهرقتها في سبيل حبي للعراق، إلا أنّ السكرة ذهبت وأتت الفكرة، فقد انمقتّ وبت أحسّ بالضجر؛ يعني راجع من السهرة مبسوط انضرب أبو المزاج، وهنا فقط بدأ الصراع.. كيف سأسكتُ المذياع؟ فكما أعرفُ أن الشعب العراقي شعبٌ حساسٌ جداً، وأخافُ لو طلبتُ منه أن يسكتهُ أو أن يوطي الصوت أن يحسّ بأنّني أتنمّر عليه، كيف لا وهو الشاعر العطوف المرهف جياش المشاعر ومترف الحنان والحنين لعراقه الحبيب، والذي يكسب قوته ليطعمَ أولاده الجياع .. لا لا يا موفق لا عشتَ لتفعل هذا.

ما هي إلا لحظات قليلة حتى بدأ الصداع ينخر رأسي، بحق لم أعد أقوى على سماع همسة واحدة من (حسام الرسام)؛ أي المطرب الذي يسلخ الموال والذي وصل فيه إلى مراحل التصعيد والجوابات أكثر من الرز؛ يعني الصوت اخترق طبقة الأوزون، فما بالكَ بطبلة أذني عزيزي القارئ؟ وبينما كان موفق الشاعر الذي في داخلي يقول لا، كان لساني يصرخُ بأعلى صوت: حضرتك عراقي معلّم؟ قال لي بلهجةٍ شاميّة والتي تدلّ على أنّه شاميٌ أباً عن جد؛ فالياء التي نترني إياها وصلت إلى العراق: لا والله شامي، فأجبته باللهجة الحمصيّة القديمة والتي توحي لمن يسمعها بأنّني حجرُ أساسٍ من حجارة باب الدريب السود: لَكن طقّيلي هل المسجلة يرحم أبوك، وعدتُ إلى المنزل الذي يشبه "قارورة العطر" كما قال (نزار قباني).

2020/09/21

أوراق النقد

صورة الإرهاب في ثلاث روايات: دراسة في الأنساق الثقافية المضمرة لنماذج روائية مختارة

رواية (فاليوم عشرة) للكاتب العراقي خضير فليح الزيدي استدلالاً عن إرهاب التنظيمات

رواية (إرهابيس) للكاتب الجزائري عزّ الدين ميهوبي استدلالاً عن تاريخ الإرهاب وفكره

رواية (كتاب رجل وحيد) للكاتب الصيني غاوكسنغجيان المترجمة إلى العربية استدلالاً عن إرهاب الدولة



آلاء ياسين

دكتوراه في النقد الأدبي

الملخص:

*يتكون البحث الحالي الموسوم ب**(دراسة في الأنساق الثقافية المضمرة لنماذج روائية مختارة تناولت قضية الإرهاب)** من أربعة مباحث، اختصّ المبحث الأول بالإطار*

المنهجي والنظري للبحث، وقد تلخصت مشكلة البحث بالتساؤل الآتي: كيف جسّدت الرواية ملامح الإرهاب، متمثلةً ضحاياه وجُناته؟ كيف صوّرت البعد الإنساني في مواجهة الإرهاب وانعكاساته لبناء موقف فكري شكّل مرجعية ضاغطة اعتمدّتها؟ كيف تمثلت الاعتداءات بحق الضحايا وقولبتها في خطاب سردي متفرد في خصوصيته وموضوعه وأسلوب عرضه؛ لتفعيل الموقف الجمالي في التصدي للإرهاب؟ وكان هدفَ البحث كشف ملامح الإرهاب في نصوص روائية مختارة. في حين اهتم المبحث الثاني والثالث والرابع بدراسة ملامح الإرهاب في الروايات المختارة.

*وكانت أهم النتائج: أنَّ الأدب أمام الإرهاب يمثل عنصراً إشهارياً وإعلانياً، كونه يلتقط عشوائية **العمل الإرهابي** وسرعته وغفلة إدراك تفاصيله والهروب منه ويعيد طرحه ببطء وبثبات بلغة محكية، فيتيح للمتلقي فهم أبعاده ومعانيه التي تناساها بفعل الألم والحزن والرعب ورؤية ما لا يمكن أن يراه كأثر عنيف وتخريبي.*

كلمات مفتاحية: النقد، الثقافي، الرواية، الإرهاب، الأنساق الثقافية.

مقدمة:

حاولت الرواية العربية في تمثلها للقضايا المصيرية والإنسانية كضحايا الإرهاب أو كمواجهة الإرهاب، نقل المعنى بعمقٍ من دون تحفظ؛ لذا فالروائي ينتقي الموضوع في أظهر تمثّلاته مأساويةً وأشد معانيه ألماً من خلال الانتقاء والحذف، وتخيل الحدث المؤثر عاطفياً وتقديمه بصورة يجعل فيها المتلقي أشد خصوم الإرهاب ثورةً وثأراً من خلال رفد الموضوع بدلالات مؤثرة في النفس تصلح لكل زمان ومكان؛ فضحايا الإرهاب هم متشابهون في معاناتهم، والإرهاب ليس له وطن محدد وتهديد الإنسان بوجوده، تشهد عليه أحداث التاريخ قديماً وحديثاً، فالأدب يَسمُ الأحداث بالديمومة والبقاء.

المبحث الأول: الإطار المنهجي للبحث

اتبع البحث المنهج الوصفي التحليلي في الروايات المختارة؛ إذ نجد الأدب يتصدى لتناول الواقع المأزوم، ويتخذ موقفاً فكرياً مناهضاً لجرائم الإرهاب.

1. أهمية البحث

تتجلى أهميته في سعيه لكشف ظاهرة من أهم الظواهر على الساحة المعاصرة، وهي الإرهاب التي عانت منها المجتمعات جميعها والتي دأب كثير من الروائيين على توظيفها في خطابهم السردي بصورة يمكن من خلالها تسليط الضوء على أسبابها ودوافع مرتكبيها؛ لاستيضاح البعد النفسي والاجتماعي وراء شخصية الإرهابي، ومن ثم حجم الكارثة على حياة الضحايا وذويهم.

كما يمثل هذا البحث إثراءً ورفداً للأبحاث حول الإرهاب، ولاسيما المقاربات التي تربط بين الأدب والسياسة، فالأدب كونه سلاحاً إعلامياً، يقدم ترضية أخلاقية، ويكشف عن نوع من المسؤولية المجتمعية تجاه ضحايا الإرهاب وذويهم؛ كونه يؤرخ الجرائم في الذاكرة.

2. مصطلحات البحث

2_1: النقد الثقافي

يعود تاريخ المصطلح إلى عام 1964م، حيث شرع مركز الدراسات الثقافية المعاصرة بجامعة برمنجهام بنشر صحيفة أوراق عمل الدراسات الثقافية التي تناولت مواضيع ثقافية عدّة(1). غير أنّه لم يتبلور منهجاً إلا مع الناقد الأمريكي (فنست ب لتش)، فكان أول من أطلق مصطلح النقد الثقافي على نظريات **الأدب ما بعد الحداثة**، وذلك في كتابه الصادر عام 1992م، والذي اهتم بدراسة الخطابات في ضوء التأريخ والاجتماع والسياسة والمؤسساتية ومناهج النقد الأدبي (2)؛ إذ ربط بين النص والاتجاهات الأخرى في العملية النقدية الثقافيّة ، فقد حمل رؤية خاصة، ولاسيما في

التعامل مع النصوص الأدبية والخطابات بأنواعها عبر أنساق ثقافيّة، تستكشف ما هو غير مؤسساتيٌ وغير جماليٌ (3)؛ أي إنّه أكد خصوصية الأنساق المضمرة في النص الأدبي.

ويحدد آرثر أيزربرجر النقد الثقافي بأنه: "**نشاطٌ وليس مجالاً معرفياً خاصاً بذاته ....هو مهمة متداخلة، مترابطة متجاوزة متعددة؛ إذ بمقدوره أن يشمل نظرية الأدب والجمال والنقد؛ فضلاً عن التفكير الفلسفي، وتحليل الوسائط والنقد الثقافي الشعبي، وبمقدوره أيضاً أن يفسر نظريات بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصيغه، ما هو غير رسمي وغير مؤسساتي ومجالات علم العلامات، ونظرية التحليل النفسي، والنظرية الاجتماعية الأنتربولوجية (4)** ".

ولعلّ أهمية النقد الثقافي تكمن في جرأته وإمكانياته على التجدّد والإنتاج؛ إذ يواكب روح العصر، ويستلهم الواقع؛ لذا يحتاج إلى تأنٍ ودقة وعمق ومراجعة جادة، وهذا ما جعل النقد الثقافي يُعدّ نشاطاً فكرياً "**يتخذ من الثقافة بشموليتها موضوعاً لبحثه وتفكيره ويعبّر عن مواقف إزاء تطوراتها وسماتها(5)**"، فلم يكن بديلاً عن النقد الأدبي بقدر ما كان محاولة منهجية تتمحور حول استكشاف الأنساق الثقافية المضمرة؛ فضلاً عن كشف حيل الثقافة التي تتمارى في البوح عن كشف الأنساق الخفيّة، سواء أكانت تلك الأنساق مهيمنة أم هامشيّة، ولعلّ الحيل الجمالية البلاغية شكلت إطاراً قِناعيّاً تنطوي تحته تلك المضمرات الثقافيّة (6).

فالنقد الثقافي مصطلح معاصر يرتبط بتوجهات ما بعد الحداثة (7)، وقد برز هذا التوجه منذ سبعينيات القرن العشرين، ويؤكد أتباع هذا الاتجاه أن النقد الثقافي ليس منهجاً واضح المعالم محدد الأركان والزوايا؛ بل هو طريقة في القراءة تعتمد على الجمع بين كل الآليات العلمية والفنية والثقافية والفلسفية وعلى التحليل النفسي وعلى الأنثربولوجيا وعلم الاجتماع وغيرها من العلوم، هذا التوجه يتفق مع النظرة الثائرة على الثبات والتنظير الذي حاول تأطير الحقائق والمناهج في فترة الحداثة الغربية.

كما نوّع النقد الثقافي في أساليب القراءة وآلياتها وأوجهها، فقد تنوعت مجالات عمله، فشملت المجالات التقليدية للثقافة والمعرفة مثل الدراسات الاجتماعية والاستشراق، وكذلك الإشكاليات التي تواجه الإنسان المعاصر مثل الثقافة الإعلامية المرتبطة بالصوت والصورة ...لذا نجد تداخلاً بين مصطلح النقد الثقافي، ومصطلحات مثل التأريخانية الجديدة، ونقد ما بعد الاستعمار.

وتتجلى أهمية النقد الثقافي في أنه "**فرعٌ من فروع النقد النصوصي، وبالتالي فهو أحد علوم اللغة وحول الألسنية معني بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصيغه، وما هو غير رسميّ وغير مؤسساتي وما هو كذلك سواء بسواء...وهو لهذا معني بكشف لا الجمالي، كما هو شأن النقد الأدبي؛ وإنمّا همّه كشف المخبوء من تحت أقنعة البلاغيّ الجماليّ (8)**"، إذ تجعل من الاستقراء يأخذ على عاتقه الكشف عن خبايا النص للوصول إلى رؤية حداثية، تستمد معطياتها من المرجعيّات الثقافيّة الذاتية، حتى أصبحت مهمة الناقد الثقافي مختلفة عمّا كانت عليه_ في النقد الأدبي_ ليعتمد على الأنساق المضمرة وربطها بالمرجعيات الثقافية، الفكرية، والتاريخية، والاجتماعية، والنفسية، والأخلاقية والجمالية؟

2_2: الرواية

يقول روجر آلن: "**الرواية نمط أدبي دائم التحول والتبدل، يتسم بالقلق بحيث لا يستقر على حال (9)**"، وفي السياق ذاته يؤكد باختين واصفاً الرواية بأنها: "**المرونة ذاتها، فهي تقوم على البحث الدائم وعلى مراجعة أشكالها السابقة باستمرار، ولابدّ لهذا النمط الأدبي من أن يكون كذلك؛ لأنه إنما يمد جذوره في تلك الأرضية التي تتصل اتصالاً مباشراً بموقع ولادة الواقع (10)**"؛ لذا ليس من قبيل المبالغة أن يقول الناقد جون كبريس متحدثاً عن إشكال تعريف هذا الشكل الإبداعي الأدبي: "**للرواية قدرة على امتصاص كل اللغات والانبناء على أي بنية من بنيات الواقع، الاجتماعي أو النفسي؛ لذا ينظر إليها بوصفها جنساً أدبياً يستحيل سيمانطيقيّاً وجمالياً (11)**".

حتى المقاربة التصنيفية لأنماط الرواية تعترضها عوائق عدّة؛ لأن النماذج الروائية تبلغ من التعدد والكثرة حداً يعسر معه العدّ والحصر؛ وقد تبدى هذا التعدد منذ أولى مراحل تطور الفن الروائي.

2_3: الإرهاب

اصطلاحاً: التخويف terrorism أدخل هذا المصطلح إلى مجال النقد الأدبي من قبل الكاتب الفرنسي جان بولان، ويستخدم لوصف أسلوب الكاتب الذي يقيم حججاً لا أخلاقية وعدوانية وعادةً ما تكون متحيزة للرجل ضد المرأة **(12).**

وورد في معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، الإرهاب: "**إيديولوجية أدبية تتأسس على رفض البلاغة وحجب عمل الكتابة، وقد استعمل ج. بولمان الاصطلاح كحجة على تخلف البلاغة، والإرهاب الفكري إرغام على تبني أطروحات ثقافية مخالفة (13)** ".

وفي موسوعة السياسة نجد أن الإرهاب يعني "**استخدام العنف غير القانوني أو التهديد به بأشكاله المختلفة كالاغتيال والتشويه والتعذيب والتخريب والنسف؛ بغية تحقيق هدف سياسي معين، مثل: كسر روح المقاومة والالتزام عند الأفراد وهدم المعنويات عند الهيئات والمؤسسات أو كوسيلة من وسائل الحصول على المعلومات أو المال، وبشكل عام استخدام الإكراه لإخضاع طرف مناوئ لمشيئة الجهة الإرهابية (14)**".

إذن الإرهاب هو: استخدام العنف بطريقة لا يشرعها القانون والدين لإخضاع الطرف الآخر وإرعابه؛ لتحقيق مصالح دينية أو سياسية، حيث تستخدم استراتيجيات منظمة أو عشوائية، تطال الأبرياء وتخلف ضحايا، وتهدم البنية التحتية للدولة.

2_4: الأنساق الثقافية

تقف إلى جانب النقد الثقافي، ظاهرة الأنساق الثقافية التي أشار إليها الغذامي، والتي اصطف إلى جانبها الكثير من النقاد الذين آمنوا بها أو تبنوها، فهي بكل بساطة

دلالات اجتماعية، أخلاقية، دينية، جمالية...إلخ يفرضها الوضع الاجتماعيّ وتحظى بقبول المتلقي، وليس هناك للنسق الثقافيّ ثبات واستقرار؛ إذ يتحقق في نصوص محددة تسعى إلى النهوض بالموروثات والأعراف عبر مفاهيم المرجعيّات النخبوية، التي تضمّها جميعاً كلمة (الأنساق)؛ إذ تستعمل" **كثيراً في الخطاب العام والخاص، تشيع في الكتابات إلى درجة قد نُشوّه دلالتها (15)**"، والغذامي بذلك يؤكد فاعليّة تلك الأنساق وأهميتها، إلى جانب تأكيده على توضيح تلك المضمرات وتفسيرها وربطها بدلالة الخطاب بدون تناقض. ويشير نيكلاس لومان إلى الأنساق؛ محاولاً ربطها بواقع الإنسان الاجتماعي، وهذا واضح من خلال سؤاله: "**كيف يمكن أن نتمثّل جسم الكائن بشكل منفصل عن البيئة المحيطة، ويكون منغلقاً رغم حاجته لكل ما يجري ببيئته، لكي يتمكن من الاستمرار في الحياة (16)**".

فالبيئة تفرض نفسها على النص، وهذا بدوره يولّد التأثر المباشر أو المضمر عبر نسق تتضمن فيه نقطة مركزية لها خصوصيتها الدلالية، ويؤكّد نيكلاس لومان إلى أنّ الأنساق: "**تعتمد وتؤسس على التميّيز بين النسق والبيئة، أي على خط ورسم الحدود بينهما، حيث تتشكّل بيئة النسق من كل ما عداه! وليس المقصود هنا بالبيئة الطبيعيّة وحسب، بل كل البشر من حوله وكذلك كل الأنساق الأخرى استناداً إلى هذه الرؤية يمكننا تحليل كيفية قيام الأنساق (17)**"، فالنسق يعكس طبيعة النص ويبيّن مدى أهميته وقيمته، إذ يفرز النسق المضمر نمطاً أدبياً جديداً تكمن آلياته بالنتاج الجديد للمعنى (18).

المبحث الثاني: دراسة ملامح الإرهاب في رواية فاليوم عشرة

يسلّط البحث الضوء على الهوامش الثقافية في الحياة العراقية منطلقاً من حياة القاع العراقية كنمذجة لصورة الوجع العراقي من خلال سلسلة الانتكاسات والأزمات التي مست الذات العراقية في صراعها مع الآخر حيناً، ومع الذات حيناً آخر.

تضعنا الرواية أمام احتمالات قراءاتها المتعددة؛ بوصفها بؤرة سردية للعديد من الإشكالات الدافعة للكشف عن وجوه أخرى للحياة، فلا يمكن انتزاع الرواية من الحاضنة السياسية، والاجتماعية، والثقافية التي تشتبك بها، فالروائي منبثق من مرجعيات ذات سياق ثقافي، ديني، اجتماعي، إثني، سياسي، ومن ثم فإن الكتابة تجسد منظور كاتبها؛ كونه منظوراً يقوم على القصدية أحياناً والكشف والإجهار والإشهار أحياناً أخرى بحثاً عن معان كامنة وأنساق مغيبة أو مسكوت عنها، هو نوع من استكناه مكامن البوح عبر وعي الشخصية لذاتها ومجتمعها من خلال إزاحة المألوف.

ففي رواية خضير فليح الزيدي (فاليوم عشرة) موضوع هذا المبحث، تتضح فاعلية النص من خلال إدراك سرديات النص الروائي، فهناك تحريض على تقصي مكامن النص وحمولاته الرمزية والدلالية وطبيعة تعالقاته المتبادلة بين الوقائع والشخوص والتاريخ بمستوياته الزمنية، والرواية العراقية بمرجعياتها النفسية والثقافية والاجتماعية والأيديولوجية خضعت لهذه التفاعلات وهي تعيش تمظهراتها داخل البنيات المفتوحة للأنساق السردية.

إن القراءة الناقدة تضعنا أمام إشكالية البحث عن الأنساق الثقافية في الرواية. "**والنسق هنا من حيث هو دلالة مضمرة، فإن هذه الدلالة ليست مصنوعة من مؤلف ولكنها منكتبة ومنغرسة في الخطاب، مؤلفها الثقافة ومستهلكوها جماهير اللغة من كتاب وقراء (19)**"

فالقراءة توجهنا بنوع من القصدية إلى شغف الكشف عن الوقائع والوثائق بما فيها وقائع الحرب المضمرة بمستوياتها السياسية والاجتماعية، ووقائع أنساق القاع العراقي المخبوءة في ثنايا السرد، فيحيد نظر القارئ من متابعة حياة شخصيات الرواية إلى أرشفة مريرة للواقع العراقي.

1) **ثقافة الفضاء التدميرية:** يؤكد الزيدي مسار الروائي في قراءة الهوامش في المجتمع العراقي، ويقوم المعجم اللغوي لشخصيات الرواية على أشياء هي ناتج أنساق الثقافة

في المجتمع العراقي بعد عام 2003 من انفجارات وإرهاب سلطوي وسياسي وإباحة المحظورات من حبوب مخدرة وشذوذ وأماكن موبوءة. والرواية في منجزها الأدائي تناظر الأداء المسرحي في استقصاء الروائي لمشاهد مهمة موغلة في البؤس والألم من الحياة العراقية، إذ تميل الرواية إلى تقنية التشظي، فليس هناك حدث متسلسل يتنامى ويتطور درامياً معلناً نهاية الرواية بل يبدأ النص من نقطة تلاشيه وانتهائه معلناً عودة **سلام الوافي** الشخصية الرئيسة في الرواية والتي نتلقى الأحداث من خلالها ونتعرف بقية الشخصيات في الرواية من خلال حوارها مع نفسها أحياناً بطريقة الاستذكار أو من خلال حوارها مع الشخصيات الأخرى، إذن يبدأ النص معلناً عودة سلام الوافي بتقرير مصور عن فلم وثائقي إلى وكالة (جو الفرنسية) الأخبارية معلناً خطاب الرئيس والخليفة في آن معاً.

ويأخذ النصّ مساره السردي بإعلان خطاب الرئيس المعلن بتاريخ جديد محدد **(10 /6 / 2014)**

بسم الله الرحمن الرحيم: أيها السيدات والسادة سنذيع بعد قليل الخطاب التاريخي للرئيس، إلى ذلك نسترعي الانتباه (20) "

مشيراً إلى تاريخ سقوط الموصل وبداية توغل حاضنة الإرهاب إلى الأراضي العراقية بدخولها الموصل دون إشهار لشخصية الرئيس أو تسميته؛ بل بإضمار لنسق سياسي مبطن، معلن في ولائه، مضمر في قصديّته. وفي نسقٍ موازٍ يصدح خطاب الخليفة القادم بسلطة الدين والمتسلح بمفاهيم الشريعة وأحكامها إلا أنه في الحقيقة قادم برداء الدين ومتبنٍ لسياسة القتل والتطهير العرقي تحت مسمى الدين والدولة الإسلامية والشرائع.

يبدأ الروائي حديثه بنسقين متضادين نسق الدولة المدنية ذات المرجعية المؤسساتية، والمتضمن تشريعات الحكومة العراقية ودستورها وقوانينها، ونسق الخلافة الإسلامية

المزعومة المشرّعنة لظاهرة الخلافة القديمة والخليفة القائم بأمر الله؛ مؤسسة دولة ترتّد لمتحف التاريخ، ومؤسسة دينية ذات شرعية تاريخية_ عقائدية.

يبدأ الخليفة خطابه بنبرةٍ كهنوتية مستدرجاً مشاعر الناس "**بسم الله الرحمن الرحيم: إلى المؤمنين كافة. هلمّوا إلى الصلاة خفافاً إلى جامع النور الكبير، سيخطب الخليفة_ أطال الله في عمره _في الجمع المؤمن بعد قليل (21)**".

وفي الوقت الذي أفرد الفلم الوثائقي الذي عرضته القناة الفرنسية France 24 arabi مساحة لكلا الخطابين إلا أنه لأسباب غير معلنة، ومن وجهة نظر الشخصية الرئيسة في الرواية "**لم يتوغل في تفسير أو نقل خطاب الرئيس الذي بث عقب الانسحاب، في المقابل أفرد مساحة جديدة بغزل واضح لخطبة الخليفة في مسجد المدينة المحتلة** (22)".

وفي عرض الروائي لنسق النهايات في بداية الرواية، ممثلاً بسقوط الموصل وامتثال القيادات العسكرية لهذا الأمر؛ قد أفصح عن الخلفية الثقافية التي ترتكز عليها الرواية في تبنيها لمشروع الأزمات والنهايات التي تطال أحداثها وشخصياتها "**حيث يندس الإيديولوجي في المشهد؛ ليؤدي دوراً أساسياً في إنتاج الفضاء الروائي وفي إنتاج المعنى (23)**".

تبدو أزمة المكان في الرواية جزءاً من أزمة الشخصية؛ لأن الشخصيات في الرواية تعيش أزماتها الوجودية واغترابتها الداخلية تحت هاجس متاهة المكان وفوضويته؛ متمثلاً بالوطن كتكوين مؤسساتي لا بجغرافيته المعلنة، إذ هوت أغلب قيم الوطنية والمواطنة والهوية وتحول إلى وطن غير صالح للاستعمال أو الاطمئنان.

تدور أحداث الرواية حول عودة الشخصية الرئيسة في الرواية (سلام الوافي) والذي يعرف عن نفسه "**أنا سلام محمد عبد الله الوافي، أنا الأخ الأصغر للعقيد غسان بطل الانسحاب الأكبر، جئت إلى بغداد في يوم 14 حزيران من عام 2014 بعد خطاب**

الرئيس بثلاثة أيام، صادف أنه يوم سبت، بعد غربة قاسية، مبتعداً عن هموم وطن حبة العدس، استمرت لثمانية عشر سنة بالتمام، جئت بعد سقوط الموصل ومدن أخرى مباشرة على يد برابرة جدد، برابرة يتحركون بريموت كونترول (24)".

إيديولوجية العودة أنتجت بشكل معلن عملية تقشير للفضاء الروائي، فالفضاء العراقي ظهر بصورة مناقضة لمرويات المنفى وما ترويه أو تمارسه في طقوس حنينية للفضاء، وهذا ما يؤكده السارد حين عودته "**بغداد مدينة غير عادية مقلاة ساخنة، يشوى فيها البشر كل يوم، بغداد الآن غير بغداد الكتب الصفراء(25)**".

تعمد الرواية إلى فضح تشظي الذات العراقية على أعتاب حروب وويلات وحصار وهزائم وصراعات طائفية وتحولات سياسية واجتماعية، لقد نسف سلام الوافي المقولة التي تشير إلى أن العربي يصبح أكثر التصاقاً بوطنه، كلما ابتعد عنه مكرهاً وها هو ذا يصرح بذلك "**تبين أن الوطن ليس الأرض... كنت واهماً كثيراً، كندا قدمت لي على طبق من ذهب وطناً بديلاً محاطاً بالسلام والأرض والحنان، عادت لي إنسانيتي من دون مقابل، تغيرت النظريات الحماسية بخصوص فكرة الوطن أرض الآباء والأجداد هو مسقط رأسي (كلاوات عراقية) بمعنى وهم عظيم، مثلاً باسمه مات الكثير وسيموت المتبقون أيضاً (26)**".

يبنى السرد الروائي على جحيمية الفضاء الروائي من حروب وحصار وهزائم وموت جماعي وإرهاب واحتلال مدن وانسحاب، مفردات أصبحت مفاتيح روائية لكل روائي أراد الحديث عن التجربة العراقية مع الموت، ثقافة الموت التي شرّعنت نسقاً مضاداً لنسق الحياة، فالموت يحدث بكل الطرق، حروب، حصار، إرهاب، انفجارات، الموت أصبح فكرة عراقية رائجة "**الفكرة العراقية خالصة يا صديقي وغير مستلة من كتب التاريخ الإسلامي في الاستشهاد، أو في الموت الحضاري المشع ... نحن باختصار شعب الله المهمش لكل أنواع المآسي منذ انكيدو ليومنا هذا، حروب واحتلالات وقتل**

جماعي ومجاعات وحصارات وفقدانات، كل شيء وحسب ما تشتهي النفس من الضيم (27)".

هذا الفضاء الجحيمي وفي حيلة سردية من الروائي إلى الترويج في الرواية لرابطة (كفى) أو (رابطة الموت الجماعي) **(28)** بعد أن غدا الموت حالة طبيعية، هذه الرابطة تجعل من المنتمين لها يحصلون على الموت اختيارياً، وهذا ما حصل للعقيد غسان أخو أخي سلام الوافي؛ ليعلن نهايته المأساوية في انتحاره المعلن؛ للتخلص من شبح الهزيمة بعد الانسحاب من الموصل، فشخصية العقيد غسان بقيت تعيش عقدة هروبها وانسحابها، ويتحول هذا الهاجس إلى سلسلة من الإكراهات الداخلية التي يمتزج فيها الحسي مع المعنوي مع اللغوي التعبيري، فالعقيد غسان يعتزل الناس ونفسه في غربة داخلية من خلال لجوئه إلى الصمت، وهذا يعكس في الحقيقة موقفاً أو نسقاً ضمنياً، يمليه العجز والاحباط وثقل المنفى الداخلي العميق، فكان موته بطيئاً غير معلن وتعبيراً عن واقع يعيشه الناس، إذ يفرض الوضع في عراق ما بعد 2003 وما بعد سقوط الموصل تحديداً مأزقاً ذاتياً تعيشه الشخصية العراقية في علاقتها بالقيم والواقع والذاكرة. يمثل العقيد غسان أيقونة الحيرة العراقية الواقعة بين سلطة الواقع السياسي وسلطة الذات، وهذا ما جاء على لسان بطل الرواية سلام الوافي "**فالعقيد يمثل لي رمزاً لعراقيتي المهدورة التي بددتها السلطات المتعاقبة والمنتهكة من الآخرين خاصة عندما غدا البلد مجرد خريطة تقرض فيها الفئران لتكون كحبة عدس شاحبة** (29)".

نحن إذاً أمام نص روائي يفتقر إلى خطة سردية، تنتظم أحداثه ووقائعه ضمن نفس حكائي واحد، فالذات الساردة لا تستوقفها الوقائع بقدر انصياعها إلى مأساوية عالم منحط منكفئ على ذاته (30)، لا نقرأ فيه سوى الأنقاض، أنقاض المدن، والإنسان والأشياء.

2) التقانة وأثرها على النسق: عودة بطل الرواية (سلام الوافي) من كندا إلى العراق؛ لتسجيل فلم وثائقي عمّا يجري في العراق لصالح وكالة جو الفرنسية، أنتج عملية تعرية

للفضاء والبيئة العراقية بصورة محلية، فإنتاج الفلم التسجيلي داخل الرواية أصبحنا أمام **ميتا الرواية** من خلال بث الحقائق والأرقام والشخوص والأمكنة في صورة بث تسجيلي، واستثمار الروائي لتلك التقنيات في عملية الكشف وإشهار المعنى، فالمعنى ما عاد محصوراً في تقانة القراءة وشخوصها المعنيين بل في الأشياء أيضاً **(حبوب الفاليوم و الهلوسة) "التي تنسي متناولها مدن النكبة في الموصل وبغداد والبصرة (31)**"، هي نقاط بوح وإجهار عن فساد المؤسسة السياسية والاجتماعية والدينية، كما صور الفلم لقطات من سقوط الموصل وتسليمها إلى داعش من قبل مجموعة من الضباط المتآمرين، "**الفلم الوثائقي الذي عرض بعد لحظة الإنكسار التاريخية عبارة عن ريبورتاج لقصة الانسحاب معمولاً بسياسة خبيثة** (32)"؛ بمعنى أن هذه الأشياء أصبحت شكلاً من أشكال الأنساق التي تحكم المؤسسة السياسية والدينية في المجتمع، وربما أراد الروائي من استخدام هذه التقنية، منح الشرعية والمصداقية لوجهة نظره.

ويبدو تأطير المشهد في الرواية بدءاً باستعمال تقنية C.D والفلم الوثائقي، وانتهاءً بمعاقرة حبوب الإدمان والهلوسة والترويج لها كنوع من الهروب من أزمة النكسة وسقوط الموصل، إنّه ببساطة على حد تعبير أحد الشخصيات "**إذا أردت اعتياد الوضع هنا إما أن تبلع أو تشلع** (33)".

وصولاً إلى الأدوار التي يمنحها الروائي للشاشة في تشكيل الصورة المؤسسة للمشهد، كما لو كانت الكتابة الروائية لا تكتفي بأن تجعل القارئ يشعر فقط؛ بل تحرص على جعله يرى أيضاً. ويتكلف السارد أولاً ثم الراوي العليم ثانياً الذي يسجل مناوبة مع السارد الرئيس في الرواية (سلام الوافي) عملية انشطار للمشاهد والتنقل بينها؛ بغية التركيز على صور معينة أو مشاهد في بنية النص الروائي، إذ يتوقف حيناً للحديث عن نفسه أو عن أحد الشخصيات في الرواية أو واصفاً لبعض الأحداث التي لا تعدو أن تكون صوراً لمشاهد تحدث يومياً في العراق، وكأني بالسرد كاميرا متنقلة تنقل مشاهد متنوعة يتم تجميعها بتقنية، واختيار هذه التقنية ليس مجرد لعبة جمالية مجانية

مفرغة من القصد في السرد، إذ ثمة أولاً نوع من التوثيق لنسق مضمر يتحرك دونما شعور يتغلغل في أعماقنا وفي فضائنا بحرية مكشوفة ومقصودة متوسلاً بالعمى الثقافي في مجتمعنا خصوصاً أن الصور التي جيء بها لا كسؤال بل (كجرح) غائر في مجتمعنا (الهزيمة)، (الفساد السياسي)، و(الفساد المجتمعي) متمثلاً بظاهرة الإدمان، فيرتقي الفضاء اليومي من مجرد تفصيل تلتقطه نظرة هشة إلى أعمق ما في الواقع من هشاشة تاريخية ووجودية.

3) **نسق العبث و مركزية اللاجدوى:** لقد كان للعبث حضوره المركزي في تشكيل الكثير من السرديات الحديثة، فجاءت في جانب كبير منها فوضوية الطابع تدميرية لكل انتظام، وقد كانت هذه التدميرية ضرورية لهدم واقع فقد شروط صلاحيته وتكوين واقع آخر بديل يخرج عن طبيعته المنتظمة إلى دائرة أوسع وأعمق، وفي ظل شتات الهوية والمواطنة وفوضوية الواقع، ظهرت الرواية العراقية الجديدة "**بعد التغيير متلائمة في شحوبها وملامحها القاسية من ناحية وصيحاتها ووحشتها المرة من ناحية أخرى مع شحوب ووحشية واقع الفرد العراقي الذي ما زال في بداية تعرفه إلى هويته الوطنية الجديدة التي لم تتضح معالمها بعد بفعل ضبابية الوضع العراقي الجديد، كما لم يتضح الدور الفعال الذي على الفرد العراقي تجسيده داخل مجتمعه الجديد بأحداثه وتقلباته إلا في وضوح دوره في لعب دور الضحية الذي أجاده بامتياز (34)**".

يتخذ الروائي من العبث واللاجدوى تقانات مركزية يشيد بها نصه الروائي، وقد كان للعبث حضوره المركزي في الرواية فجاءت ذات طابع فوضوي بفعل شخصياتها وأدائهم التدميري لأنفسهم ومجتمعهم، شخصيات نتاج واقع عراقي مرتبك وفوضوي، يعرفنا الراوي العليم عن شخصية أبو العوف "**أبو العوف هذا ليس بعثياً أو شيوعياً أو إسلامياً هو خلطة سحرية عجيبة لشخصية أفرزها الواقع ما بعد الموصل والهزيمة، سحنته لعنة الحياة العراقية بكل صلفها، وأنتجت لنا هذا الرمة (35)**".

وبذلك شيد الزيدي فضاءً استعارياً يستتر خلف الفضاء الواقعي، اتخذ من هوامش ثقافتنا العربية والأزمات التي تمر بها الذات العراقية أداة للاحتجاج على سلسلة الانكسارات السياسية، كي يقرأ خطاب الهامش، خطاب الصمت، خطاب الظل، فما عادت شعارات الوطنية والهوية تمثل الصدارة في أنساقنا الثقافية، لقد حلّ محلّها خطاب بديل، مضمر يتستر خلف رداء الثقافة والحرية الجديدة، معلن في إباحيته، مضمر في قصديته، فشرّعنة الإدمان والشذوذ ليس إلا نتيجة لتحلل مكونات مجتمع بأكمله ... مكونات ثقافية بيئية اجتماعية، فسقوط المدن، وانحدار مستوى القيم، وتشتت الولاء، والهوية المزيفة والمشتتة...كل هذا دفع بأنساق الثقافة البديلة إلى التغلغل، فأصبحت ثقافة متأصلة لمجتمع تتهاوى أركانه. لكن ظهور رواية بهذا المستوى من الفضح والكشف يُعدّ بحد ذاته تحدياً لنسق الرواية التقليدية أو الكلاسيكية وهي تكتب بصيغة جمالية صورة الوجع العراقي المزمن أو تؤرخ لأدب الوجع العراقي (36).

وقد يكون انحدار الأدب الروائي إلى هذا المستوى من السفه هو دليل ثقافي مضمر لانحدار الوطن المنتج لهذا الأدب.

ينهي الروائي روايته بجزع تجرعه ويتجرعه العراقيون باستمرار، إنه الموت المستمر الذي حصد ويحصد آلاف الأرواح العراقية "**لم أر في حياتي ميتة كهذه...هل يبكي الميت من دون دموع؟ تلك مهزلة عراقية كبرى تضاف لمجموعة المهازل ... عادي جداً فأنت في بغداد يا صديقي (37)**" وبهذه الكوميديا السوداء أنهى الكاتب روايته بإشارات لا تخلو من همس عميق حول جدل الهوية والوطنية، رواية تؤرخ لجيل الخيبات والهزائم، رواية لا تبتعد عن محرقة الحرب، حيث شبح الموت والهزيمة يلاحقان أبطالها، ظهر سلام الوافي رمزاً ثقافياً لجيل عراقي بأكمله تتصارعه الرغبات وتموت منه الأحلام، **جيل اللا جدوى.**

تبقى رواية (فاليوم عشرة) سؤالاً وشاهداً هل الخطاب الروائي بعدّه منتج لغوي، إيديولوجي، ثقافي هو نتاج عراق ما بعد 2003م أم نتاج أنساق الثقافة المضمرة التي جعلت منه أرضاً للنزاع والتناحر منذ عهد البرابرة والمغول (38)؟.

خلاصة هذا المبحث:

1. الرواية في منجزها الأدائي تتقصى قراءة الهوامش في الثقافة العربية بأنساقها الصريحة والمضمرة، أما الدراسة فقد سعت إلى الكشف عن النسق الثقافي المضمر وما يتوارى خلفه، لكونه نسقاً خطيراً يتغلغل ثقافياً، فيمارس دوره وتأثيره دونما رقيب متوسلاً بالعمى الثقافي.

2. يستدعي الروائي في رواية **(فاليوم عشرة)** بتمثلات مشهدية صوراً سردية على شكل حلقات القص، حاول بتلك الصور والمشاهد السردية، كشف ما يخفيه المجتمع العراقي من أنساق ثقافية مضمرة، كرست خطاب ديني واجتماعي، كما كرس الروائي جهده في اختيار شخصيات من قاع المجتمع العراقي.

3. وبذلك فإن الرواية تضع ثيمتها على حياة القاع العراقية وعلى المهمش والمسكوت عنه في المجتمع العراقي، فتغوص في أعماق الذات العراقية المسحوقة في اختيارها لمناطق (الباب الشرقي، التنك، الحواسم، البتاوين).

4. منحنا الروائي في توظيفه لهذه المناطق قوة الإحساس بأنّ الحكاية حقيقية ليست تلك التي تمر في الفضاءات المفتوحة بل هنا بالذات في الأماكن الضيقة والمهمشة والمنسية.

5. وقد وجدنا أن نص الرواية يدفع بفكرة النسيان، ويكرس الموت واليأس والخوف، فقد قدم السرد تناظراً بين الذكرى والنسيان بدءاً من العنوان **(فاليوم عشرة)** الذي شغل بثنائية التسمية والوصف، تأتي الذكريات من الماضي القريب حيث الحروب والحصار والحزن، ويأتي النسيان من الحاضر المبهم في تناول حبوب الإدمان من خلال طرح

(معاقرة حبوب الهلوسة) كحل للأزمة النفسية المعاشة، إذ سعت الرؤية السردية إلى تمثيل الخراب الداخلي الذي أصاب مجتمعاً بأكمله ثم انهيار نظام القيم وتلاشيه.

6. عالج النص الحرب كنتيجة وليس كأثر، فقد تعطل إيقاع الحياة وغابت الأشياء الجميلة، وتناثرت الهوية الفردية والوطنية، وتشتت الولاء، وأصبح الوطن لا يعني لأبطاله شيئاً سوى ذكرى متراجعة إلى الوراء، وكأن الانتساب والهوية، قد انتزعا مع استلاب الوطن واغتصاب أرضه.

7. عرض الروائي من خلال تقانات القرص والفلم شكلاً جديداً من أشكال إعلان الأنساق التي تحكم المؤسسة السياسية والاجتماعية ووسيلة جديدة في كشف وإجهار المعنى.

8. سقوط المدن تبعه سقوط الإنسان والأشياء، فأنهارت المقومات المجتمعية، وفقدت الشخصيات ثقتها بذاتها وبانتماءاتها، فتجسدت الفوضى والعبث الذي كان له حضوره المركزي في الرواية، فيحل الاستثناء محل القاعدة، إذ تمارس الشخصيات أداءها التكفيري بالإدمان أو الهرب أو الموت.

9. كانت هذه التدميرية ضرورية لهدم واقع فقد شروط صلاحيته؛ لتكوين واقع آخر بديل، إنه يقترح تطهيراً للمجتمع وإعادة بنائه بعد انهيار المنظومة القيمية والأخلاقية لأبطاله الذين يعانون رهاب الحرب، والحصار، والانفجارات، والموت، والهزيمة، وكأن لا أمل ولا منقذ لأبطاله إلا الموت الذي كان النهاية الفعلية لأبطال الرواية.

10. قدمت الرواية لغة جريئة في تفسير التابو وعرضه وهو تابو المثلية الجنسية، ووجهت انتقاداً مضمراً له من خلال عدة شخصيات في الرواية، إذ رسم لنا الروائي نموذجاً للشخصية السلبية النمطية وصورة فضائحية لتلك الممارسات اللاأخلاقية، وقد طرح التابو كإشكالية في تكوين مجتمع مفكك من منظور كون التابو هنا غير إنساني أو حضاري.

11. يخلق الحوار بين الأنا _الأنا، والأنا _الآخر المخبوء تحت **حبوب الفاليوم** نوعاً من فسحة الذات، تجتاز بها عتبة الراهن الكابوسي باتجاه فضاءات أخرى، تنتزع من النفس أغلالها وتمنحها نشوة سرابية سرعان ما تبددها يقظة الشخصية على واقعها اليومي.

المبحث الثالث: دراسة ملامح الإرهاب في رواية إرهابيس للكاتب الجزائري عز الدين ميهوبي

يعد العنوان العتبة الأولى للنص، يعمل على إغواء القارئ واستدراجه شيئاً فشيئاً للدخول إلى عالم النص. وأعتقد أن الروائي باختياره لهذا العنوان **إرهابيس** يكون قد حقق فيه وظائف متعددة، وضمّنه عناصر مهمة من حيث الشكل والمحتوى، تحث القارئ وتغويه ليدخل عالم الرواية ويتواصل معها بفاعلية، ويكشف المستور. ومن بين أهم الوظائف المتحققة في هذا العنوان، الوظيفة الإشهارية التي من شأنها أن تساعد على تسويق الرواية وتحقيق مبيعاتها؛ فعنوانها قد كسر السائد وخرج عن المألوف. إن العنوان **إرهابيس** هنا يتعدى كونه بنية لغوية خالصة منغلقة على نفسها، فقد حاول الروائي في **إرهابيس** الحفر في الأعماق القصية للتربة الحضارية في محاولته تفكيك سؤال الإرهاب ومعالجته من جوانب عديدة منها، إذ وضع الروائي عنوان روايته هكذا "**إرهابيس**" ثم كتب في الصفحة الداخلية **(IRHABIS(TAN** أرض الإثم والغفران، وكأن هذه اللاحقة لا تجعل من الكلمة عربية أصيلة، وإنما هي كلمة دخيلة على العربية، تشكلت في سياق آخر مخالف لها _ وهي هنا_ ترتبط بمفهوم شحنته الثقافة الغربية الحديثة ومعها الثقافات الأخرى ومنها ثقافتنا العربية المعاصرة المغلوبة على أمرها في معظم الأحيان بشحنات مدروسة وألبسته لبوساً خاصاً، ووجهته لتحقيق أهداف حددتها بدقة من أجل محو مفاهيم أخرى محددة وإبطال مفعولها و إزالتها؛ هذا المفهوم هو مفهوم الإرهاب في مقابل مفهوم المقاومة المشروعة .

يشير الروائي هنا إلى ماركوس قائد السفينة وهو يشير بيده نحو قوس داروين الصخري العائم في البحر، ويقول للصحفيين: "**انظروا، إنها معابد البحر ...معابد لن تجدوها في بلدانكم المتخمة بالحداثة ...هل تعرف داروين؟ ولا يهمه إن سمع مني جواباً فيسترسل في القول: كان هذا الإنجليزي يأتي هنا ليتحدث مع السلاحف، ويقرأ تجاويف الصخور، ولما يعود إلى بيته في الجزيرة الهرمة، يقول: إن الإنسان كان في الأصل سمكة فسلحفاة ثم قرداً ... ولا أعرف من أين أتى بهذا الكلام الفارغ. هل رأى القردة تقرأ شكسبير والسلاحف تردد أشعار كيبلنغ! (39)**".

لعل الإشكالية تبدأ من حديث داروين صاحب نظرية النشوء والارتقاء الذي درس أصل الإنسان وصنفه تصنيفات محددة حسب مراحله التطورية، إن المسألة تبدأ من هذه النظرة العرقية الاستعلائية التي وظفت العلم بطريقة معوجة. لقد"**أحسن أولئك الذين طمسوا اسم داروين من الخريطة، وأطلقوا على الجزيرة اسم إرهابيس تخليداً لأسطورة أتلانتس الغارقة في قاع المحيط، غير أن أهل هذه الجزيرة يسمّونها إرهابيستان (40)**".

ويبدو ماركوس الشخصية الرئيسة في الرواية وقد حنكته التجربة والخبرة في رحلاته المتتابعة إلى جزيرة إرهابيس المهجورة، التي ترحب بزوارها من ذلك ما قاله أحد القادة العسكريين عندما نزل المسافرون على متن مونكادا: " **أهلاً بكم في إرهابستان أو إن شئتم إرهابيس..لن تجدوا هنا أضواء لاس فيغاس ولا أبراج دبي، ولن تجدوا مطار فرانكفورت، ولا ميترو موسكو ... لكنكم تجدون رجالاً يريدون تغيير العالم (41)**".

من هم الذين يغيرون العالم؟ هل الإرهابيون هم الذين يغيرون العالم؟!!

تعد هذه الرواية مثالاً حيّاً لتفاعل الخطابات وتضافرها وتآزرها وتلاقيها وتحاورها وتناصها، وربما تصادمها أيضاً، فالخطاب الأساسي هو الخطاب الأدبي بما يحمله من خصوصيات شكلية ولغوية وأسلوبية وموضوعية لها علاقة بالمحتوى الحضاري _الثقافي الذي تعالجه، ومن خصوصيات فنية وجمالية وبلاغية أيضاً، تحفظ لها

مكانتها في عالم الرواية وعالم الأدب. وهكذا فإن إرهابيس بعدّها خطاباً أدبياً روائياً سردياً، تنفتح على خطابات أخرى اندمجت معها واحتوتها وحاورتها ووافقتها وتبادلت التأثير معها، وبكلمة أخرى، تفاعلت معها في خطابٍ واحد يحاول أن يفكك سؤال الإرهاب.

من بين أهم الخطابات التي كان لها قيمة وأثر واضح في رواية إرهابيس: الخطاب السياسي؛ لأن سؤال الإرهاب مضمخ بالسياسة؛ لأن الإرهاب سياسة، وكلاهما صناعة في المخابر الاستراتيجية العالمية، يتم تسويقها والترويج لها والإشهار بها؛ بل والتشهير بها أحياناً أخرى بواسطة خطاب آخر صُنع هو أيضاً في المخابر نفسها هو : الخطاب الإعلامي، هذا الخطاب المهم المؤثر في غيره من الخطابات والمتأثر بها في الوقت نفسه؛ فهو الذي يقوم بتوجيهها وتأجيجها، وهي التي تزيده تأثيراً وفاعلية، وتجعله يعبر الحدود والآفاق، وتحاول كبح جماحه، والحد من تأثيره أحياناً أخرى.

فالسياسة إعلام، والإعلام سياسة، والإرهاب سياسة وإعلام. وهنا يدخل خطاب آخر على خط المواجهة بقوة: هو الخطاب الديني بعدّه الخطاب المرجع الذي يتم تصويره في سؤال الإرهاب على أنه العقل المدبر غالباً، وعلى أنه الضحية أحياناً أخرى، المهم أنه يتشابك مع الخطاب السياسي والخطاب الإعلامي؛ لتزداد مساحة الخطابات اتساعاً وتفاعلاً في إرهابيس الرواية، وفي كاتبها أيضاً ، فهو الشاعر والكاتب و الإعلامي والرسام والسياسي .

" هذه ساحة أتلانتس...

نزل مانكو من سلم حجري، وتبعناه صامتين مشدوهين كأننا قطيع أغنام، ولما بلغنا سطح المكان المفتوح، قال لنا: انظروا إلى هذه الإشهارات المضيئة، و اقرؤوا ما فيها...تشير اللافتة الأولى إلى اسم الضاحية الحمراء، وبجانبها صورة لقبعة وسيجار. قال كوستا: إنها إشارة لتشي غيفارا...فعالجه مانكو برد سريع: الكوماندانتي...وليس تشي غيفارا . ليس صديقاً لك يا سيد كوستا

طبعاً طبعاً..

وحملت اللافتة الثانية اسم الضاحية الخضراء تعلوها صورة صومعة وسيف، فضحكت وقلت: بلا شك هذه اللافتة تشير إلى الحركات الإسلامية المسلحة ؟

وهل خشيت أن تقول أسامة بن لادن ؟ قال مانكو

وكتب على اللافتة الثالثة الضاحية السوداء ورمزها جمجمة ورصاصتان، لا أظن أنهما تعنيان الثورة والسياسة. قد تكون المافيا و المخدرات (42) ".

تزاحمت العلامات السيميائية في النص، أمّا الألوان: الخضراء والحمراء والسوداء فقد شاع استخدامها في الخطابات السياسية والإعلامية والدينية والقانونية أيضاً، وهي مشحونة شحناً إيديولوجياً واضحاً.

إن الذي يقرأ هذه الرواية وهي تعالج إشكالية الإرهاب وتحاول تفكيكها يستشف مسألة محورية فيها، هي : العلاقة بالآخر، وهي مسألة جوهرية مطروحة بقوة على طاولة الحضارة العالمية المعاصرة وبخاصة بعد 11 أيلول عام 2001. فنحن لا نعرف الآخر، والآخر لا يعرفنا، وهذا ما يفسر العلاقة بيننا و بينه، فهي أقرب إلى القطيعة منها إلى التواصل و التفاهم.

إن الضواحي الحمراء و الخضراء و السوداء تلتقي كلها في هذه الجزيرة . وإنّ لها برلماناً ولا أحد يجرؤ أن يفرض رأيه بالقوة، **الموت هنا ممنوع (43)** " . ولها دستور وعلم وعملة نقدية ونشيد وطني، يعتمد إيقاع موسيقى (أفول الالهة) للموسيقار الألماني ريتشارد فاغنر، تقديراً لهتلر الذي كان معجباً به (44). ولإرهابيس بيان تأسيس كما يظهر في أدبياتها وهذا نصه كما في الرواية : " **شعوراً منا بالحاجة إلى عالم بديل، ليس فيه مرتزقة باسم القيم، ولا سماسرة باسم الثورة، ولا أنبياء يدعون العصمة في عصر النفاق، ولا زعماء يصنعون المجد من جماجم شعوبهم، فإننا نحن الذين أعلنا الحرب على عالم مزيف، وشعوب خنوعة، وساسة يمتهنون الكذب والنفاق،**

وعلى أفكار تقتل حق الإنسان في أن يرفض ويقول لأ، وعلى إيديولوجيات خبيثة وماكرة، قررنا هجرة هذا العالم الموبوء، وبناء عالم مختلف أسميناه على بركة الله إرهابيس يلتقي فيه القاتل والديكتاتور الذي يرى القوة وسيلة للاستقرار، والمتاجر في السلاح والمخدرات لتحقيق أمنية الحق في الموت الرحيم، إنها ليست فلسفة طوباوية ، لكنها حقيقة العالم الذي لا يعترف به الآخرون ليبارك الله إرهابيس (45)". توقيع الآباء المؤسسون (46).

هذا هو البيان السياسي المؤسس لإرهابيس كدولة لها زوارها و روادها و ساكنوها الذين لا يموتون .

بل وأكثر من ذلك؛ فإن لإرهابيس دستوراً ينظم إدارة حكمها ويحدد نظامها السياسي من الناحية القانونية . جاء في ديباجة هذا الدستور " **إرهابيس ليست دولة و لا مملكة ولا إمارة ولا امبراطورية، هي عائلة تجمع بين منظمات و حركات شعارها القوة أبداً** ".[47] يشمل دستور إرهابستان اثنتي عشرة مادة قانونية، أمّا العائلات التي تسكن إرهابيس، فهي : " **القاعدة و روافدها ، الحركات الثورية ، تحالف الإسكو_كابون (إسكوبار وألكابون)، مشاهير القتلة ، تكتل الدكتاتورية (48)** "، "**واتفقوا أن تكون هيئة الحكم تحمل اسم سيكويا الحكمة (49)** "، وسيكويا الحكمة تعني أطول أشجار الدنيا عمراً، ويقولون: إنها ولدت قبل الأهرامات.

ولإرهابستان إعلامها الخاص، فلها قناة تلفزيونية داخلية تسمى قناة العائلة وشعارها "**الحق في ألا تقول الحقيقة (50)** "، ولها صحيفة يومية اسمها :"**الفلاذ (51)** " . لا يدير هاتين الوسيلتين الإعلاميتين العراقي سعيد الصحاف، ولكنه الألماني جوزيف غولبز(52) ".

تحاول الرواية أن تؤرخ للإرهاب أو على وجه التدقيق تشير إلى بعض من تاريخه ، " **فتشير إلى أكثر من مائتي عملية إرهابية وانتحارية بدءاً من اغتيال ولي عهد النمسا و زوجته يوم 28 يونيو 1914 بسراييفو؛ مروراً بعشرات العمليات التي**

تخللت الحرب العالمية الثانية، وبدا واضحاً أن قلب العالم هم العرب المسلمون الذين نالوا حصة الأسد؛ من ذلك ما يفوق 80 بالمئة منها منذ نشوء إسرائيل ، وفي منحنى تصاعدي منذ السبعينيات إلى غاية تأسيس إرهابيس(53) ".

فيخصص الروائي الصفحات 42، 43 و 44 و 45 و 46 لذكر الشواهد التاريخية الكثيرة عن الجرائم المرتكبة في العالم موثقاً إياها وبتواريخها و عدد قتلاها.

وأخيراً ، " **لم تر شيئاً يا صديقي**" عبارة كثيراً ما تتكرر في الرواية عند مقاماتها اللازمة المتصفة غالباً بالغرابة ، من ذلك أن إرهابستان كيان هجين يتقاطع في الدم، حتى أن القاتل والضحية يلتقيان فيها، ويتناولان القهوة و الشاي معاً **(54).**

تقدم الرواية مفارقة أخرى بين سناء محيدلي المناضلة الفلسطينية التي فجرت نفسها يوم 9 نيسان 1985 في تجمع لآليات الجيش الإسرائيلي تحمل مرجعية، تختلف عن المرجعية التي تميز الأم ماتيلدا المعلمة المكسيكية التي التحق ابنها خيسوس في 1999م بكارتل لوتس زيتاس أقوى عصابات المخدرات، وحدث أن كان ضحية من ضحاياه ، فرأت أمه ماتيلدا أن تأخذ بثأره بتنفيذ عمليات عديدة ، فقتلت أشخاصاً كثيرين **(55).**

لكن شتان بين الوطن المحتل وبين من ينتمي إلى عصابات المافيا والمخدرات، وبين من يدافع عن وطن وبين من يأخذ ثأراً شخصياً، فهل سناء مارست الإرهاب ؟ وعلى من ؟ أم هي إحدى ضحاياه؟

توجد بإرهابستان مكتبة بها أكثر من عشرة آلاف عنوان، مرتبة ترتيباً متناسقاً منسجماً، وقد ذكر الروائي عناوين كثيرة كعينة تمثيلية عنها امتدت من الصفحة 54 إلى الصفحة 59 من الرواية.

إذن من قال إنّ سكان إرهابستان ومن ينتمي إليها جهلة لا يقرؤون؛ وإنما اختاروا عقيدة الموت من أجل هدف (56) ، لكنهم لا يعترفون بما يكتب عن الإرهاب من

وجهات نظر اجتماعية ونفسية واسترتيجية؛ إنهم يعتمدون على التجربة الواقعية والممارسة الميدانية، ولا يعيرون قيمة للكتب والمنشورات التي تصدر عن أمريكا وما جاورها، وما تصل إليه من نتائج غير صحيح، ومن هذا قولهم عن روبيرت باب صاحب كتاب الموت لأجل النصر: "**المنطق الاستراتيجي للإرهاب الانتحاري**" يصدر في رأيهم عن رؤية قاصرة؛ لأن صاحبه يعتقد أن السياسة وحدها تدفع إلى العمل الانتحاري (57) "، لكن أهم ما يميز مكتبة إرهابيس (بيان الإثم و الغفران) ، ويشمل : مختارات من الكتب السماوية، وأقوالاً للحكماء والفلاسفة والثوار والمحاربين؛ ولذلك فهو جدير بالقراءة والفهم والتحليل و ربما بعد ذلك يتم الوصول إلى تفكيك سؤال الإرهاب حقّاً، ويتم معرفة من الإرهابي، وما هو الإرهاب؟ ، وما هي أشكاله و تجلياته؟ . ولكن من يحصل على هذا البيان، ومما جاء فيه : " **نحن أبناء الخطيئة الطالعين من تشققات الأرض العطشى التواقة للعدل و المحبة . لسنا أنبياء و لا حكماء، ولسنا كما يروجون قتلة و شذاذ آفاق...اخترنا الأحذية الخشنة والمسالك الوعرة ، والنوم في العراء؛ لأننا لا نؤمن بعالم يحكمه الخونة وباعة الضمائر وسماسرة السياسة و الدين والمعرفة ...** (58) ".

ومما جاء في بيانهم :" **نحن نعرف أعداءنا جيداً...وهم يعرفوننا أيضاً، اخترنا أن نكون متمردين لوجه الله و الشعب و التاريخ (59)**".

وأخيراً إن الإرهاب لا وطن ولا حدود و لا دين و لا لغة له. هذا ما أرادت الرواية أن تصل إليه ، من هنا نحن_ كمسلمين_ لسنا إرهابيين ، إننا ضحايا حاولنا أن نقاوم الضخ الإعلامي الغربي بوسائلنا البسيطة دفاعاً عن أنفسنا، مثل ما صرح الكوماندانتي : " **أنا ثوري و لست إرهابياً (60) ". لقد قتل على أيدي الذين كان يقاتل من أجلهم و ذلك ما يؤلمه (61).**

وأخيراً مؤتمر إرهابيس الذي ترأسه موسوليني بمساعدة الألمانية "أولريكي" وأيمن الظواهري بحضور كل الأشخاص والقادة، وبعد السماع لعزف نشيد إرهابيس، وبعد

استلام نسخة من بيان الإثم والغفران للصحافيين الحاضرين " **على سبيل الترويج لفكر إرهابيس لدى عالم الفساد والطغيان (62)** "، وبعد الاتفاق على جدول أعمال المؤتمر افتتحت أشغاله بكلمة ألقاها موسوليني قال فيها: " **أيها الكبار ...أبناء إرهابيس الأعزاء، شرفتموني برئاسة هذا المؤتمر مع أولريكي وأيمن، وهي ثقة كبيرة منكم جميعاً، أشعر بمدى ثقلها في هذه اللحظة التاريخية التي ستكون فارقة في قرار مصيري سنتخذه اليوم ، قرار العودة** (63) " وأي عودة ؟

فالعودة هي شعار المؤتمر اقتناعاً منهم أن" **هذا هو العالم الفاسد الذي تعرفون، سيبقى فاسداً إذا لم نقوّم حكامه وشعوبه، ونترك في كل عاصمة ندبة تاريخية** (64)"

وقد بدأت الاقتراحات تتوالى لتكوّن برنامج المستقبل، برنامج ما بعد العودة؛ فكل واحد يقترح ماذا يدمر ؟ ولكن إيغال أمير قاتل إسحاق رابين اقترح أن يضيف إلى المعالم العشرة المقترحة معلمين، هما : الكعبة وقبة الصخرة؛ ليرتاح العالم تماماً. فأمسك الظواهري بالميكروفون بعد أن استأذن في الرد عليه : " **اسكت يا وقح ...أنت إرهابي، كيف تجرؤ وتفكر في فعل كهذا؟ أنت سليل قتلة الأنبياء، تتحدث عن تدمير الكعبة المشرفة وقبة الصخرة المباركة، لولا أننا في مؤتمر لمسحت بك الأرض...لكن سيأتي يومكم، ولن ينفعكم شجر الغرقد الذي تختبئون وراءه (65)** ". سقطت الأقنعة، ولربما أراد الكاتب أن يشير إلى أنّ التعايش المشترك في البلدان العربية هو شعار لا أكثر و لا أقل، وهو كمفهوم أوهن من بيت العنكبوت.

خلاصة هذا المبحث:

1. لقد صار القاتل في هذه الرواية ضحية، وكأن التاريخ ينتقم لنفسه .
2. لا تخلو الرواية من أبعاد أسطورية واضحة في أكثر من مقام.
3. أتقن الكاتب لعبة الأسماء، فقد برع في اختيار أسماء شخوص الرواية

"**السيد كوستامارتينيز معد برامج في قناة غلوبو، البرازيل**

السيدة ماريا كاستينوفا، صحفية بوكالة أنترفاكس ، روسيا

السيد كوامي سوماري صحفي دايلي غرافيك، غانا

السيد أمين الدراجي صحفي وكاتب سير ذاتية لشخصيات سياسية ، الجزائر

السيد جون كيمبس صحفي في دايلي غراف_ إنكلترا

السيد جواد أمان الله صحفي بقناة جيو ، باكستان

بالإضافة إلى غارسيا و مانكو مؤسس مملكة الأنكا (66) "

هذه الأسماء عبارة عن وفد صحفي متنوع من بلدان عديدة، وكل اسم من الأسماء يناسب البلد الذي جاء منه، ولم تقتصر التسمية على الأشخاص فحسب؛ وإنما طالت أسماء الأماكن المتخيلة في الرواية : "**كان الشارع طويلاً نظيفاً، وبه عشرات المحلات ذات تسميات غريبة بعض الشيء منها: حلاق الديناميت ، مخبزة الصاروخ اللغوي، أقمشة ألغام الموسم، سوبر ماركت البارود، مطعم اليورانيوم...الفلوجة للمجوهرات ،ستالينغراد للهدايا (67)** ". إن كل اسم من هذه الأسماء له قواعده الخلفية وأسراره الخفية ومرجعياته المحددة الدالة عليه.

4. إن كلاً من القصيدة والأغنية قد سجلت حضوراً لافتاً في إرهابيس ، وقد أجاد الكاتب توظيفها بكفاية واقتدار وفي المقامات اللازمة؛ فضلاً عن مقتطفات من أقوال القادة، أمثال: هتلر، و موسوليني، و غيرهما ...

5. ولكن اللافت للنظر أن قارئ الرواية سيتساءل لماذا لم يوجد جورج بوش الابن و الأب في إرهابيس؟

6. الرواية فيها أنساق ثقافية مضمرة يصعب تحديد دلالتها بدقة، فكلمة (العودة) كانت عنوان مؤتمر إرهابيس، وهي عبارة عن عودة الإرهابيين إلى أوطانهم، لكن ما معنى اختيار كلمة (العودة)؟ هذه الكلمة التي لها معانٍ عميقة في

المنظومة التاريخية العربية، هل أراد الكاتب الربط بين الدلالتين دلالة الرواية ودلالة السياق التاريخي؟

7. أرى أن الرواية فيها حشد هائل من الأحداث التاريخية والرموز والعلامات السيميائية حتى نأى النص بهذا الحمل الدلالي، فكان هذا الاستدعاء الهائل للرموز أمراً مبالغاً به.

المبحث الرابع: دراسة ملامح إرهاب الدولة في رواية كتاب رجل وحيد للكاتب الصيني غاوكسينغجيان المترجمة إلى العربية

هذه الرواية في أبسط تقديم لها هي الكتابة بالجسد ورسم صورة الحياة باللغة، إنها سرد، يعلن وجه الوجود بها، حيث يشكل المبدع سرّ الوجود بلغة الذات، وحوار الآخر، أو قل هي سيرة الأنا وصراعه مع الأشياء و الكائنات، وهي على العموم: شكل الحياة وتحوّلاتها، وتبعثرها وتشظيها وانعكاس ذلك كله على الجسد لحظة الكشف والحدس والتجربة، إذن نحن أمام تجربة روائية هي سفر الجسد والوجود في الزمكان، حيث يقوم السرد في الفن الروائي على ثلاثية الجسد والتخييل و شكل الحياة.

ماهية المصطلح : الجريمة السياسية / إرهاب الدولة

يعد تحديد ماهية الجريمة السياسية من أهم جوانب هذا المبحث وهي مسألة ليست بالأمر الهين أو المطاع بل هي من الأمور الصعبة البالغة التعقيد؛ لأنه يتطلب وبالضرورة أن يتضمن حقوق الأفراد وحرياتهم بالإضافة إلى حق السلطة في المحافظة على هيبتها وإرساء قواعد الأمن والنظام، وهذه الأمور ليست من الأمور السهلة التي يمكن استيعابها بإعطاء تعريف جامع بحيث لا يكون هناك مساس بأي حق من هذه الحقوق .

وبالرجوع إلى قانون العقوبات السوري رقم (148) لسنة (1949م) فقد نص على أن :" **الجرائم السياسية هي الجرائم التي أقدم عليها الفاعل بدافع سياسي وهي كذلك**

الجرائم الواقعة على الحقوق السياسية العامة و الفردية ما لم يكن الفاعل قد انقاد لواعز أناني دنيء (68) "

ولأنّ الرواية تتحدث عن جرائم الشيوعية، فلابدّ لنا من التعرض لها، فالشيوعية تأمل تحقيق مجتمع إنساني تنتفي فيه الطبقات، وتنعدم فيه الحاجة إلى وجود الدولة، ولكنها ترى أنه لابد من الاستيلاء على مقاليد الحكم أولاً واستخدام أجهزة الدولة ذاتها في القضاء على الطبقات، فتضمر الدولة شيئاً فشيئاً حتى تموت وتنطفئ شمعتها، فالدولة نظام غير مرغوب، ولكنها وسيلة مؤقتة لبلوغ غاية وهي تطبيق النظام الشيوعي و زوال طبقات المجتمع **(69)** .ويرى البعض من الفقهاء القانونيين أنه من الجائز إدخال هذه الجرائم في دائرة الجرائم السياسية (70) ، أمّا قانون العقوبات السوري واللبناني فقد عدّها جرائم اجتماعية واستبعدها من الجرائم السياسية (71) ، كما أن مؤتمر المحامين العرب المنعقد في بغداد عام 1958 م استبعد هذه الجرائم من نطاق الجرائم السياسية و لو كان الباعث عليها سياسياً (72). إذن ليست جرائم سياسية بل إرهاب دولة لفرض نظام حكم .

وانطلاقاً من المثل الصيني " إذا أردت معرفة الطريق أمامك فما عليك سوى سؤال الذين سبق أن قطعوه من قبل"، من هنا علينا القول إنّ: هذه الرواية تغير كل مفاهيمنا السابقة عن الثورة الشيوعية الصينية.

جاءت ثورة الصين البروليتارية الثقافية العظمى إلى الحياة في أيار عام 1966م ، واستمرت حتى وفاة ماوتسي تونغ عام 1976م. وقد كانت بروليتارية في طموحها أكثر من واقعها ، بالنظر إلى أن أربعة أخماس الصينيين كانوا من الفلاحين، " **كان في ذلك الوقت مبهوراً بالثورة الثقافية لماوتسي تونغ** (73) "

كانت هذه الثورة _كما كنا نعلم_ مصدراً للإلهام و التجربة الاجتماعية، حتى أطراها الناس في داخل الصين وخارجها ، لكن اتخاذها للعنف منهجاً، أصاب العديد بخيبة أمل ؟ " **عند ذلك شرح أنه عندما تصبح الكتب من المحرمات، فإن المجتمع يصبح**

مرعباً بصورة حقيقية خلال ما يسمى بالثورة الثقافية الكبرى، والتي يقال اليوم إنها اكتملت ، فقد الكثير من الناس حياتهم بهذه الطريقة . قالت: إنها تعرف هذا ، وإنها شاهدت رجالاً يضربون حتى الموت، ودماءً سوداء مغطاة بالذباب ، وكانت هذه الدماء تسيل من أنف جثث الرجال الذين وصفوا بأنهم معادون للثورة ، ولم يأت أي شخص ليسأل عنهم (74) ".

إن استحضار الوجود ذاته عبر الكشف عن أنساقه المغيبة هو نوع من أدب الاعتراف (75). ففي رواية غاوكسينغجيان موضوع هذا المبحث تتضح فاعلية النص من خلال إدراك محمولات هذه الرواية وإدراك ما تقترحه من قراءات متعددة وما تثيره من أسئلة حول فاعلية الكتابة والقراءة تلك التي تستحضر في الأذهان ثقافة ووعياً يزداد بزيادة رقعة الحرية و تزداد درجة انزياحه، كلما أفضت الكتابة إلى الكشف عن مضمرات السرد ، "**فالكتابة ، كل الكتابة تنهض على مستوى المتخيل ، بمعنى أن الكاتب حين يكتب لا يتعامل مباشرة مع الواقعي ؛ بل مع ما يرتسم في ذهنه أو مخيلته من صور تخص هذا الواقع ، أو تمثله أو تعنيه و هذه الصورة المرتسمة هي صور مفهومية تعادل معاني أو تشكل معاني (76)** "

فالرواية يطغى على أحداثها التأريخ الشخصي، حتى يشعر القارئ أن الكاتب لا يقدم شهادة عن الحياة الصينية في فترة 1949م ، بقدر ما يقدم عرضاً متسلسلاً لفترات حياته وأفكاره. "**انتظر سنة تقريباً قبل استلام جواز سفره، مرّ خلالها على كل فروع الأمن . لقد كان مواطناً من هذا البلد ، ولم يكن مجرماً (77)** ".

ويكمن تحدي الكاتب في تعامله مع الثورة الثقافية على محمل الجد بدلاً من الاكتفاء_ كغيره من المثقفين الصينيين_ برفضها لما تحمله من سلوكيات قاسية وسخافات." **حتى حصل على شقة صغيرة قبل أن يتهم من قبل قيادة الحزب (78)** "، وقوله أيضاً : " **نقسم أننا سندافع عن الرئيس ماو حتى الموت، نقسم إننا سندافع عن اللجنة المركزية للحزب حتى الموت (79)** "

كانت الثورة ثقافية من منظور أن أكثر أهدافها ثباتاً كان الفنون والمعتقدات العامة . ولم تكن هذه الثورة عظيمة في نفسها؛ فقد أحدثت الكثير من الفوضى، ولكنها أعادت تنظيم الدولة فقط ولم تقوض بنيانها . ومثل معظم الثورات استمرت لأكثر مما هو مرغوب به ، استمرت وسط شعارات قدسية عظيمة . "**حزب عظيم ، وعادل ومجيد! أكثر عظمة، وعدلاً ، ومجداً من الإله ذاته ! وهو إلى الأبد عادل وعظيم ومجيد (80)** " ، لقد بينت لنا الرواية أن جزءاً كبيراً مما نعتقد أننا نعرفه عن الثورة الثقافية مغلوط ، " **استجابت والدته لدعوة الحزب، وذهبت إلى إحدى المزارع من أجل إعادة التأهيل الإيديولوجي (81)** "

صور الكاتب القائد الصيني ماوتسيتونغ كطاغية مجنون، وأن تاريخ الصين الحديث الحقيقي يبدأ فقط مع موته ." **جئت لدعم الرفاق الذين يطلقون النار ضد العصابة السوداء المضادة للحزب، المضادة للاشتراكية، المضادة لفكر ماوتسيتونغ (82)!**". كما تعرضت الرواية لبعض الأحداث التاريخية تعرضاً مضمراً، لا يتعدى الإشارات، " **كان شعر ذقنه طويلاً، مثلما كان عندما خضع لجلسات الاستجواب و التعذيب خلال الثورة الثقافية (83)** ".

"**إنني أعتقد أن أي شخص لا يملك الشجاعة ليصرح علناً بأنه معارض للثورة. هل يوجد من هؤلاء هنا ؟ هل يوجد هنا من يجرؤ على القيام ويقول: إنه ضد الحزب الشيوعي ، وضد فكر ماوتسيتونغ، ضد الشيوعية، من يجرؤ؟ (84)** "

في هذا إشارة إلى حملة (دع ألف زهرة تزهر)، فمع الثقة المفرطة التي انتابت ماوتسيتونغ في أعقاب تحول اشتراكي سلس للحياة الاقتصادية في عام 1956م ، تواصل مع المثقفين خارج الحزب مشجعاً إياهم على التحدث دون خوف عن الشؤون العامة بل وانتقاد الحزب الشيوعي. تردد العديد من المثقفين في البداية، وفي النهاية استجابوا لنداء (دع ألف زهرة تزهر)؛ ليكشفوا عن كم من الاستياء والمرارة تجاوز توقعات الحزب وفي تغيير سريع ومفاجئ للمسار، تخلى القادة عن ليبرالية المائة زهرة،

واتجهوا إلى حملة شرسة مضادة لليمينيين في عام 1957م، صنف على إثرها مليون مثقف **كعناصر يمينية** ، وفقد كثيرون وظائفهم ، وأرسل بعضهم إلى معسكرات الإصلاح الزراعي على مدى العقدين التاليين (85).

" وحده عمه الثاني الذي كان يحب الغناء في أوبرا بكين ، تعاون مع السلطة السياسية الجديدة كشخصية ديموقراطية ، قبل أن يتهم باليمينية (86) "

كانت الفنون موجهة لخدمة السياسة، غير أن ماو ذهب أيضاً إلى أن رفع المعايير الفنية من شأنه أن يصنع دعاية أكثر إقناعاً." **الحزب يتدخل في كل شيء ، في أفكاره ، وفي أعماله ، وفي حياته الخاصة (87) ".**

حقيقةً ، تظل الثورة الثقافية في الصين محل خلاف لتطرفها، ومداها الطموح، وتأثيرها في حياة ما يقارب من مليار شخص، لكن هل أصاب الكاتب في توصيفه للأحداث أم صور الواقع كما أراد هو أن يراه ؟

" أصبحت المجموعات الشيوعية بعد التحرير، تشكل الحزب الشيوعي، ثم جيش التحرير، ثم بحسب التسمية الجديدة جيش التحرير الشعبي (88) " ، " الجماعات الشيوعية المسلحة، تتقاسم فيما بينها الأموال و النساء (89) "

هذا الكاتب الحاصل على جائزة نوبل للآداب عام 2000 ، لم يترك فرصة دون أن يتعرض بالنقد اللاذع للحزب الشيوعي الصيني، فأخبرنا في روايته أنّ هذه الثورة سيطرت على جوانب الحياة الصينية كلها، فتشتّتت أُسر، وسرّح موظفون، وتعطل التعليم وانطلقت مبادرات سياسية هشة.

" انتبهوا أيها الرفاق، إنهم يريدون إقامة الرأسمالية! إنني أتحدث عن كل الشياطين الأشرار الموجودين في كل المستويات بدءاً من القمة وحتى القاعدة! ويوجد من هؤلاء في مستوى اللجنة المركزية أيضاً، وعلينا أن نعزلهم دون أي شفقة، وأن نحافظ على نقاء الحزب، ولن نسمح بالإساءة إلى مجد حزبنا (90) "

" قدمت وهي الباحثة عن التقدم، تقريراً عقائدياً لسكرتير الحزب وضعت فيه عبارات ساخرة بخصوص الرواية الثورية (نشيد الشبيبة) التي أوصت منظمة الشبيبة الشيوعية بقراءتها بصورة إجبارية (91) ".

خلاصة هذا المبحث

1. قدم الكاتب في هذه الرواية مزجاً بين الحلم والواقع، بين الرعب والمشاهد الجنسية، بين المعارف التاريخية والانطباعات الشخصية، قدم عملاً راسخاً بقوة في الحداثة.
2. استطاع الكاتب التأثير في متلقيه من خلال أنساق ثقافية مضمرة، أحسّ بها المتلقي ولم يتلمسها في الرواية.
3. ومن الجدير ذكره أنّ معظم صفحات الرواية تحمل إحساساً عميقاً بازدراء الكاتب للحضارة الصينية، وإعجابه المطلق بالحياة الأوروبية.
4. الثورة الثقافية حركة وطنية ضخمة لها الكثير من السمات المحلية الخاصة، لكن الكاتب تعمد إغفال أبعاد الثورة الاجتماعية والاقتصادية، ولا أجد مسوغاً لمهاجمة الثورة الثقافية الصينية وتصويرها كمستنقع تاريخي.

خاتمة

تجدر الإشارة إلى أنه توجد أعمال روائية (عربية أو مترجمة إلى العربية) عديدة تناولت الإرهاب وقد تمّ استبعادها من هذه الدراسة للأسباب الآتية:

1. تميزها بطابع ذاتي ذي رؤيا ضيقة ومحدودة، صوّر بعض كتابها أنفسهم ضحايا للإرهاب مطاردين منه، أو مناوئين له، مقاومين إياه إلى درجة البطولة، وكان خلف ذلك إما تصفية حسابات ليس مع الإرهاب فحسب، ولكن مع الوطن أيضاً؛ لأنهم رأوا اللحظة مناسبة في رأيهم، إما رغبةً في الابتزاز، وإما للاستفادة الشخصية من بعض الامتيازات.

2. كما تميزت معالجة بعضهم للموضوع بأسلوب قريب جداً من المراسلة الصحفية.

ويبقى السؤال:

لماذا تطرقت بعض الروايات العربية المنشورة بعد عام 2003م لموضوع الإرهاب، ولماذا تجاهلته روايات أخرى؟

الحواشي:

1. انظر: آرثر آيزربرجر، **النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسة**، ترجمة: وفاء إبراهيم، رمضان بسطاويسي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2003م، ص31.

2. يُنظر: سمير الخليل، **النقد الثقافي من النص الأدبي إلى الخطاب**، دار الجواهري، بغداد، الطبعة الأولى، 2012م، ص 11.

3. نفسه، ص 11.

4. آرثر آيزربرجر، **النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسة**، ص30_31.

5. سعد البازعي _ميجان الرويلي، **دليل الناقد الأدبي _ إضاءة لأكثر من ثلاثين مصطلحاً وتياراً نقدياً أدبياً معاصراً** _، المركز الثقافي العربي، المغرب، الطبعة الخامسة، 2005م، ص305.

6. يُنظر: حفناوي رشيد بعلي، **مسارات النقد ومدارات ما بعد الحداثة في ترويض النص وتقويض الخطاب**، دروب للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى، 2011م، ص 155.

7. ما بعد الحداثة هي : " **اتجاه قوي بدأ على الأغلب في العام 1979م ، ومن قادته في فرنسا ليوتار ،وميشيل فوكو وجاك دريدا : التفكيك وتحرير الإنسان و مرتكزات التفكير البشري من الاتجاهات و المسلمات والمعتقدات و القيم**

(حضارية أو قومية أو إنسانية أو دينية) ؛ بل ومن دعاوي العقلانية و المثالية و التمركز تلك المبادئ التي سادت أوروبا لعقود منذ عصر التنوير ، وهي تذهب إلى أنّه حول الذات لا توجد حقيقة موضوعية مجردة أو سردية عليا كبرى في أو خارج الإنسان تستحق عناء البحث عنها و التمسك بها و التصديق بها فهي تنزع القداسة عن العالم" يُنظر: نك كاي، **ما بعد الحداثة والفنون الأدائية** ، ترجمة نهاد صليحة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية، 1999م، ص 33.

8. حفناوي رشيد بعلي، **مسارات النقد و مدارات ما بعد الحداثة في ترويض النص وتقويض الخطاب**، ص 156.

9. روجر آلن، **الرواية العربية**، ترجمة حصة إبراهيم المنيف، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1997م، ص7

10. ميخائيل باختين _بي إن ميدفيديف ، **الأسلوب الرسمي في الدراسة الأدبية ، مقدمة ثقافية للشاعرية السوسيولوجية** ، مطبعة جامعة هوبكنز ، بالتيمور ، الطبعة الأولى، 1978م . **نقلاً عن روجر آلن، المرجع السابق ، ص19.**

11. د. الطيب بو عزة، **ماهية الرواية**، عالم الأدب، بيروت، الطبعة الأولى، 2016م، ص16، نقلاً عن مقال: الرواية، محاولة في الطوبولوجيا (علم المكان–الفراغ)، موسوعة أونيفرساليس 2008.

12. انظر: محمد عناني، **معجم المصطلحات الأدبية الحديثة**، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1996م، ص114.

13. سعيد علوش، **معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة**، منشورات المكتبة الجامعية، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، د.ت، ص 62، 63.

14. عبد الوهاب الكيالي وآخرون، **موسوعة السياسة**، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، الطبعة الثانية ، 1985م، 1/ 153

15. عبد الله محمد الغذامي، **النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية**،، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية ،2001م، ص76 .

16. ديكلاس لومان ، **مدخل إلى نظرية الأنساق** ، ترجمة : يوسف فهمي حجازي، منشورات الجمل ، بغداد ، الطبعة الأولى ، 2010م ، ص7.

17. ديكلاس لومان ، **مدخل إلى نظرية الأنساق** ، ص7.

18. يُنظر : حفناوي رشيد بعلي، **مسارات النقد و مدارات ما بعد الحداثة في ترويض النص وتقويض الخطاب**، ص 151.

19. عبد الله محمد الغذامي ، **النقد الثقافي في قراءة الأنساق الثقافية العربية**، ص79.

20. خضير فليح الزيدي، **رواية فاليوم عشرة**، منشورات الاختلاف، منشورات ضفاف، بيروت _الجزائر، الطبعة الأولى،2016م، ص7.

21. نفسه، ص7

22. نفسه، ص7

23. حسن نجمي ، **شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية**، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 2000م، ص211.

24. خضير فليح الزيدي، **رواية فاليوم عشرة**، ص16

25. نفسه ، ص82

26. نفسه، ص214
27. نفسه، ص222
28. انظر: نفسه، ص102
29. المرجع السابق نفسه ، ص213
30. سعيد بنكراد ، **السرد الروائي و تجربة المعنى**، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 2008م، ص122.
31. خضير فليح الزيدي ، **رواية فاليوم عشرة**، ص99
32. نفسه، ص14
33. نفسه، ص10
34. حسين السكاف ، **الرواية العراقية صورة الوجع العراقي ثماني سنوات في عمر الرواية العراقية2004_2012** ، دار الروشة للنشر والتوزيع، بغداد ، الطبعة الأولى، 2014م، ص12_13.
35. خضير فليح الزيدي ، **رواية فاليوم عشرة**، ص99
36. حسين السكاف ، **الرواية العراقية صورة الوجع العراقي ثماني سنوات في عمر الرواية العراقية2004_2012**، ص15
37. خضير فليح الزيدي ، **رواية فاليوم عشرة**، ص231
38. انظر: نفسه، ص16. وانظر أيضاً: عبد الله إبراهيم ، **السرد النسوي الثقافة الأبوية_ الهوية الأنثوية_ الجسد** ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2011م، ص22 وما بعدها.

39. عزّ الدين ميهوبي ، **رواية إرهابيس (أرض الإثم و الغفران)** ، د. د، الجزائر، الطبعة الأولى،2006م، ص6

40. عزّ الدين ميهوبي ، **رواية إرهابيس (أرض الإثم و الغفران)** ، ص7

41. نفسه ، ص10

42. نفسه ، ص15

43. نفسه ، ص15

44. انظر: نفسه ، ص16

45. نفسه ، ص20

46. نفسه ، ص2021. وهم إرنستوتشي غيفارا، الشيخ أسامة بن لادن، السيدة أولريكي ما ينهوف، السيد أوم شيريكو آل كابون ، السيد بابلو اسكوبار، كارلوس، بوكاسا، كيم جونغ إيل وبتزكية من موسوليني، وستالين، وبول بوت، وبينوشية، وعيدي أمين وصدام حسين والقذافي ، وتشاوسيسكو واعتذار هتلر لوعكة صحية.

47. نفسه ، ص21

48. نفسه ، ص22

49. نفسه ، ص27.

50. نفسه ، ص30

51. نفسه

52. نفسه

53. نفسه، ص42

54. نفسه ، ص46

55. انظر: نفسه ، ص48

56. نفسه ، ص48

57. نفسه ، ص52

58. نفسه، ص59

59. نفسه ، ص66

60. نفسه ، ص101

61. نفسه ، ص106

62. نفسه ، ص242

63. نفسه ، ص242

64. نفسه ، ص253

65. نفسه ، ص259

66. نفسه ، ص117

67. نفسه ، ص73

68. انظر: نص المادة (195) من قانون العقوبات السوري والمادة (196) من قانون العقوبات اللبناني.

69. انظر: د. مصطفى أبو زيد فهمي، **النظرية العامة للدولة**، دار المطبوعات الجامعية ، القاهرة، الطبعة الخامسة، 1997م، ص257 وما بعدها.

70. انظر: محمود نجيب حسني ، **شرح قانون العقوبات_ القسم العام**، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة السادسة، 1989م ، ص262. وانظر أيضاً: عبد الوهاب محمد عمر البطراوي، **الجريمة السياسية**، بحث منشور في مجلة المحاماة ، العددان السابع و الثامن ، 1990م، ص70

71. انظر: محمد الفاضل ، **الجرائم الواقعة على أمن الدولة**، الجزء الأول، المطبعة الجديدة ، دمشق، الطبعة الأولى، 1987م ، ص38.

72. انظر: عبد الوهاب محمد عمر البطراوي ، **الجريمة السياسية** ، ص84

73. غاوكسينغجيان، **كتاب رجل وحيد**، ترجمة د. غسان السيد، الجمعية التعاونية للطباعة، دمشق، الطبعة الأولى،2003م، ص26

74. نفسه، ص33

75. انظر: عبدالله إبراهيم، **السرد والاعتراف والهوية**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2011م، ص 5_6.

76. يمنى العيد، **تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي**، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى، 1990م، ص16.

77. غاوكسينغجيان، **كتاب رجل وحيد**، ص36

78. نفسه، ص34

79. نفسه، ص47

80. نفسه، ص60

81. نفسه، ص17

82. نفسه ، ص61

83. غاوكسينغجيان، **كتاب رجل وحيد** ، ص43

84. نفسه، ص62

85. انظر: ريتشارد كيرت كراوس ، **الثورة الثقافية الصينية** ، ترجمة: شيماء طه الريدي ، مراجعة محمد إبراهيم الجندي ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2014م، ص11 وما بعدها .

86. نفسه، ص14

87. نفسه، ص30

88. غاوكسينغجيان، **كتاب رجل وحيد**، ص48

89. نفسه، ص48

90. نفسه، ص46

91. نفسه، ص30

المصادر والمراجع

1. آرثر آيزربرجر، **النقد الثقافي تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسة**، ترجمة : وفاء إبراهيم ، رمضان بسطاوبسي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2003م
2. حسن نجمي ، **شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية**، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 2000م
3. حسين السكاف ، **الرواية العراقية صورة الوجع العراقي ثماني سنوات في عمر الرواية العراقية2004_2012** ، دار الروشة للنشر والتوزيع، بغداد ، الطبعة الأولى، 2014م
4. حفناوي رشيد بعلي ، **مسارات النقد و مدارات ما بعد الحداثة في ترويض النص وتقويض الخطاب**، دروب للنشر والتوزيع ، عمان ، الطبعة الأولى، 2011م
5. خضير فليح الزيدي ، **رواية فاليوم عشرة**، منشورات الاختلاف، منشورات ضفاف، بيروت _الجزائر، الطبعة الأولى،2016م.
6. ديكلاس لومان ، **مدخل إلى نظرية الأنساق** ، ترجمة : يوسف فهمي حجازي، منشورات الجمل ، بغداد ، الطبعة الأولى ، 2010م
7. روجر آلن، **الرواية العربية**، ترجمة حصة إبراهيم المنيف، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1997م
8. ريتشارد كيرت كراوس ، **الثورة الثقافية الصينية** ، ترجمة: شيماء طه الريدي ، مراجعة محمد إبراهيم الجندي ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2014م

9. سعد البازعي _ميجان الرويلي، **دليل الناقد الأدبي _ إضاءة لأكثر من ثلاثين مصطلحاً وتياراً نقدياً أدبياً معاصراً _** ، المركز الثقافي العربي، المغرب، الطبعة الخامسة ، 2005م

10. سعيد بنكراد ، **السرد الروائي و تجربة المعنى**، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 2008م

11. سعيد علوش ، **معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة**، منشورات المكتبة الجامعية، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، د.ت

12. سمير الخليل، **النقد الثقافي من النص الأدبي إلى الخطاب**، دار الجواهري، بغداد ، الطبعة الأولى، 2012م

13. الطيب بو عزة، **ماهية الرواية**، عالم الأدب، بيروت، الطبعة الأولى، 2016م

14. عبدالله إبراهيم، **السرد والاعتراف والهوية**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2011م

15. عبد الله إبراهيم ، **السرد النسوي الثقافة الأبوية_ الهوية الأنثوية_ الجسد** ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2011م

16. عبد الله محمد الغذامي، **النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية**،، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية ،2001م،

17. عبد الوهاب الكيالي وآخرون، **موسوعة السياسة** ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت، الطبعة الثانية ، 1985م

18. عزّ الدين ميهوبي ، **رواية إرهابيس (أرض الإثم و الغفران)** ، د. د، الجزائر، الطبعة الأولى،2006م

19. غاوكسينغجيان، **كتاب رجل وحيد**، ترجمة د. غسان السيد، الجمعية التعاونية للطباعة، دمشق، الطبعة الأولى،2003م

20. محمد عناني ، **معجم المصطلحات الأدبية الحديثة**، الشركة المصرية العالمية للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1996م، ص114

21. محمد الفاضل ، **الجرائم الواقعة على أمن الدولة**، الجزء الأول، المطبعة الجديدة ، دمشق، الطبعة الأولى، 1987م

22. محمود نجيب حسني ، **شرح قانون العقوبات_ القسم العام**، دار النهضة العربية، القاهرة، الطبعة السادسة، 1989م

23. مصطفى أبو زيد فهمي، **النظرية العامة للدولة**، دار المطبوعات الجامعية ، القاهرة، الطبعة الخامسة، 1997م

24. ميخائيل باختين _بي إن ميدفيديف ، **الأسلوب الرسمي في الدراسة الأدبية ، مقدمة ثقافية للشاعرية السوسيولوجية** ، مطبعة جامعة هوبكنز ، بالتيمور ، الطبعة الأولى، 1978م

25. نك كاي، **ما بعد الحداثة والفنون الأدائية** ، ترجمة نهاد صليحة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثانية، 1999م

26. يمنى العيد، **تقنيات السرد الروائي في ضوء المنهج البنيوي**، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى، 1990م

المقالات

عبد الوهاب محمد عمر البطراوي، **الجريمة السياسية**، بحث منشور في مجلة المحاماة، العددان السابع و الثامن ، 1990م .

منجم سليمان عوّاد الذهبيّ*

د. مازن أكثم سليمان

شاعر وناقد سوري

يحتفظ الأرشيف التّأريخيّ للشعر السوري بمكانة خاصة للشاعر سليمان عوّاد، من مواليد السَّلميّة (1922 – 1984)، وإن كان كثيراً ما يعلو هذا الأرشيف غبارُ الإهمال وقلّة الاكتراث، وهو الأمر الذي ألمسه بعمق في حالة شاعر بحجم عوّاد وخصوصيَّتِهِ المُستمدّة من جوانب متنوعة.

تنقَّلَ سليمان عوّاد بين مدن سوريّة مختلفة، وزارَ رومانيا، والتحقَ مدّة سنة واحدة بالجامعة اليسوعية في بيروت لدراسة العلوم السياسية قبل أن يُغادرها، مُفضِّلاً الانغماس في عالم الشعر والأدب.

أصدرَ الشاعر ستة دواوين هي: (سمرنار – شتاء – أغانٍ بوهيميّة – حقول الأبديّة – أغاني زهرة اللّوتس – الأغنية الزّرقاء الأبديّة)، وترجمَ قصائد ومختارات شعريّة لشعراء رومانيّين في كتابين هما: (شعراء من رومانيا وذئب البحر)، وله رواية مسرحيّة واحدة بعنوان: (من هَمَجِستان)، فضلاً عن مقالاته الكثيرة في الأدب والسياسة.

تنبعُ أهمّية سليمان عوّاد التّاريخيّة أوّلاً من ريادته لقصيدة النثر على مستوى سورية والوطن العربي، ذلكَ أنَّ قليلاً من المُهتمّين يعرفون أنَّهُ كتبَ هذه القصيدة منذ عام 1945، ونشر ديوانه الأوَّل (سمرنار) في مطبعة الجمهوريّة بدمشق عام 1957؛ أي إنَّهُ سبَق كُلاً من (محمّد الماغوط) و(أنسي الحاج) زمنيّاً بنشر قصائده النثريّة، لكنَّهُ لم يَحُزْ على الصَّدى الإعلاميّ والنَّقديّ الذي حازا عليه بوصفهِما كانا من نجوم مجلّة شعر البيروتيّة في تلكَ المرحلة.

وإذا كان الشاعر الحلبيّ (علي النّاصر) قد سبق عوّاد في الاقتراب من معالم (غير ناضجة نوعاً ما)، ومن إرهاصات نصِّيّة واضحة في مضمار كتابة قصيدة النثر منذ ديوانه (الظَّمأ) المنشور عام 1931، ثُمَّ في دواوينه اللّاحقة وصولاً إلى ديوانه النَّثري (سريال) المُشترَك مع الشاعر الحلبيّ الآخَر (أورخان ميسر) والمنشور عام 1947، إلّا أنَّ هذه التَّجارب لم تُقدِّم اقتراحاً مُتكاملاً يتعلَّق ببنية قصيدة النَّثر المُتحرِّرة من وحدة الموضوع أو الغرض الشعريّ أو المرجعيّة المدرسيّة (وهو ما يدلّ عليه عنوان سريال مثلاً)، وهذا على العكس من الاقتراح النّاضج (إلى حدٍّ معقول) الذي قدَّمه سليمان عوّاد في ديوان (سمرنار) وكذلكَ في ديوان (شتاء) الصّادر أيضاً عام 1957، وهو الأمر الذي دفع الشاعر (اسماعيل عامود) إلى القول: "من يتحدَّث عن ريادة الشعر النَّثريّ يجب أن يُدرِكَ أنَّها تعود إلى سليمان عوّاد".

من الضَّروري تماماً العودة إلى تجربة الماغوط لفهم تجربة سليمان عوّاد، والعكس صحيح أيضاً، ذلكَ أنَّ البِنية النَّصِّيّة التي قدَّمَها الماغوط في بداياته وسحرَتْ شعراء مجلّة شعر من جانب أوَّل، وهزَّت من جانبٍ ثانٍ فضاء الشِّعريّة العربيّة بجدَّتِها النّادرة في تلكَ الحقبة، قد ترعرعتْ وخرجَتْ بمعنى الكلمة من عباءة سليمان عوّاد بالذّات، وانتقلَتْ إلى سُلالة من الشُّعراء السوريّين والعرب تمَّ وصفهُم بِ: (السُّلالات الماغوطيّة)، ولا أحد ينسى كيفَ وُصِفَ الماغوط عند ظهوره بِ: (رامبو العرب)، ورفضَ هذا النَّعت فيما بعد.

كانت قصيدة سليمان عوّاد النَّثريّة خُلاصة (محلِّيّة/عربيّة) لتيّار حداثيّ غربيّ عريض يتقدَّمُهُ الثلاثيّ الفرنسيّ (بودلير ورامبو ومالارميه)، فتمثَّلَ سليمان عوّاد روح هذا التَّيّار، وانتقلَ هذا التَّمثُّل منه إلى تجربة الماغوط الذي اعترفَ غير مرّة أنَّ عوّاد قد سبقهُم إلى هذا الشَّكل، وقال في لقائِهِ الشَّهير في مجلّة النّاقد مع (يوسف بزي ويحيى جابر) في آذار 1991: "أذكُر أنَّ سليمان عوّاد كان ينشرُ وقتذاك، وعرَّفني على الأدب الحديث"، وهو يقصد الفترة المُمتدّة منذ أواسط الأربعينات حتّى مُغادرة الماغوط السَّلميّة

لأوَّل مرّة إلى مدرسة خرابو الزّراعيّة في غوطة دمشق عام 1948، وكان عمره أربعة عشر عاماً، واستمرَّ بعد ذلك تواصله الشخصي والإبداعي مع عوّاد في السَّلميّة ودمشق.

لم يخفِ الماغوط تأثير عوّاد عليه، وذكرَهُ في أواخر حياته بصفته أستاذه الشعريّ، وقال بالحرف الواحد: "لولا سليمان عوّاد لما تعرَّفتُ على قصيدة النَّثر وكتبتُها"، ولم يكُنْ هذا التَّقاطُع العميق بينَ صوتي الماغوط وعوّاد خافياً على كثيرين من الكُتّاب والمُثقَّفين في سورية، إلى الحدّ الذي قالَ فيه البعض إنَّ الشّاعرين يكتبان قصيدة مُتشابهة، أو واحدة! فها هو ذا سليمان عوّاد يقول مثلاً: "كالرّيف أنا/أمنَحُ خيري بصمتٍ... وسُكون/كالرّيف/أحيا على أنوار الكواكب ونبل الإنسان/مُفكّراً بالشتاء الإنسانيّ الكبير/الشتاء الأبديّ الذي لا يُريد أن ينتهي"، وها هو ذا يقول أيضاً بِ (نبرة ماغوطيّة صريحة): "إنَّ قلبي كتاب مُضطّرب العبارات/ضبابيّ المعنى/الرُّؤى الصُّوَر/مُتناقض الخواطر والأفكار/إنَّ قلبي كتاب حياتي الفوضويّة المُشعَثة/كقصائد بوهيميّة/يصوغُها شاعرٌ من عالم التَّشرُّد والاضطّراب".

لقد وضعْتُ عبارتِي: (نبرة ماغوطيّة صريحة) بين قوسين، كي أعودَ وأنقلِبَ عليها الآن بالقول: إنَّها لم تكُن نبرة الماغوط؛ إنَّما كانت في الحقيقة نبرة سليمان عوّاد وروحه الشِّعريّة الخاصّة التي تأثَّرَ بها الماغوط أعمَقَ تأثير، مُتشبّعاً ببنيتِها ورموزها وجهازها الدَّلاليّ، وهو الأمر الذي أحدَثَ الالتباس عند بعض المُثقفين والنُّقّاد، فقلبوا المُعادَلة كما فعلَ النّاقد (محمّد جمال باروت) في كتابه الشَّهير: (الشعر يكتب اسمه)، حينما كتَبَ -مُخطِئاً في اعتقادي- أنَّ عوّاد كانَ يدور شعريّاً في فلك قصيدة الماغوط!

ما من شكّ أنَّ الماغوط قد أخذ جمراتِهِ الشعريّة الأُولى من عوّاد، وتلقَّفَ نظريّات الشعر الغربيّ وفقَ رؤية عوّاد نفسه، ولا سيما في مُستوياتها الرومنسيّة الاغترابيّة أوَّلاً، والوجوديّة في بُعدها العبثيّ أو العدميّ ثانياً، وفكرة الحُرّيّة المُطلَقة في مَنحاها البوهيميّ ثالثاً، ولذلكَ من الطَّبيعي أن يظنَّ قارئٌ ما للوهلة الأولى أنَّ القفلة الشِّعريّة الآتيّة

لقصيدة عوّاد: (وجْدٌ حزين)، هيَ قفلة لقصيدة من قصائد الماغوط: "كُلّما نظَرْتُ إلى وجهي في المرآة/أخالُ أنَّهُ يُعاتِبُ روحي عتاباً كئيباً/على المُضايَقاتِ التي تُسبِّبُها لهُ/إنَّ وجهي حزين/وأزهارُ روحي الصَّفراء تلوي أعناقَها".

وعلى هذا النَّحو، أقول إنَّ الجذر (العوّادي) مُتأصِّل في قصيدة الماغوط، ولا سيما في البدايات، لكنَّني سأظلُم الماغوط بالتَّأكيد إنْ توقَّفتُ عندَ هذا المُستوى من القراءة والتَّحليل، ذلكَ أنَّ الماغوط (التِّلميذ) قد سبَقَ عوّاد (الأستاذ) بأشواط بعيدة فنِّيّاً وتخييليّاً فيما بعد، مُتجاوِزاً سيادة النَّزعة الرومنسيّة الطّاغية في قصائد عوّاد، ومُعمِّقاً التَّعبير عن تجربة البرجوازيّة الصَّغيرة (سوريّاً وعربيّاً) عبر الدَّلالات السِّياسيّة الحادّة التي افتقدتها تجربة عوّاد الشِّعريّة إلى حدّ كبير، على الرغم من أنَّهُ قد تعرُّض للسجن والفصل من العمَل في إحدى المراحل، لكنَّهُ ظلَّ مُلتزماً بنمط من الصّوفيّة الحسِّيّة إذا صحَّ التَّعبير، ومُتكئاً على الطَّبيعة، وأقلّ قدرة فنِّيّة من الماغوط على النُّهوض بموضوعات الثَّورة والحُرِّيّة والبوهيميّة على حامل تخييليّ عريض، ولا سيما في منحى تخليق الصُّوَر الشِّعريّة المُبتكَرة، فضلاً عن مُجاوَزة الماغوط لعوّاد في مسألة (تبييئ التَّجرِبة الشِّعريّة وتأصيلِها) سوريّاً وعربيّاً، في حين كان عوّاد أكثر تجريديّةً وترميزاً في قصائدِهِ: "أيَّتُها الأمواج أنتِ شاعر/وأنا.. شاعر/لقد جمَعتْنا الأيّام لفترةٍ قصيرة/العالم كبير وواسِع/ ومع ذلكَ/فإنَّهُ لا يتَّسِع لروح شاعر".

إنَّ ما أدعوه (الصَّوت الرّامبويّ) في الشعر العربيّ الحديث، والذي يتَّصِفُ بمخضِ (المجهول) و(التَّمرُّد) بالمَعنى الحداثيّ –وهو الأمر الذي كانَ أحد حوامل قصائد الماغوط اللّافتة– قد تجسَّدَ بعُمق عند سليمان عوّاد، فها هوَ ذا يقول مثلاً في جزءِ من قصيدة (تشرُّد): "أحلمُ بعضَ الأحيان في ليالٍ/أمضيتُها مُتشرِّداً في الرِّيف/أنامُ على البيادر/أشمُّ رائحة السَّنابل/أملأُ روحي بعبير البرِّيّة/والنُّجومُ تُزهِرُ في قلبي أغانٍ من أقحوان/أحلمُ في أمسياتٍ قربَ البحر/أتمدَّدُ على الرِّمال خيالاً مُجنَّحاً/مُصغياً إلى صخبِ الأمواج الأبديّ/والأنوارُ في السُّفن تنقلُني إلى شاطئٍ غريب/أستنشِقُ من خلالِ

لُجَّتِهِ أريجَ/ البحرِ وشذى الأسماك/ وهيَ محمولة في الفجر النَّديّ/على قواربِ الصّيّادينَ/أحلمُ أن يكونَ لي جناحٌ/يطيرُ بقلبي حتّى آخرِ العالَم/وعندَ نهاية رحلتِهِ/أستقرُّ في كوخٍ شاعريّ/في مَراعي القمَر".. تُرى ألا يُذكِّرُنا هذا النَّصّ بالصَّوت الرّامبويّ، كما في مقطعه الشَّهير هذا مثلاً: "في مساءاتِ الصَّيف الزرقاء/سأمضي في الدُّروب/تتقرُني سنابِلُ القمح/أدوسُ العشبَ الدَّقيق/... لن أتكلَّمَ/لن أُفكِّرَ بشيء.../وسأمضي بعيداً/بعيداً جدّاً/مثل بوهيميّ/عبرَ الطَّبيعة/ سعيداً/ كأنّي بصُحبة امرأة"؟

كذلكَ يبدو عوّاد وفيّاً لرامبو في موضوعة (تشويش الحواسّ) بغية اختراق المجهول، إذ يقولُ مثلاً في قصيدة (في أعماق المُحيط): "أنا لستُ بالصّاحي/لقد شربتُ حتّى ارتويتُ/حتّى تلاشيتُ صبابةً سديميّة/تذهبُ في غيبوبة ذاهلة/أنا لستُ بالصّاحي/لقد كرعتُ حتّى رثَّتِ الأقداحُ/آمِلاً أنْ أتخلَّصَ من عبوديّة التُّراب/ولكنّي واخيبتاه!/لم أعثرْ إلّا على سراب/أنا لستُ بالصّاحي/ لقد تجرَّعتُ حتّى أنسى وجودي/وجودي السَّكران بالشَّقاء وخيبة الآمال/لم يبقَ لي في هذا الوجود/سوى أن أُودِّعَ الحياة/(...)/غايتي أن أستحيلَ على مرِّ السِّنين/طيراً بحريّاً أبيض الجناح/يُرافقُ الملّاحينَ عبرَ البحار/أو محارةً تحتضِنُ لؤلؤةً ناصِعة/ أو موجةً زرقاء/تُغنّي في أعماق المُحيط".

لقد خطَّ عوّاد مع الضِّلعيْن الآخريْن (الماغوط واسماعيل عامود) في المُثلَّث الشِّعريّ السَّلمونيّ (نسبةً إلى مدينة السَّلميّة) تيّاراً لهُ خصوصيتُهُ داخلَ قصيدة النَّثر العربيّة، ويمكن وصفه بأنَّهُ تيّارٌ مُغايرٌ إلى حدّ كبير للرُّؤى التي قدَّمها أنسي الحاج في مُقدِّمة ديوانِهِ: (لن)، أو للكثير أيضاً من تنظيرات (أدونيس) حولَ ملامح هذِهِ القصيدة وصِلتَها بالحداثة الشِّعريّة، وهيَ المسألة التي تستحقّ دراسة تأصيليّة مُوسَّعة نظَريّةً ونصوصاً، ولا سيما فيما يتعلَّقُ باتّكاءات الحاج وأدونيس على كتاب (قصيدة النَّثر) للفرنسيّة (سوزان برنار)، وتقاطُع تيّار (عوّاد/الماغوط/عامود) مع بعض أُسسِهِ ومفاهيمِهِ، وانفصالهم عن أسسٍ أُخرى غير قليلة فيه.

أقولُ أخيراً، إنَّ هذِهِ المادّة تُشعرُني بالغبطة الشَّخصيّة بقدر ما تُشعرُني بالإحباط؛ إذ كيفَ يسقط من حساب النُّقّاد السّوريّين والعرب شاعر بأهمِّيّة سليمان عوّاد الرّياديّة تاريخيّاً وفنّيّاً؟ وكيفَ تمرُّ عشرات السّنين من دون أن يُفكِّرَ أحدٌ في جمع أعمالِهِ الكاملة وطباعتِها؟

إنِّي أنتظرُ ذلكَ اليوم الذي أرى فيه مؤلَّفاتِهِ منشورةً، وأتمنّى أن يجيءَ الوقتُ الذي يُوضَع فيه عوّاد وأمثالُهُ من المُبدعين في السِّياق النَّقديّ الذي يستحقّونَهُ في مسار التّأريخ الأدبيّ والشِّعريّ تحديداً، ولكَم كرَّرنا بوصفنا سوريّين وعرباً حُلْمَنا أنْ نقرأ أعمال أمثال هؤلاء في مناهجنا المدرسيّة والجامعيّة.. ألا يستحقّ عوّاد بمنجمِهِ الشِّعريّ الذّهبيّ الغنيّ ذلكَ؟!! وهو المُحارِبُ الجَماليّ القائل: "سأُواجهُ الواقِعَ بكُلِّ حزمٍ وصلابةٍ وجُرأة/سأتحمَّلُ برجولةٍ كُلَّ طارئٍ وكُلَّ مسؤوليّة/مهما تكون النَّتيجة/سأقولُ للجميل أنتَ جميل/ وللقبيح أنتَ قبيح".

* كتبت هذه المادة في 30 نوفمبر 2017، وستنشر قريبا كمقدمة ضمن مشروع إعادة طباعة أعمال رائد قصيدة النثر السورية، بل العربية، الشاعر سليمان عواد.



تاج الدين الموسى الغاضب الجميل

نجيب كيَّالي

كاتب وقاص من إدلب مواليد 1953، مجاز لغة عربية، له العديد من المجموعات القصصية المنشورة وقصص الأطفال أيضاً.

تمتد العلاقة بيني وبين الفقيد الغالي (تاج) على مساحة ربع قرن، وفَقْدهُ اليوم صعبٌ كفقد عضو من أعضاء البدن أو حاسة من الحواس، بل هو أصعب من ذلك لأنه فَقْدُ جزءٍ من الروح التي كانت تكبر بوجوده، وتتناغم معه وتتفتح على مطر صدقه وصراحته.

اخترتُ في هذا المقال أن أتحدث عن جانب من جوانب شخصيته هو: (الغضب الجميل) الذي تظهر ملامحه عند الكتابة حِدَّةً في الكلمات مغطاةً بالسخرية تارة أو دون غطاءٍ ساخرٍ تارةً أخرى، وتظهر عند الكلام احمراراً في الوجه وانفلاتاً في اللسان. نعم أحببتُ فيه ذلك الغضب، ووصفتُهُ بأنه جميل، وسببُ ذلك سيتضح من خلال الأسطر اللاحقة.



خصوصية غضبه:

لم يكن غضبه حمقاً أو طيشاً أو انفعالاً مجانياً، كان كمن يطلق الرصاص بكلماته على مَنْ ينتهك القيمَ الجميلة أو يعتدي على زرقة السماء بالتلوث أو يُدنِّس سحائبَ العطر برشَّات من الروائح الكريهة. لم يكن تاج رجلاً متديناً، لكنه أقام للمبادئ السامية معبداً في نفسه، ورشَّ من حولها البخور، وأحاطها بهالات من القداسة، ولا سيما مبادئ الحرية، والعدل، وحق العمل، ومواجهة المستبد.

الأدباء الشرفاء في كل زمان ومكان هم حرَّاسُ النقاء، وهم المعذَّبون بشرفهم واتقاد ضمائرهم، وهو واحدٌ منهم.

إضافةً إلى ما سبق علينا أن لا ننسى علاقته الطيّبة بمدرسة الأدب الملتزم (الملتزم بالمعنى الواسع للكلمة).. حيث الإنسانُ هو موضوع الفن وقضيتُه، وأصحاب هذه المدرسة يرون كما أعلن واحد من عظمائهم هو برتولد برشت: (في زمن المآسي البشرية يصبح التغني بجمال الشجرة جريمة). ولأن مآسينا بالعشرات والمئات كان صديقنا تاج منشغلاً بها مُشهِراً قلمَهُ وسيفَ غضبه على المتسببين بوجودها، والمتعايشين معها، والصامتين عليها، والسادِّين أنوفَهم حتى لا يشموا روائحها. لم يكن يكره التغني بجمال الشجرة والزهرة، لكنه كان يقوم بترتيب الأولويات.. درءُ الخطر عن الإنسان أولاً، وبعد ذلك إمتاعه بنعمة الجمال ومباهج الطبيعة.

أسباب غضبه:

من خلال الفقرة السابقة اتضحتْ الأسباب العامة لغضبه، ولكني أحب أن أشير إلى الأسباب المباشرة الملموسة التي تفوح منها نكهة الواقع والحياة اليومية، وقد كان تاج الدين أديباً وإنساناً معجوناً بطينة الحياة الواقعية ممتلئاً بها إلى حافة روحه، فهو ابن قرية (كفر سجنة) الفقيرة في ريف إدلب، غبار الأرض وروائحُ عرق الفلاحين عشَّشا في خلاياه. أمَّا دراسته فكانت في معهد النفط، تَبِعَها العملُ في شركة (ساد كوب) في

كل من حمص وإدلب حيث رائحةُ المازوت والغاز، وأصواتُ سائقي الناقلات العالية والوجوه المرسومة بقلم الشقاء والخشونة.

في هذا الجو الحياتي كان تاج يغضب عندما يرى فلاحاً من قريته تضحك عليه جهة رسمية بأنْ تبيعه كميةً من بذار فاسد!

أو يرى شيخَ الضيعة السبعيني يصطحب إلى فِراش الزوجية صبيَّةً ألطفَ من الفَراش اسمها: (زهرة)!

أو يرى أديباً عديمَ الموهبة متصلاً بالجهات المتنفذة، فإذا بدواوينه تباع بالإكراه في محطات البنزين!

أو يرى إنساناً ضاق صدراً بجحافل الفساد، فأطلقَ آهةَ غضب أو صرخةَ قهر، فإذا به في قمقم سميكِ الجدران لا تعلم بمكانه حتى الفئران!

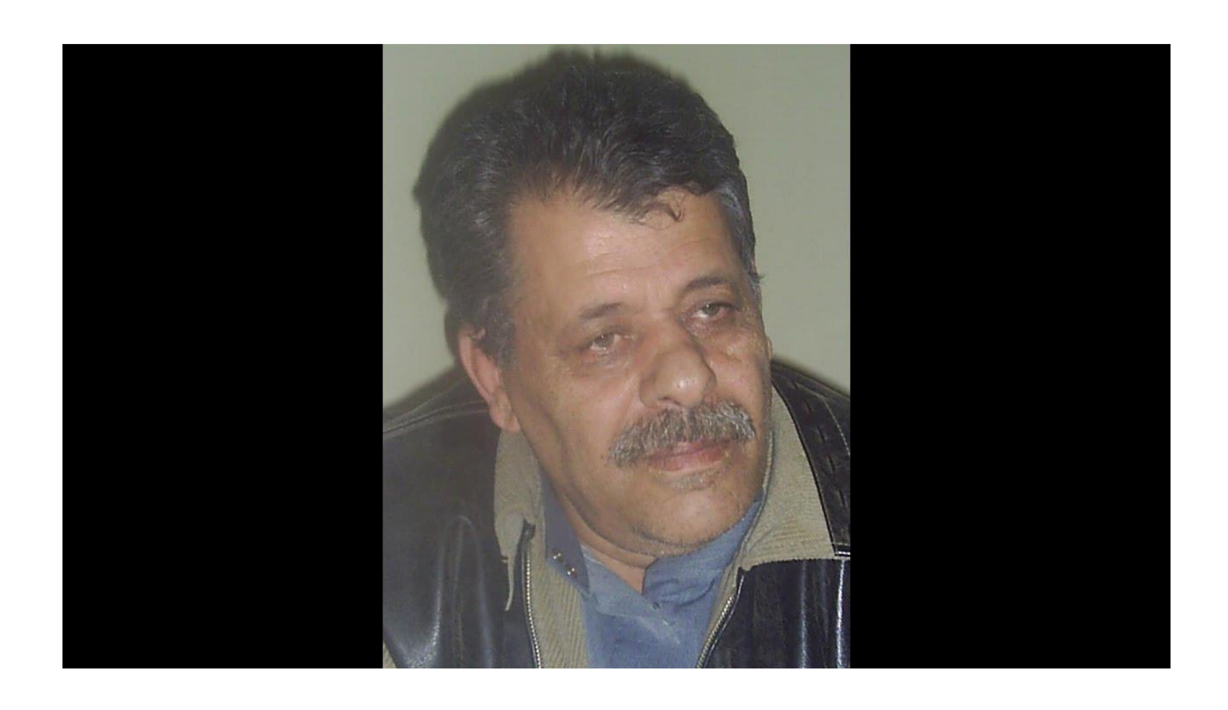
ولكثرة تفاعلاته واشتداد غليانه لم يكتفِ بكتابة القصة وهي الفن المميَّز الذي برع فيه، بل التفتَ إلى كتابة المقال اللاذع والزاوية الساخرة سخريةَ الفضح والهجاء والمرارة، ومَنْ يستطيع أن ينسى زاويته في جريدة النور:(رسائل لا تصل بالبريد)؟!

استمرار غضبه:

كثيرون من رفاق تاج.. من رفقة القلم أو رفقة الحزب الذي كان من أعضائه لانوا قليلاً أو كثيراً أمام الترغيب والترهيب، وبعضهم ذاق طعمَ العسل فغيَّرَ اتجاه بوصلته مئة وثمانين درجة.. حتى غدا رقَّاصاً ومُهرِّجاً وبهلواناً! لكنَّ تاج الدين الموسى ظل قابضاً على الجمر يحرس ناره بيقينه.. ظل محارباً يرفض أَخْذَ استراحة أو إجازة في معركته ضد التخلف والفساد والجهل والظلم، ويعلم الله أنني زرتُه في مشفى الهلال الأحمر بإدلب قبيل وفاته بأيام حيث كان يعاني ضيقاً في التنفس بسبب استئصال إحدى رئتيه واعتلال الثانية بالربو وهمومِ الدنيا ذاتِ الوزن الثقيل، كان خرطوم الأوكسجين في أنفه وتعليمات الطبيب تقضي بعدم الكلام، غيرَ أنه بما تبقى في رئته

الوحيدة من قوة كان يقول رأيه صريحاً عارياً من النفاق والمجاملة، ويُخرج ما تبقى من ألسنة براكينه الداخلية، كانت أصابعه المُصفرَّة تمتد إلى الخرطوم المذكور تزيحه عن الأنف ليهدر اللسان بضعَ لحظات يليها سعالٌ حاد وتحذيرٌ من الزوجة والأصدقاء.

صديقي الغالي (أبو اصطيف): إنني أنحني أمام غضبك الجميل، أنظر إليه كشعلة مقدَّسة فوق جبل، ولا أستطيع أن أقول: وداعاً.



قراءة في رواية "ماراثون الخلود"

الحلم وخيانة الجسد

نور عباس

كاتبة وناقدة سورية، ماجستير أدب عربي

لمحة موجزة عن الرواية:

تتناول رواية "ماراثون الخلود" الجزء الأخير من سيرة حياة العدّاء البرتغالي فرانسيشكو لازارو؛ فلازارو لديه طموح قديم متمثل بالفوز في الماراثون، ويعمل أقصى طاقاته لتحقيقه، إلا أنّ هذا الحلم يتحطم بسبب خطأ تراجيدي ارتكبه لازارو، إذ دهن جسده مرهماً لاعتقاده أنّ هذا المرهم سيحافظ على السوائل في جسده في أثناء السّباق، ولكن هذا المرهم كان السبب المركزي لتعطّل جسد لازارو ووفاته؛ إذ "**لم يكن بالإمكان إنقاذه، ولازارو توفي حوالي السادسة صباحاً من اليوم الموالي: 15تموز 1912.**"[1]

[1] - الرواية ، صفحة 116.

سبب اختيار هذه الرواية:

هنالك سببان مركزيان لاختيار هذه الرواية بالتحديد

أولهما؛ الرغبة في اطّلاع الآخر على الأدب البرتغالي:

إنّ قلة اطلاع الجمهور العربي على الرواية البرتغالية الحديثة دفعنا إلى اختيار هذه الرواية المنتمية إلى الأدب البرتغالي الحديث، وذلك من أجل تقديم معرفة بسيطة عن نموذج من نماذج هذا الأدب وتشجيع القارئ العربي على الاطلاع عليه.

ثانيهما؛ البؤرة المأسوية في الرواية:

إنّ الذات الإنسانية ذات مأسوية، إذ يوجد حدث مأسوي في صميم كل حياة إنسانية مُعاشـــة، وهذا الطابع المأســوي للحياة الإنســانيّة دفعنا إلى اختيار رواية ذات بؤرة مأسوية، يمكن أن تتقاطع مع الجانب المأسوي الحاضر في كل قارئ لهذه الرواية.

نحو فهم للرواية:

1. الذات بين ثنائيات

ينطوي النّصّ على عنصرين متمايزين في الماهية والخصائص:

الحلم: ذو الطّابع الأثيري، السّرمدي، المحلّق.

والجسد: ذو الطابع، المادي، الأرضي، الكثيف، المناقض لماهية الحلم.

ويتحاور هذان العنصران نصّياً فيؤثر الحلم في الجسد، ويحاول انتشاله من ماديته وكثافته، لنقله إلى عالم مغاير، أقرب إلى عالم المثل، وذلك من طريق الماراثون الذي سيخوضه لازارو صاحب ثنائية الحلم والجسد، **"هم من سادة المجتمع وأنا من الشعب، أنا لازارو وسأشارك في الماراثون وأجري نحو الخلود، أنا مثل هذا الخشب؛ يمكن أن أكون شيئاً أو لا شيء، وأنا اخترت أن أكون كلّ شيء".**[2]

ويناقض الجسد تطلعات الحلم، فيخونه في لحظة الاقتراب من التّحقق، إذ انهار جسد لازارو قبل دقائق من فوزه بالماراثون ووصوله إلى هدفه المنشود، **"يأتي إلى جانبي شاب من لجنة التنظيم ويسألني إن كنت على ما يرام، فأجيبه برفع إبهامي إلى الأعلى، ولكن جسمي لم يتركني أكذب، أختنق في هذا الهواء الحار، وتحتك رجلاي ببعضهما، أسقط أرضاً ويسيل الدم من معصمي".**[3]

فالذات تتحرك بين حلم يتوق إلى التجسد والتحقق، وجسد مراوغ ومخادع؛ يظهر القوة آنياً وينهار في لحظة الاقتراب من التّجلي المادي للحلم، محطماً كلّ الآمال التي سعى الكيان إلى تحقيقها.

---

2 _ الرواية، الصفحة: 7.

3 الرواية، الصفحة: 113.

2. الذات الإنسانية بين الخطأ المأسوي وعنف الطبيعة:

تســـير أحداث الرواية باتجاه تحقق الحلم المتمثل بالفوز في الماراثون إلى أن يحدث خطأ تراجيدي "المرهم الذي دهنه لازارو" يتضافر معه عنف الشمس الحارقة فيتعطل الجســد، ويُعطب الحلم، وينتقل مســار الأحداث من النســق الإيجابي المتفائل إلى النسق السلبي المأسوي.

فالمرهم الذي جلبته له صــــديقته حنا، والذي دهنه لازارو لاعتقاده أنّ هذا المرهم سيحافظ على السوائل داخل جسده، كان السبب الرئيسـي في انهيار جسد لازارو ووفاته وتعطل حلمه، "*لازارو يا للهول ماذا تفعل؟ ألم تر درجة الحرارة في الخارج؟ فبهذا المرهم ستتعطل أكثر ولن يجديك نفعاً، وربما يكون خطراً على صحتك*"[4]

3. سياقات السرد والإحساس بالنهاية المأسوية:

يمكن للذات المتلقية أن تتنبأ منذ بداية الســـرد الروائي بحدث مأســـوي مركزي سيتموضع ضمن سياق النص.

وهذه التنبؤ ناجم عن عنصرين، أولها؛ العنوان الفرعي للرواية:

---

4 الرواية، صفحة: 105.

فعنوان الرواية: **ماراثون الخلود**، "**الطموح المأسوي لفرانسيشكو لازورا**"، وهذا العنوان الجزئي المُشتمِل على مصطلح "**مأسوي**" يشي بأن قيمة المأسوي ستتموضع في بنية النص وفق آلية ما، فعنوان الرواية لمّاح جداً؛ يوحي بالقيمة الجمالية المهيمنة على النصّ، ويدفع القارئ إلى الاستمرار في عملية التلقي النّصّيّة لوعي كيفية تجلي قيمة المأسوي جمالياً وفنّيّاً.

ثانيهما؛ حاجة النص الروائي إلى بؤرة تراجيدية تغير المســـار النمطي الكلاســـيكي للأحداث:

فلولا الحدث التراجيدي الذي تمظهر نصّياً لسارت الرواية وفق خطة رتيبة هادئة غير محفزة على استمرارية فعل القراءة، لذلك كان الحدث المأسوي مُشغلاً نصّياً وعنصراً ضرورياً لانتقال سيرة لازارو من السياق الحياتي النمطي إلى السياق الجمالي الفني ذي الطابع التراجيدي المأسوي.

*****

رواية: "ماراثون الخلود"، تأليف: أندريه أوليفييرا، ترجمة: عبد الجليل العربي، دار نون، عام 2017.

من التعرّف على الضريح إلى كتابة رواية

"علي: قصة رجل مستقيم"*

مصطفى الولي

كاتب وقاص وناقد فلسطيني سوري

حضرني خلال قراءتي لما قام به الكاتب حسين ياسين، وجهوده في البحث عن ضريح علي عبد الخالق، الذي أفضى به إلى قناعة لكتابة رواية عن شخصية عليّ وتاريخها الاجتماعي والإنساني والنضالي، حضرتني تجربة روائية للكاتب المبدع جبرا ابراهيم جبرا، المعروفة "البحث عن وليد مسعود".

في الروايتين هناك عملية بحث. عند جبرا تنتهي الرواية، ويبدأ البحث عن وليد المفقود، روائيا، في فضاء يمتد من الحدود العراقية، إلى حدود لبنان مع سوريا. عند حسين ياسين، ينتهي البحث، بعد جمع المعلومات عن حياة علي، إلى الوقائع التي جعلت الكاتب يقرر كتابة رواية، والشخصيتان فلسطينيتان، مع اختلاف عمرهما، وجغرافيا الأحداث الروائية، وتجربة كل منهما في الحياة وفي مسيرة النضال الوطني.

بعد جهود متواصلة، استدعت ضرورة ذهاب الكاتب حسين ياسين إلى إسبانيا، ليعرف بنفسه أين تم دفن علي، علي عبد الخالق، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفلسطيني، في مطلع الثلاثينيات من القرن العشرين، يقف حسين ياسين على قطعة أرض منخفضة قليلا، في مقبرة رحبة جدا، في الصف الأول، ضريح رقم سبعة، إنه ضريح علي.

رحماك ياربي كيف يتحول الاسم إلى رقم؟ بهذه الكلمات عبر الكاتب عن مأساة الإنسان عندما يموت بعيدا، ولا أقارب أو معارف يهتمون بمثواه الأخير.

لم تكن فكرة الرواية "علي: قصة رجل مستقيم" هي المحفز لقيام الكاتب بالبحث عن علي ومصيره ومكان دفنه في إسبانيا. ماحصل هو العكس، لأن مجريات البحث ومساراته وتعقيداته، هي من جَعلتْ الرواية ضرورة، لتكون أدبيا، وثيقة تحتوي مايشبه سيرة ذاتية، ومحطات تجربته في الحياة، وفي النضال، متنقلا بين فلسطين وموسكو، وأخيرا في اسبانيا، مقاتلا عنيدا في "الكتيبة الأممية" التابعة للجيش الجمهوري، الساعي لتحرير اسبانيا من سلطة فرانكو.

أثناء ذلك قادت الكاتب قناعاته أن الرجل شخصية روائية عظيمة، فقرر أن يرويه، لانتشاله من غياهب الإهمال، وليلملمه شظايا معلومات فرفطها الزمان وبعثرها على شواطئ النسيان.

"علي عبد الخالق، فلسطيني تطوع، مع زميله فوزي صبري النابلسي، للدفاع عن الجمهورية الاسبانية. كلاهما سقطا في الجبهة ودفنا في الأرض الاسبانية". كانت مفاجأة عظيمة عندما لاقاها أول مرة في مقالة للمؤرخ الألماني "غرهرد هوب، عميد كلية التاريخ في جامعة لايبتسك".

لاحقا، وبالبحث المتواصل، يعثر كاتب الرواية على مؤرخ غربي يقول:

"شارك العرب في الحرب الاسبانية، وحاربوا في صفوف الجمهوريين! وهم خمسة فلسطينيين عرب وسبعة فلسطينيين أرمن وسوري واحد وآخر لبناني وعراقي وعدد كبير من بلاد المغرب العربي، كلهم كانوا أبطالا غيبهم التاريخ فضاعوا في متاهات الإهمال".

لكن اليهود "الإسرائيليين".. لهم الذكرى والذاكرة، والنصب التذكاري في مدينة برشلونة.

علي عبد الخالق، شخصية واقعية، توفر للكاتب معلومات أساسية عنها، من مسقط الرأس حتى النهاية في الحرب الإسبانية. لكن بناء الشخصية الروائية تم في المخيلة الأدبية للكاتب.

شخصية علي بين الواقع والرواية

واقعياً ولد علي في "ديرة" باب الثنايا، من قضاء نابلس، قتل "التحصيل دار التركي والده على البيدر، وهو في رحم أمه، في مطلع القرن العشرين، فتزوجت أمه أو زُوجتْ من غريب، وهو لا يزال في اللفة. تربى في بيت خاله، بلا أب يرعى ولا أم تحتضن، فنشأ "مشاغبا" متمردا على الجماعة والمجتمع، قادته الحياة إلى صفوف الشيوعية. يوم كانت الشيوعية "تهمة" خطيرة تقود حاملها إلى السجن أو النفي خارج الوطن.

روائيا، واعتمادا على المعطيات الواقعية، نشأ علي في ديرته، صلباً قويا متمردا على كل سلطة، كان يجيد قذف الحجارة، حجره لا يخيب، يلتقط الأفاعي وينزع أنيابها بتلقيمها حزامه الجلدي وشده بقوة لتخرج أنيابها السامة عالقة على جلد الحزام. بطريقة بدائية يصطاد الحجل، وليس بالبارود. لم يكن يخضع لسلطة خاله الذي تكفل به بعد زواج أمه. مرة سرق حصان جندي بريطاني في القرية، ولم يصدق أحد أنه "فارس" ذو بأس وهو في عمر دون البلوغ.

اشتغل علي خبازاً في فرن بمدينة القدس، وكان سعدي، الكادر المتقدم في الحزب الشيوعي الفلسطيني، هو من أشار عليه المجيء الى العمل في القدس. في الفرن يكتشف علي أسرار النساء من أحاديثهن وهن ينتظرن دورهن لإدخال عجينهم إلى الفرن. وتقوده المصادفة إلى خلية للحزب الشيوعي الفلسطيني. هو بالأساس كان يشارك في المظاهرات ضد الاحتلال البريطاني، فيرى به سعدي خامة نضالية مناسبة للانضمام إلى الشيوعيين الفلسطينيين.

بعد تجارب نضالية كثيرة ارتأى الحزب تطوير قدراته، فتم ترشيحه لدورة في موسكو، يتعلم خلالها "الماركسية اللينينية "الستالينية في ذلك الوقت"، ورتب الحزب سفره إلى موسكو.

في رحلته إلى موسكو بالسفينة إلى أوديسا، ثم منها بالقطار إلى موسكو. يكتشف علي عالما آخر مختلفاً عن الصورة التي أدهشت الشيوعيين في الأحزاب التابعة لموسكو. قائمة طويلة بالممنوعات، انضباط آلي للمجتمع، سلطة حديدية للحزب وقيادته. ومن أهم القصص التي أثرت على موقفه، قصة أولغا، المرأة السوفييتية "التي تعرف عليها في القطار بين أوديسا وموسكو"، أولغا غانية في القطار، وكان مصيرها مجهولا، بعد أن رفض رؤساء الجامعة رسالتها حول تاريخ الثورات في الشرق، وما قدمته عن القرامطة، وإعجابها بالفكر الصوفي في المجتمع الشرقي الإسلامي. نقلوها إلى العمل في مصانع الأحذية، وفصلوها من الجامعة، ولاقت مصيرا مجهولا. بيد أن سببا آخر مباشراً جعله يتخذ قراره بالعودة إلى فلسطين. "الثورة في البلاد ونحن جئنا لنتعلم الثورة هنا" يقصد في موسكو.

في رحلة العودة إلى فلسطين، تفاجأ علي بإعلان القبطان أن بيروت هي الميناء الذي ستنتهي فيه الرحلة، وليس يافا التي كان علي يقصدها، مما اضطره للسفر براً من بيروت إلى القدس، مرورا بطبريا وحطين وسمخ وبيسان.

يتوقف، قبل متابعة طريقه إلى القدس، في مضارب بدو "الفولة والعفولة" اللتان شهدتا أول طرد للسكان العرب لمصلحة "اليشوف" والاستيطان الصهيوني في العام 1924. لكن الحدث الإنساني الدرامي الذي حصل "روائيا" في طريق عودته إلى القدس، هو عثوره على أمه التي لم يعرفها، فتزويجها بعد موت أبيه بأشهر، حرمه منها، لكنه سمع عن القرية التي سكنت فيها مع زوجها، وبذل كل جهده للوصول اليها، وتحقق له ذلك.

البلاد في حالة غليان متواصل، والصراع مع الاحتلال يتجذر ويتصاعد، والتناقض داخل الحزب الشيوعي يحتدم. رؤيتان مختلفتان لما يجري في فلسطين، الأولى للأعضاء العرب عموما، كانوا يرون في هجرة اليهود الى فلسطين خطرا يتكامل مع خطر الانتداب، والثانية يمثلها القادة اليهود في الحزب وهم الأكثرية، كانت هجرة اليهود برأيهم، وبناء دولة لهم في فلسطين، مقدمة للاشتراكية، ورافعة للتقدم في المنطقة! ومع

احتدام التناقض بين "اليشوف" (التجمع الاستيطاني اليهودي في فلسطين) والفلاحين العرب، وسكان المدن والقرى المختلفة، تعمق التناقض داخل الحزب. لقد أصبح الانقسام حتميا، لأن فكرة تعريب الحزب، كما ارتأت موسكو قد فشلت، وتجذر انحياز أعضائه اليهود، الذين يشغلون مواقع القيادة، لمشروع "بناء الدولة اليهودية".

"أليخندرا" شيوعية خارج السرب

جاءت الشابة أليخندرا إلى فلسطين، وفي وعيها أنها ستناضل ضد الاحتلال البريطاني في فلسطين، حاملة أفكارها وعقيدتها الشيوعية، عاشت في "الكيبوتس"، وشاركت مع اليساريين اليهود والعرب في النضال "الطبقي"، وحين أضرب العمال العرب في بيارات مستوطنة "زخرون يعقوب" انحازت لهم، ولم يكن يؤيد موقفها العدد الأكبر من العمال اليهود في "الكيبوتس"، فيما أيدها الفلسطينيون من أعضاء الحزب. كانت ترفض الفكرة الشائعة وسط اليساريين اليهود، الذين اعتبروا نضال الفلسطينيين ضد الانتداب والاستيطان، ظاهرة إقطاعية ورجعية، إذ نظرت اليخندرا الى الظاهرة بأنها حركة وطنية فلسطينية، وليست حركة رجعية يقودها رجال الدين المسلمون، وقالت، وهي تصف اليساريين والشيوعيين اليهود "إنكم تشمون ماركس وتلحسون هرتسل".

في مظاهرة يافا التي دعت إليها الحركة الوطنية الفلسطينية، سقطت اليخندرا وهي تهتف ملء حنجرتها، يرى علي في وسط المظاهرة الحاشدة علماً أحمر، وسط الأعلام الفلسطينية، ترفعه صبية قمحية البشرة، ترفع لافتة كتب عليها: "العمل العبري رذيلة"، ولافتة أخرى كتب عليها "يسقط الاستعمار" تحملها اليهودية سمحا عضوة الحزب الشيوعي الفلسطيني. في هذه اللحظة السردية، ميز الكاتب بين اتجاهين داخل الحزب الشيوعي، كما ظهر في مظاهرة يافا الحاشدة.

انهمر الرصاص على المتظاهرين، سقط شهداء، وأصيبت الخندرا، اغتالوا الخندرا، صاحت سمحا نحو علي. دم الخندرا ينزف بغزارة وهي تجاهد أن تقول، قالت "زيتسر" وكلمات أخرى غير مفهومة، قبل أن تفارق الحياة. يومها ألقى اليهود المسؤولية عن

جريمة قتل الخندرا على "جماعة المفتي" الذي يرأس الحركة الوطنية الفلسطينية، لولا أن الخندرا صرخت "زيتسر" إشارة إلى القاتل، وهو ليس عربيا، ولولا ذلك كانت تهمة قتلها ألصقت بجماعة المفتي.

إسبانية يهودية يسارية تقتل في فلسطين، وعلي الفلسطيني الشيوعي يقتل في الحرب الإسبانية، إنها تبادلية النضال في المسيرة العالمية لثورات الشعوب، ويبقى السؤال: هل اليخندرا إمراة حقيقية، كما هو علي رجل حقيقي؟ أم أن الكاتب بنى شخصيتها في عالم الرواية لتوضيح التعقيدات التي عاشتها فلسطين في تلك المرحلة من نهاية العشرينات ومطلع الثلاثينات؟

في الرواية، هناك امرأة يهودية أخرى، تنتمي للحزب الشيوعي الفلسطيني، تختلف أفكارها ومواقفها من الصراع في فلسطين عن موقف اليخندرا، اسمها "سمحا"، وهي التي أخذت علي إلى اجتماع الخلية الشيوعية الأولى في إحدى مغارات القدس. في تطور الأحداث الروائية، تظهر سمحا بموقف مرتبك من الحركة الوطنية الفلسطينية، ومن إضرابات العمال العرب. وكان مصيرها في الرواية الاختفاء عن الأحداث. أي مغادرة الرواية، أو الخروج من ميدان النضال.

اللافت في الشخصيات النسائية في الرواية، أن العربيات لم يكنْ لهنَّ حضور في صفوف الحزب الشيوعي الفلسطيني، ففي النضال الوطني، وبعض أحزابه، حضرت المرأة الفلسطينية بقوة، كما تطورت شخصيات المرأة الفلسطينية في الرواية، في الفترة بين غياب علي في موسكو، وعودته إلى فلسطين في زمن تصاعد فيه النضال الوطني، وحين عاد علي إلى عمله في الفرن بدت أمامه واضحة أحوال النساء، في عينات: مثل وفيقة التي كان يصفها "باللقلاقة"، أي الثرثارة وكاشفة أسرار النساء، عاد ليشهد مشاركتها في المظاهرات وانشغالها بالقضية الوطنية، مع حماسها للمنشورات "الحمراء"، نبيلة، عضو في حزب الاستقلال، قارئة وكاتبة تعمل بالصحافة، وتشارك بكل فعالية من أجل فلسطين، حتى وردة، بنت الديرة "باب الثنايا" حبيبته الأولى والدائمة، تغادر

البساطة والحياة التقليدية لتصبح مشاركة في العمل الوطني، ومهتمة بالسياسة، وهناك مريم، السجينة السياسية في مراكز الاعتقال البريطانية. تتمتع بقوة الشخصية وشدة البأس، ومعها عشرات الفلسطينيات الموقوفات، تحرض من داخل سجنها على معاقبة "السجانة الواشية بالمعتقلين".

الشاعرية أخذت موقعا لها في الرواية

يتذكر علي حلم عمره، محبوبته، بنت ديرته، حيثما حل وارتحل.

وردة أطول زنبقة في باب الثنايا، وردة فواحة، صدر حنون، يلقي برأسه عليه كلما داهمه الهم واشتد عليه الغم، كانت الحلم الجميل والحب النقي، عشق الصبا..

أبوح بكل مذلات عمري

أبحث في البذرة عن شجرة

بكيت لما مر وجهها في مخيلتي

ترى أين أنت اليوم ياوردة؟

أولغا السوفييتية، التي طلبت منه أن يسميها "غانية في القطار"، أحبته وأحبها وتشاركا معا كل شيء في موسكو، يقول لها: جئتك من صحاري الشرق الملتهبة، لا تستغربي جلافة كلامي فذلك من قسوة البراري، يا غانيتي في القطار "في الليالي المقمرة لا أحمل مشعلا، لو حملت مشعلا لغضب مني القمر".

ترد أولغا:

"ألاقيك من ذرى الأورال، تحملني إليك أشواق الأنهار إلى مصباتها، بحيرات الأورال الصافية العذبة منحتني زرقة العينين، برد الشمال ألبسني الشقار... أسرق ناري ولهيبي أنا أفروديت الإغريقية استنفذت العمر أبحث عن أدونيس، وإن شئت فاجعلني لك

عشتار السومرية... تذكر يا صاحبي: إذا أحببت فتاة فلا تتردّد.. إذا تردّدت ستكون الفتاة حزينة".

في متن الرواية، وعند كل انعطاف في الأحداث، تندلع رومنسية علي متذكرا بلاده وديرته، في باب التنايا، القدس، حيفا، عكا، يافا، وما يجعل تلك الرومنسية أخاذة وساحرة، "شبابة علي" التي ينفخ بها فيعزف ويغني العتابا والميجانا، الشبابة لم تفارقه حتى وهو في جبهة الحرب الإسبانية.

سر إعدام لوركا في اشبيلية

تعرَف علي، في جبهة الحرب الإسبانية، على مأساة الشاعر والروائي الإسباني العالمي "فدريكو غارسيا لوركا"، المعلومات المتداولة عن مقتل لوركا متعددة، في رواية "علي قصة رجل مستقيم" نتزود برواية مختلفة عن الروايات المعروفة، يقول علي نقلا عن أحد رفاقه في جيش الجمهوريين الإسبان:

"كان لوركا شاعرا مجيدا، وكاتبا متغلغلا في حياة شعبه وعاداته وتقاليده، نظم الشعر، ألقى القبض عليه الجنرال فاريلا في إشبيلية، هدد بإعدامه إذا ما أقدمت حكومة الجمهورية على إعدام ابن أحد جنرالات فرانكو، المعتقل في مدريد، دار حوار بين الطرفين عبر الإذاعة، غير أن الجمهوريين ارتكبوا خطأ فادحا باعتبار أن الموضوع "قضية مبدئية" وأعدموا ابن الجنرال، وفي اليوم التالي تم إعدام لوركا في قشلاق اشبيلية، يوم الثامن من أغسطس سنة 1936، قتل لوركا في كرم الزيتون، بالقرب من غرنادا. كان آخر ماصدحت به حنجرته نشيد الأممية: "في الليل في الظلام، في الخوف الشديد، تنتصر الأممية".

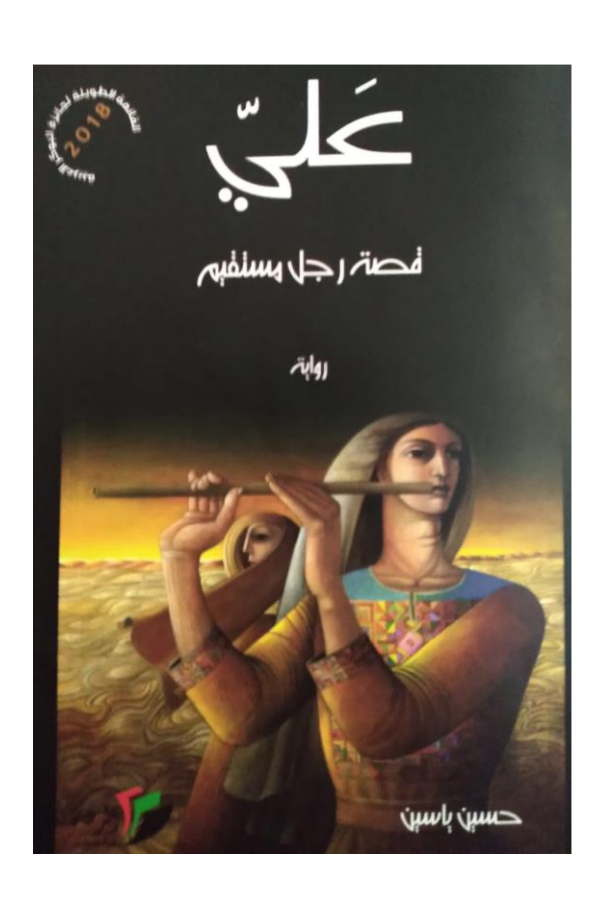
قصيدة جميلة قتلت شاعرها!

إذا صحت هذه الرواية عن ظروف إعدام لوركا، فهي لا شك تحمل إدانة للأيديولوجيا "المبدئية الصارمة" التي أفضت إلى خسارة العالم لأحد أهم الشعراء الثوريين في القرن العشرين، والذريعة "رفض مساومة الأعداء".

رواية: "علي قصة رجل مستقيم" تضيئ على محطات مجهولة في تاريخ فلسطين ورجالها، ودور بعضهم، إلى جانب رجال من بلدان عربية أخرى، بأداء واجبهم الثوري والإنساني في الحرب الإسبانية.

كما وتضيف، إلى ما عرفناه في الكتب والمؤلفات التاريخية، عن النضال الشيوعي في فلسطين خلال فترة العشرينات والثلاثينات، معلومات حية ومشخصة عن ملابسات تلك المرحلة، وتجلي غموض عدد من محطاتها.

*__رواية:__ علي قصة رجل مستقيم، الكاتب: حسين ياسين الناشر، الرعاة للدراسات والنشر/ رام الله وجسور للنشر والتوزيع عمان، ط1 2017/ ط2 2018، عدد الصفحات 348 من القطع المتوسط.



دير القصائد: الوفاء للقص والإنسانية

حسين جرود

شاعر سوري

يُفاجأ السيد فاضل (صاحب محل المواد الغذائية) بأن أحد الشباب يجلس فوق مظلة دكانه كل ليلة ليراقب النجوم... بهذه القصة القابلة لتأويلات عدة، وتحمل عنوان "عبور بين النجوم"؛ يبدأ القاص والشاعر السوري نجيب كيالي مجموعته الجديدة (دير القصائد) الصادرة عن دار موزاييك، وتضم 26 قصة بين قصيرة وقصيرة جداً.

عم يبحث ذلك الشاب في سماء الليل، وهو المشرد في إحدى دول الجوار؟، وكيف يتحمل ليالي البرد تلك، التي لا تلبث أن تقضي عليه؟. بينما يلاحق الكاتب عيون الشاب، يعترف ضمناً بصعوبة المهمة، فالشاب يبحث عن حبيبته التي قتلت في سوريا، وصاحب الدكان يتابع الجلوس على المظلة في المكان ذاته، كأن حلول الأرض جميعَها انتهت، بل كأن ما حدث في سوريا جعل الإنسانية تشك في نفسها.

وفي "مأدبة العصافير" نتعرف على السيدة منال، وكيف توطدت علاقتها مع عصافير حديقتها، فصاروا يجلبون لها أسرار بيوت المدينة؛ لتساعد الناس. ولكن لا يمر هذا دون أن تُحارب ويُحرق مركز عملها، وتعدها العصافير باكتشاف الجاني. وفي "الكتب الطائرة" تُصبح الفراشات بديلاً عن نصوص كاتب مات قهراً، وفي "رجل آخر" يعود شاب من الحرب، فلا يتعرف أهله

عليه لولا الموّال الذي غناه، وفي "الأحمق الجميل" يتمنى أن يفني الموت ليلتقي بالراحلين، وفي "سؤال عَطِش" ينبش بطل القصة القبور ليحصل على الإجابات، بينما يتساءل في قصة: "من حكواتية القرن الحادي والعشرين"، أليست رواية القصص تعويضاً عن نقص، ومداواةً لكبرياءٍ جريح؟.

وفي "دير القصائد" نرى رحلة القصائد نحو منفاها، بعد أن زهد الناس بالمشاعر، في حين يزداد طمع حيتان الثروة ويرغبون في التخلص من "كبار السن، والمرضى، والجيل القادم". يهرب بعض الخائفين إلى الجبال، ويكتشفون الدير؛ كأن علاقة الإنسان بالشعر كُتب عليها أن تبقى ملتبسة، فهو القريب البعيد، وكل لقاء معه كأنه اكتشاف النار الأول. تقول القصة (في النهاية) أن أربعة فئات لا تتخلى عن الشعر: المستيقظون من وهم المال، والخائفون على مصيرهم، والورق الجديد في شجر الجبل، ونحلٌ يجمع الرحيق من الزهور.

وفي قصة "الجزيرة الصغيرة النائية" يصف لنا الجزيرة وأهلها وعاداتهم الغريبة واحتفالاتهم: "ارتفع مستوى البهجة، فأخذت جماهير الجزيرة الجعلوكية تتراشق بكرات الطين، وكل منهم يعلِّق حول رأسه تاجاً من عيدان البقدونس المباركة عندهم! أما خاتمة الاحتفال، فكانت قنبلة صغيرة قذفوها في الهواء كمفرقعات العيد. تحوي القنبلة في داخلها حفنة من شعرات ذيل سيدهم جعلوك تمّ تلوينها، وعندما تناثرت الشعرات في الفضاء قفز الناس لفوق وتسابقوا، لعل كلاً منهم يحظى بشعرة تذكارية!"، وبعدها يقول ملك الجزيرة أنه سيحولها إلى إمبراطورية للتفاهة تنشر التفاهة في الأغاني وتصبح مقصداً للسياح، وكلها إشارات إلى الحياة في الدول الدكتاتورية، أو بالأحرى الكاريكاترية، قبل أن

يسأل في قصة "من جنس إلى جنس" هل الحيوانات كانت بشراً ثم تعرضت لقمع سياسي؟.

وفي قصة: "شرودي الجميل" يرثي فقاعة الشرود التي سرقتها الحرب، في إشارة إلى العطب الذي يصيب الأدب في أوقات التحولات. فليس الأمر فقط فقدان القدرة على التعبير (أو بصياغة أخرى: إن كل شيء مأساة تستحق أن تروي حتى تفقد الرواية معناها)، بل ضياع الإنسان عن ذاته. إنه هاجس يعيشه الكتاب، فلم تكتفِ الحرب بسرقة بيوتهم ومدنهم وأعمالهم وأحلامهم، بل حرمتهم حتى عالمهم الثاني الذي أصبح عقيماً أمام الحدث العظيم.

نجيب كيالي؛ كاتب سوري يكتب القصة والشعر وكتب الأطفال. وعموماً، تتميز قصصه بنزعتها الإنسانية وبساطتها وقابليتها للتأويل من جميع الأعمار، إضافةً إلى وفائه الخاص لفن القصة، إذ استطاع تطويعه على مدى ثلاثين عاماً؛ لإيصال أي هاجسٍ يشغله، فلا ننسى قصتَه التي كتبها منذ عقدين عن النشال الذي يتسلل بين الحشود ليحظى ببعض الدفء، أو قصتَه عن العصافير التي ترمي فضلاتها على الحارس انتقاماً للعشّاق.

إنه يكتب تلك اللوحات بتلقائية وسلاسة دون أن يحمِّلها الكثير من التوصيفات الاجتماعية والهموم الثقافية (كأنه شاعر غنائي)، وينزع دائماً إلى التجريد والومضة الشعرية التي تُضيء القصة بمجملها وتسقط ركام التوصيفات إن وجدت، وهي قليلة كما ذكرنا.

هذه المجموعة، تتناول مآسي الحروب وضحايا الديكتاتورية والقمع بوضوح دون أن يُنقص ذلك من فنيتها وسحرها، ودون أن يغيب صدق التجربة والتقاط

صور طازجة تصلح مجازاً لهواجس طازجة أيضاً، فإضافةً إلى قصة السيدة منال وحرية النساء في مجتمعنا، هنالك قصة بعنوان "اعتذار ناقص" تتوجه فيها فتاة يافعة برسالة إلى زوجة أبيها الطيبة بعد أن تسببت هي وأخوتها بموتها... لمن هذا الاعتذار يا ترى؟ من يقصد الكاتب بزوجة الأب الطيبة التي أساء أبناؤها إليها، ولم يقبلوا بها رغم حنانها ومحبتها والمستقبل الجميل المختلف التي كانت ستصنعه لهم؟.

"ابقَ حيث الغناء، فالأشرار لا يغنون"، هذه القيم التي تربينا عليها، أصبحت أيضاً موضع شك؛ في زمن التكنولوجيا المتسارعة، والموت الصامت، وجشع الليبرالية الجديدة التي مسخت كل القيم، وحوّلت الناس إلى فئران يركضون خلف قطع الجبن الفاسدة المغلفة بأوراق خضراء، وفي هذا السياق أتذكر نجيب كيالي أستاذاً للغة العربية في مدرستي الثانوية، وأتذكره يلاحقني ويسألني: أين قصائدك؟، قد يتساءل قارئ: ومتى كانت القصائد حلاً للمشكلات؟، ولكن قد يتساءل آخر: ومتى لم تكن؟، لا سيما إنْ كان شخصاً كثير الشرود تأتيه العصافير بأنباء الناس مثل نجيب كيالي.

*الكتاب: دير القصائد، المؤلف: نجيب كيالي، الناشر: دار موزاييك، في اسطنبول، 2021، عدد الصفحات: 131 صفحة من القطع المتوسّط.

أوراق الدراسات

نحو مراجعة ونقد سرديات الثورة السورية المغدورة

الدكتور عبدالله تركماني

باحث سوري

المحنة السورية اليوم هي مآل لعقود خمسة من العيش القسري وسط القمع الممنهج وأقبيته، إنها نهاية رهانات أخيرة لجيل من أتباع خطابات شعبوية، تقدس الفرد القائد، وتحوّل الفساد والكذب مدماكين لبناء الولاء وتكوين القاعدة "الجماهيرية" وتجييشها.

إننا نعيش، منذ الحراك الشعبي في آذار/مارس 2011، زلزالاً شاملاً، لا بدَّ من دراسته بروية ونظرة نقدية واستخلاص دروسه وعبره. فبعد المحنة السورية بات واضحاً وضرورياً حاجتنا إلى مواجهة الذات بمصداقية وعقلانية، من أجل تجاوز السلبيات التي تنتشر في بنياننا السياسي والثقافي، والعمل بكل جهد مخلص لإصلاحها بما يحقق الصالح السوري العام.

إننا نتهرب من تحمّل المسؤولية وإلقائها على الغير، ونتحدث عن المؤامرات التي تُدبر من الخارج لتغطية العجز عن التدبير في الداخل، ولا نقرُّ بالهزيمة لكي نتعلم من الأخطاء ونستفيد من التجارب والشواهد. هذا دأبنا في مساعينا السورية: نتستر على الآفات التي هي أصل المشكلة، ونُرجئ فتح الملفات التي تحتاج إلى الدرس والنقد.

النظام الاستبدادي الذي ألّه الفرد الحاكم، وامتهن كرامة الشعب وأذلّه وأرعبه بالقمع الوحشي، وأشاع الفساد، واضطهد الأحرار، وأعطى دوماً القدوة السيئة في الكذب والتزوير والتعصب والمحاباة، وفرّط في استقلالية القرار الوطني. هذا النظام الفاسد هو الذي أهدر قوانا حين تعامل مع مطالب الشعب من أجل الحرية والكرامة بالرصاص الحي والبراميل المتفجرة، مما أدى إلى مئات الآلاف من خيرة المواطنين الذين عُذّبوا وسُجنوا أو قُتلوا أو نزحوا عن ديارهم أو أُجبروا على الهجرة واللجوء.

ولكن فلننظر إلى واحد من معوّقات تقدمنا، وهو الفرق بين الكلمة ومعناها، بخلاف الوضوح والتطابق بين المعنى المقصود منها في ثقافة عصرنا، وهو الشرط الأساسي لعدم التشرذم في الحركة الاجتماعية المساندة لتحقيق أي هدف عام، وهو الحبل الذي يربط المجموع ببعضه، فحين يقع التضارب بين الكلمة المنطوقة ومحتواها الفعلي يحدث التشوش، والتفكك، والتقاعس، واللامبالاة، وعدم الجدية، وضياع الالتزام.

كلما تابعنا نزيف الدم السوري تأكد لنا أكثر من أي وقت مضى أنّ هناك طريقاً واحداً وسبيلاً واضحاً، وهو القيام بعملية مراجعة شاملة لجوانب حياتنا ومواجهة شُجاعة مع مشاكلنا ومصارحة أمينة لشعبنا الذي لا يقتات بالشعارات ولا يعيش بالأحلام ولا تقوده الأوهام، إذ لا بدَّ من وعي صادق ومكاشفة كاملة تطفو فيها الحقائق على السطح وتختفي منها الازدواجية التي نعيش فيها.

إذ لا يمكن الاستمرار على النهج القديم، الذي أدى بالحراك الشعبي السوري إلى إضاعة البوصلة والطريق. الاستمرار في تجاهل الواقع، ونكران التحولات العميقة التي شهدتها مسيرة الصراع من أجل الحرية والكرامة على عموم الأرض السورية، لا يساعد على التقدم ولا يفتح أي طريق سالك من أجل إنقاذ رهانات الشعب السوري الأساسية، وإيجاد شروط خروج الملايين من أبنائه من حياة التشرد اللاإنسانية.

عشر سنوات ونيّف على انطلاق الحراك الشعبي فترة ليست قصيرة لاختبار أحوال المؤسسات الرسمية للمعارضة وقدراتها، وللتأكد من عجزها وتقصيرها في مواكبة الحراك، وفي بناء قنوات للتواصل والتفاعل معه ومده بأسباب الدعم والاستمرار، وهي ثغرة كبيرة لثورة، جاءت مفاجئة وعفوية، وعطشى لقوى سياسية تقودها، ولشخصيات ورموز تاريخية تتصدر صفوفها.

فبخلاف ما كان ينبغي أن يكون عليه الخطاب السوري المعارض، من جدية ومسؤولية وقدرة على توصيف الواقع وتحديد مشكلاته، ووضع الحلول لها، ودفعها على طريق التنفيذ عبر خلق أدوات وآليات تنفيذية. فقد بقي خطاب عام، لا يذهب إلى المطالب

المحددة، ويركز على الشعارات العامة، بدل أن يركز على المطالب والأهداف ذات المحتوى. وهو خطاب صراعي، يخوض في الصراعات، أكثر من ذهابه إلى التوافق. وتفصيلي، أي أنه يخوض في الجزئيات دون أن ينظر إلى روابطها بالقضايا العامة. وملتبس، بحيث تُفهم منه في بعض الأحيان أشياء غير تلك التي يقصدها أصحاب الخطاب، بل إنه في أحيان يتضمن التناقضات بحيث يصير المتلقي عاجزاً عن معرفة الهدف من الخطاب.

لا نستطيع إعادة تكرار التاريخ وصنعه على طريقة سابقة، إننا نقرأ التاريخ لاستيعاب الحاضر، فالماضي مضى وانقضى، ولكنه شكّل الحاضر ويحاصره ويؤثر في المستقبل حتى يكاد يصنعه على صورته. ولأنّ قراءة الحاضر مُختلَف عليها، فإنّ قراءات الماضي أيضاً متعددة ومختلَف عليها، ولم يعد غريباً القول: إنّ لنا تواريخ وليس تاريخاً واحداً، والقراءات المتعددة للتاريخ مشروعة. لذلك، علينا الكف عن محاولة حشر أنفسنا في صياغة سردية واحدة لثورتنا، لأنّ الواحدية شكل قمعي لكل أنواع التطلع الجمعي للبشر، لا بالمعنى السياسي فحسب، بل بالمعنى الفكري الأشمل.

للوصول إلى هدفنا، علينا العمل على محاور أربعة:

– محور داخلي يحدد صورة النظام البديل الذي يريده الشعب السوري، ولا يكفي أن نقول إنه سيكون ديمقراطياً، ولا بدَّ من تحديد نمط دولته، الذي سيقوم بتوافق جميع المكوّنات الوطنية السورية.

– فتح باب الحوار مع جميع قوى الداخل والخارج، للتفاهم على محددات للعمل الوطني. هذه المحددات هي حاضنة يضع الجميع تفاصيلهم العملية والنظرية في ضوئها، ويرون أنفسهم وغيرهم بدلالتها، ويلتزمون بها نواظم عمل وطني يعني خروجهم عليها تخريبه.

– تشكيل قيادة سياسية موحدة، تكوّنها التنظيمات المدنية والديمقراطية التي برزت خلال الأعوام العشرة الماضية، ترسم سياسات تغطي جميع جوانب الواقع، تتضمن خيارات صريحة.

– لا بدَّ من تحوّل في الساحة الوطنية، يحقق هدفين رئيسيين: أولهما، توحيد القوى الميدانية بجميع فئاتها وأصنافها، عدا تلك التي ترفض هدفي الثورة: الحرية والدولة الديمقراطية. وثانيهما، توافق المعارضة السياسية على حل سياسي يفضي إلى هيئة حاكمة انتقالية تمهد لمرحلة التحوّل الديمقراطي.

ولكن، ليس المطلوب، اليوم، تنظيماً جديداً، يكرر مثالب وأخطاء تنظيمات المجلس الوطني والائتلاف، ويشجع على مزيد من الانقسام والتناحر والتنازع على القيادة والمناصب والمحاصصة، إنما المطلوب فريق من قيادات المعارضة وأصحاب الخبرة والكفاءة والمصداقية، عابر للتشكيلات القائمة، وبالتالي، مكمِّل وموحِّد لها، وليس نافياً ومناقضاً، يضع خطة للعمل، ويباشر في تنفيذ برنامج واضح ومتفق عليه للخلاص الوطني، تحت إشراف الرأي العام السوري ومراقبته.

يحتاج السوريون اليوم للتوافق على سردية واضحة ومتكاملة للانتقال السياسي المنشود، على ضوء المعطيات الواقعية الحالية، التي تقوم على البحث عن كيفية إيقاف محاولات تعويم النظام، وتحويل مساعي الأطراف الدولية والإقليمية إلى عوامل قوة من أجل إنجاز العمل في اتجاه التغيير المطلوب.

مما يتطلب سياسات جديدة، تقوم على توحيد الصف، والعمل على تجميع السوريين من جديد، وتوسيع دائرة مشاركتهم وانخراطهم في نشاطات السياسة الهادفة إلى تقريب ساعة الخلاص. كما يحتاج إلى تنظيم أفضل للطاقات والجهود، وتفعيل للجاليات السورية في كل مكان، وتجديد للخطاب السياسي والإعلامي، بحيث تكون الثورة بالفعل لكل السوريين، ولحماية أرواحهم ومصالحهم، والخروج بخطة عمل واضحة، تهدف إلى استعادة جزءٍ من المبادرة المفقودة، وإعادة تعريف الأهداف المرحلية والبعيدة، وحل

المشكلات الثلاث الكبرى العالقة: مشكلة القيادة، واستقلال الموارد التي لا قرار شبه مستقل من دونها، وتعزيز وطنية القرار.

ولأنّ الاستبداد والتسلط بنية وليس مجرد فرد أو نظام، فإنه ما لم يهتدِ السوريون إلى أنّ تأسيس الانتقال الديمقراطي ينبغي أن يرتكز على ضمان الحريات الشخصية والعامة، وتداول السلطة، والحريات الدينية والسياسية للمواطنين، وإبعاد الدين عن أن يكون "كهنوتاً سياسياً" ومادة للدعاية الانتخابية والحزبية، فإذا لم تتوجه سورية نحو الخيارات السابقة ستبقى بنية الاستبداد قائمة مهما تنوعت أشكاله. وبالتالي فإنّ نجاح الثورة السورية في تحقيق أهدافها لا يقاس – فقط – بقدرتها على الإطاحة بنظام الاستبداد بقدر ما يقاس بقدرتها على إقامة نظام بديل لذلك الذي قامت من أجل إسقاطه.

ومن خلال استجلاء ملامح خبرة مجهضة خاضتها حركات التغيير الديمقراطي في العالم، يمكن التوقف أمام عدد من الدروس المستفادة، ومنها:

(1) التخلص من وهم التغيير السياسي السريع، فمع أنّ هناك فرصاً تدفع في اتجاه التحوّل الديمقراطي، إلا أنها تحتاج إلى عمل تراكمي متواصل.

(2) التخلص من وهم أنّ التغيير سيحمل حتماً الديمقراطية، فليس ثمة ضمان أن يؤدي التغيير السياسي حتماً إلى تحقيق الديمقراطية.

إنّ العبور من الاستبداد إلى الديمقراطية لا يعني تغيير الحاكم، أو وجوه الحاشية، أو استبدال عصابة بجماعة، وجماعة بعصابة. التغيير ليس صناديق انتخابات فحسب، بقدر ما هو تفكيك بنية استبداد حاكمة، وهذا لن يتم بمجرد تنظيف الواجهات بينما يبقى العفن يحتل البيت، ويعيد إنتاج المستبد كل مرة بوجه جديد.

إنّ خذلان المجتمع الدولي للشعب السوري، ونكرانه لمبادئ الشرعة العالمية لحقوق الإنسان، وتنصّله من واجباته في حماية المدنيين السوريين، من الموت والدمار في

البراميل المتفجرة والسلاح الكيماوي المحرّم دولياً، إضافة إلى معاناة اللاجئين منهم في بعض دول اللجوء، جعلهم يدركون أنّ حقوق الإنسان السوري أضحت موضوعاً في السياسات الإقليمية والدولية، أي مجالاً إضافياً تتفاعل من خلاله الدول طبقاً لعلاقات القوة والمصلحة وتقاسم النفوذ. ما يعكس ازدواجية معايير المجتمع الدولي، والتلاعب بالحقوق الإنسانية، لتحقيق مصالح أنانية للدول المؤثرة في المسألة السورية.

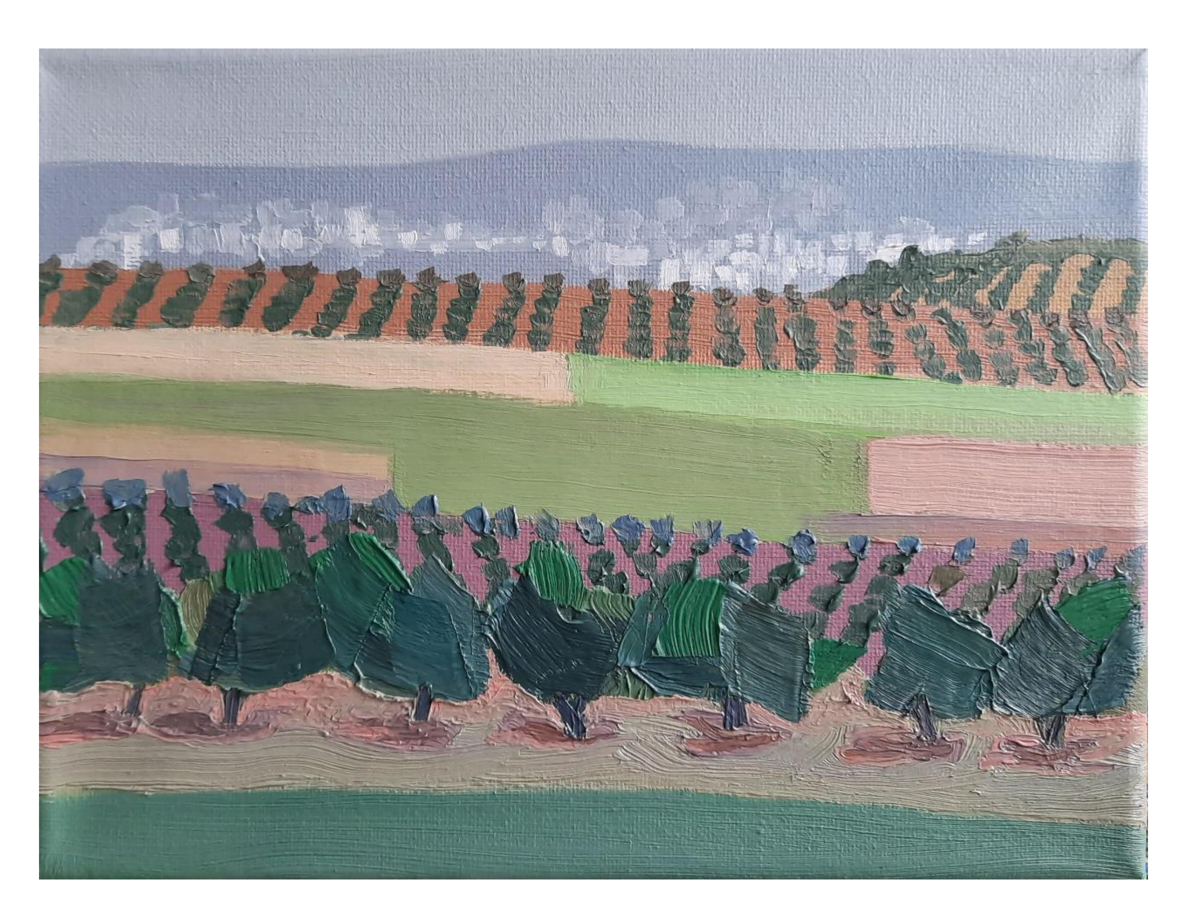
وبالرغم من خذلان المجتمع الدولي من المؤكّد أنّ تجسيد حقوق الإنسان في سورية بعد إنجاز عملية الانتقال السياسي، لن تظهر نتائجه إلا بضمان تقريرها في مقدمة الدستور القادم، باعتبارها مبادئ محصنة، غير قابلة للإلغاء في أية دساتير لاحقة. مما يستوجب المعالجة الجدية لتفعيل الممارسة الفعلية لحقوق الإنسان، من خلال التعاطي المجدي مع الإشكاليات التالية: إدراج أحكام الشرعة العالمية لحقوق الإنسان في النظام القانوني لسورية ما بعد التغيير، بحيث تكون ملزمة، وإمكانية إثارة أحكام الشرعة العالمية أمام القضاء السوري.

الرهان هو أن نتغيّر في ضوء المتغيّرات، فكراً وعملاً، رؤيةً ومنهجاً، سياسةً واستراتيجيةً، بحيث نتغيّر به عما نحن عليه، لكي نحوّل الواقع. وذلك يتوقف على قدرتنا على تشغيل عقولنا المصادَرة وصرف طاقاتنا المشلولة واستغلال مواردنا المنهوبة بصورة مثمرة، فعّالة وراهنة، بما نخلقه من الوقائع أو نحققه من الإنجازات أو نحدثه من التحولات في غير مجال من مجالات الحياة.

وعليه فإنّ طموحات الشعب السوري للحرية والكرامة تعني بالضرورة كسب المعركة ضد التأخر السياسي بكل أشكاله، ذلك أنّ الإرادة السياسية لبناء دولة الحق والقانون هي "المتغيّر المستقل" الذي يقود وراءه مجموعة كبيرة من المتغيّرات التابعة في جوانب الحياة كافة.

وربما يكون السؤال الصعب الذي يواجهنا اليوم هو: كيف نعيد المعنى إلى قضايانا ونبني حداثتنا ونثبت الأمل بدل اليأس، وأن نبدأ التفكير بأقل ما يمكن من الانفعال وأكثر ما يمكن من العقل لتحديد معالم مشروع الجمهورية السورية الثالثة؟

إذ يمنح التاريخ للأمم لحظات حاسمة من حياتها حتى تقف أمام الحقائق العارية لاستخلاص الدروس الكبرى لمواصلة البقاء، فإننا أمام لحظة فاصلة يتحتم فيها على السوريين أن يحسنوا استشراف ما هو متوقع ومحتمل، بعيداً عن التمنّي والرجاء، وبعيداً عن الاستغراق في الأوهام.



من أعمال الفنان خير الدين عبيد

عن الشرعية والتجانس الاجتماعي

موفق نيربية

سياسي وكاتب سوري، رئيس المنتدى الأوروبي السوري الديمقراطي.

تحرص البيانات والاتفاقات الخاصة بسوريا وعمليتها السياسية أو الدستورية على أن تذكّر دائماً وأولاً بوحدة الأرض والشعب والسيادة، إضافةً إلى اشتقاق الاستقلال والاستمرارية أيضاً من تلك الوحدة المثلثة. فيما يلي محاولة لتقليب الأمر في هذه المقالة، بالارتباط مع الشرعية أولاً، ومع مفهوم التجانس وتنويعاته ثانياً.

قبل هيمنة الحداثة، كانت الدولة في العصور الوسيطة تقوم على سلسلة الولاءات الشخصية، المتداخلة مع الدين والقَبَلية والسلالات والإقطاع وغيرها. كان احتكار السلطة متمركزاً وأقلّ تحديداً. في حين جاءت الدولة الحديثة بمؤسساتها بعد ذلك، منطلقة أيضاً من احتكار العنف الداخلي والخارجي، ولكن بشكل تزايدت حدوده ومحدّداته من خلال الدساتير والقوانين. ثم تبلورت وحدة الأرض والسيادة والسكان، مع هيمنة" عقيدة العناصر الثلاثة" هذه في علم الاجتماع السياسي في العصر الحديث.

لاحقاً، صار لتلك العناصر الثلاثة مركز أساسي في دراسات "الشرعية"، النظرية أو المتعينة أو فيما يخص دولة محددة ونظام حكم ما.

في حالتنا السورية، كان النظام السوري معتمداً على السلالة أولاً، ثمّ على العشائرية والطائفية في تأمين سيطرته واستقراره، مروراً بتأمين كتلة محدودة ولكن فاعلة من المعترفين بشرعيته وهيمنته. وحين انفجرت الأحوال مع ثورة 2011، لجأ على الفور وبشكل صريح إلى تدمير الوحدات الثلاث: الأرض والسيادة والسكان. ومع عملية التحطيم هذه، تراجع حجم تلك الكتلة البشرية- محلياً ودولياً- التي تقرّ بشرعيته إلى

حدود أدنى، وعوّض عنها بأشكال تعود إلى العصور الوسطى في طريقة تحشيد المدافعين عن وجوده واستمراره أو مستقبله.

من الواضح أن نظام الأسد وسياساته المتوحشة، بالتداخل مع السياسات التطبيقية للدول الداعمة للتغيير بعد بداية الثورة، وخصوصاً من بين الدول الإقليمية، قد لعبت الدور الرئيس في تفتيت وحدة الأرض السورية، وتحويلها إلى موزاييك من مناطق ثلاث أساسية وأخرى فرعية لا تُحصى بسهولة أبداً.

أما فيما يخصّ مفهوم السيادة، وبغضّ النظر قليلاً عن الجانب الخارجي منها؛ الذي يمكن بناؤه ولو بشكل محدود من خلال دول داعمة كروسيا وإيران والصين، إضافة إلى تحفّظ الدول المعترضة على الأسد ونظامه أيضاً، ولكنها تحفظ للدولة السورية بعض مقوماتها دَرْءاً لانهيارها بضجيج كبير؛ فإنّ النظر إلى الوضع في المناطق التي تقع تحت سيطرته، ورؤية تعدّدية السلطات المحلية من ميليشيات وعائلات وعشائر وأمراء وتجّار حرب إضافة إلى بؤر مهمة للروس والإيرانيين وحزب الله، يصل بسلاسة إلى استنتاج تفسّخ تلك "السيادة"، إضافة إلى تراجع احتكار العنف بقوة... وبالطبع لا "يسود" النظام باعتباره سلطة الدولة المعنية في شمال- شرق وشمال- غرب البلاد. وإذا أضفنا السماء إلى الأرض لتحديث المفهوم، يظهر أيضاً أن النظام لا يسود سماء سوريا عي الإطلاق، بل هو الأضعف قياساً إلى الهيمنة الروسية والأمريكية والإسرائيلية والتركية.

كذلك لم يقصّر نظام الأسد في تمزيق السيادة الوطنية في الاتّجاهين الداخلي والخارجي، على الرغم من لجوئه إلى المفهوم دائماً ليطلب من الآخرين أن يُخلوا بينه وبين شعبه ومقدّراته ليفعل بهما ما يشاء، قتلاً وقمعاً وتدميراً. فهو قد أنهى ما يمثّله مبدأ احتكار الدولة للعنف الحيادي والقانوني، لحساب عنفٍ وحشي وشخصي وطائفي أو إثني، وعصبوي في كلّ الأحوال. كما أنه قام بتوكيل جماعات أهلية وميليشيات أجنبية بممارسة العنف الذي ضعفت قدرته على تنفيذه. أما السيادة الوطنية بالعلاقة

مع الخارج، فقد أنهاها أيضاً لحساب الروس والإيرانيين وقوى أخرى هجينة كحزب الله، وكان له الدور الأول في إفساح المجال للوجود العسكري الأمريكي والتركي والإسرائيلي أيضاً، وفي واقع الحال، الأمر الذي لم ينه استقلال البلاد وحسب، بل جعل استعادته بشكلٍ كامل في منتهى الصعوبة والتعقيد.

إلّا أن الأنكى هو ما صدر عن النظام بشأن العنصر الثالث: السكان. هؤلاء تعرّضوا لتهجير سبعة ملايين تشرّدوا في الأرض خارج بلادهم، وربّما مثلهم تشرّدوا في الأرض خارج مواطنهم، داخل بلادهم. وأحكم تمزيق وحدتهم بكلّ وسائل الممارسة العنصرية دينياً وإثنياً، بالإرهاب والتهجير والهندسة الديموغرافية، حتى يزيد على الناس صعوبة ترميم الفتق ورتقه في المستقبل. وفعل ذلك بقتل وتعويق مئات الآلاف، علي الأقل، وتدمير جزء كبير من مساكنهم الأصلية. وهاهم الآن من بقوا في داخل الحدود موزّعون على مناطق ثلاث، يعمل كلّ الوسطاء والمتدخّلون حالياً على تثبيت الحدود والفصل بينها. ويفعل الاجتماع والاقتصاد السياسي وعلم النفس الاجتماعي جميعاً على تعميق الفروق في مواصفات العيش في تلك المناطق، إضافة إلى مفعول سلطات الأمر الواقع هنا وهناك، التي تؤسس وحدة جديدة لسكانها... على هواها.

بتدميره لعناصر الدولة الثلاثة، أنجز النظام بنفسه تعريض شرعيته؛ المتحققة بما بقي له من عضويته في الأمم المتحدة؛ للخلل، معتمداً على شرعية بديلة مستندة إلى الغلبة والعنف الفاجر ومعادلات الصراع الإقليمي والدولي على ما بقي من البلاد ومقوّمات وجودها. وقد اعترف الأسد بلسانه بمسؤوليته عن كلّ شيء عندما تكلّم عن "التجانس" الذي حققه بحربه على شعبه.

قال الأسد في آب 2017 مرتجلاً؛ بعدما اعتقد أنه انتصر بشكل نهائي وحسم الأمر: "... خسرنا خيرة شبابنا وبنية تحتية كلفتنا الكثير من المال والكثير من العَرَق لأجيال... صحيح... لكننا بالمقابل ربحنا مجتمعاً أكثر صحةً وأكثر تجانساً بالمعنى الحقيقي وليس بالمعنى الإنشائي أو بالمجاملات!".

يقول كارل شميت، فيلسوف النازية، في الثلاثينات من القرن الماضي: "التجانس هو أكثر الافتراضات والأسس التي لا غنى عنها لمفهوم القيادة السياسية للشعب الألماني الموحد. إن فكرة العِرق ... ليست افتراضاً خاملا من الناحية النظرية. بدون أساس من التجانس، لا يمكن للدولة القومية الاشتراكية أن توجد، وستكون حياتها الشرعية غير واردة ... تتقاطع جميع الأسئلة والأجوبة مع مطلب التجانس، الذي لا يمكن من دونه أن تعيش (الدولة القائدة) ليوم واحد".

لم تكن مجرّد زلّة لسان من بشار الأسد- أو حذلقة غبية- على الإطلاق، بل هي نوع من انكشاف المستور! والذي هو حقيقة أن السلطة الأسدية كانت دائماً تعمل على تطبيق نظام معايير غير متجانسة على مجتمع متنوع بدوره غير متجانس، وحين أثبتت الثورة السورية فشل تلك السلطة وحتمية تفككها وتحلّلها، لجأت إلى الخيار الصفري، خيار تحويل المجتمع نفسه إلى حالة متجانسة بالقتل والتهجير. في حين أن الدول الحديثة كلّها تقوم على نظام معايير متجانسة (Homogeneous) لمجتمع متنوع وغير متجانس (Heterogenerous).

في 22 آب/أغسطس من عام 1933 الحاسم، قبل قليل من استفتاء أعطى سلطات استثنائية لهتلر، استشهد هايدغر في رسالته الحميمية إلى كارل شميت تعليقاً على كتابه "مفهوم السياسي"- وكانا كلاهما من كبار المفكرين في الحزب النازي- وقال: "إن الثورة القومية- الاشتراكية ليست مجرد استيلاء على السلطة الحالية في الدولة من قبل قوة أخرى نمت بما يكفي لتقوم بدورها. من أجلها، ولكن هذه الثورة أيضاً قد جلبت الانقلاب الكامل لتعيين الوجود الألماني".

وبالمناسبة، وعلى الرغم من كون هايدغر أحد أهم فلاسفة القرن العشرين وخصوصاً في حقل الفلسفة الوجودية والظاهراتية والتأويل، إلّا أن رجوعنا إليه هنا هو على خلفية دعمه للانقلاب الهتلري، ولدعاوى التجانس الاجتماعي النازية أيضاً. وهو أشاد كثيراً وفرح باستشهاد شميت بهيراقليطس وقوله "إن الحرب هي أبو كلّ شيء، ومَلِك كل

شيء. إنها تثبت أن البعض آلهة والبعض الآخر مجرّد بشر، وتجعل البعض عبيداً والبعض الآخر أحراراً ...".

افتراضات بشار الأسد نافلة وعنصرية محضة، وبالفعل، لا يستحق الأمر كلّ هذا العناء!



هشاشة وقصور الفكر القومي

مصعب قاسم عزاوي

طبيب استشاري في علم الأمراض. مؤلف ومحرر للعديد من الكتب والأبحاث والدراسات باللغتين العربية والإنجليزية.

قبل الدخول في معترك تحليل عناصر قصور الفكر القومي على اختلاف أشكاله وتلاوينه وتمظهراته، لا بد من الاعتراف بالفضائل الأساسية للنزعات القومية حينما كانت وتكون محركاً ودافعاً لمجتمعات ومجموعات بشرية في سعيها للانعتاق من مستعمريها المباشرين أو وكلائهم في حركية جوهرها مقاومة هيمنة الأقوياء على المستضعفين وإدامة التغول على حيواتهم وأرزاقهم وحقوقهم الأساسية، كما كان الحال في صيرورة تكوين الكثير من حركات التحرر الوطني في عموم أرجاء الأرضين، وتضحياتها اللامتناهية في محاولات انطوت على الكثير من النوايا المخلصة للتخلص من أحابيل الاستعمار الاستيطاني المباشر أو غير المباشر بالوكالة، والتي لأسباب ذاتية وموضوعية تاريخية وبنيوية لما تترجم في غالب الأحايين إلى أي نموذج فعلي من الانعتاق والتحرر المنشود في تلك المجتمعات التي بزغ فيها زخم الفكر القومي واشتد عوده.

وبعد تلك المقدمة التي لا بد منها يتحتم إعادة الاعتبار للبوصلة المعرفية المنهجية في تحليل عناصر القصور والضعف التكويني والمنهجي في بنيان الفكر القومي، والتي قد يكون أسها هو الآلية التي نهض فيها الفكر القومي ومفهوم القومية في أوربا أساساً في مرحلة نهوضها الاقتصادي في خواتيم العصور الوسطى التي انتهت في القرن الخامس عشر الميلادي مشخصة بأفول الدولة التي أسسها المهاجرون من بلاد الشام وشمال أفريقيا في الأندلس، ونكوص تأثيرهم الاقتصادي والسياسي، بالتوازي مع نهوض اقتصاديات الممالك الأوروبية التي تمكنت من عزل دور الممالك والإمارات في حوض

البحر المتوسط، وخاصة تلك التي كانت خاضعة لحكم المماليك في خط التجارة العالمية الأساسي الذي كان يبدأ في شرق آسيا في الصين وشبه القارة الهندية، والذي كان لا بد له بأن يمر عبر ما عُرف بطريق الحرير والأراضي والطرق البحرية في حوض المتوسط ليصل منها إلى أوروبا، وذلك بعد تمكن البرتغاليين في حملة فاسكو ديغاما من اكتشاف سبيل للوصول إلى شرق آسيا من أوروبا عبر الالتفاف حول القارة الأفريقية في منطقة رأس الرجاء الصالح؛ وهو التحول الذي أدى إلى صعود اقتصادي متسارعٍ في القارة الأوربية ازداد شمولاً واتساعاً مع اكتشاف الأوربيين للقارتين الأمريكيتين وبدئهما في عملية الاستغلال الوحشي والبربري للبشر والموارد فيهما. وذلك الصعود الاقتصادي المتسارع ضمن حدود القارة الأوروبية أفصح عن نفسه بتعاظم القدرات الاقتصادية لبعض الأمراء هنا وهناك على زيادة قدراتهم على حشد المحاربين من المجندين المرغمين بحكم إقامتهم في الفضاء الجغرافي لنفوذ ذلك الحاكم أو ذاك، أو المرتزقة من عديد الفقراء المهول الذي كان لا بد لهم من البحث عن أي عمل، حتى لو كان بالارتزاق كمحاربين مأجورين لدى من يستطيع تأمين قوت يومهم.

وذلك الواقع استمر في تكريس وضوحه متكاملاً في سلسلة الحروب الوحشية البربرية التي خاضها الأوربيون فيما بينهم منذ القرن الرابع عشر وحتى القرن العشرين، والتي كانت الحربان العالميتان الأولى والثانية آخرهما، مروراً بسلسلة الحروب الدينية التي لم تنتهِ بين البروتستانت ممثلين للبرجوازيات الصاعدة، وبين الكاثوليك الممثلين للطبقات الإقطاعية الملكية المتواشجة العرى مع هيكل الكنيسة بنيوياً ووظيفياً، والتي قد يكون أبرزها من ناحية الامتداد الزمني حرب المئة عام بين المملكتين في فرنسا وإنجلترا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

وتلك السلسلة التي لم تنقطع من الحروب البربرية الوحشية، كانت في جوهرها صراعاً همجياً بين الأغنياء والأقوياء لتعظيم ثرواتهم وحيازاتهم، والتي كان نموذجها العياني المشخص آنذاك يكمن في مساحة البقعة الجغرافية التي يهيمنون عليها، وخاصة

الأراضي الزراعية، ومن يعمل بها من الفلاحين الذين لم يكن يشكل أي فرق في طبيعة حيواتهم البائسة أن يتحكم بمصائرهم وطبيعة معاشهم اليومي ذلك الدوق أو الأمير أو الملك أو ذاك.

و قد يستقيم القول بأن ذلك النموذج من الصراع بين الأقوياء بدماء وأجساد المستضعفين مثل تفلتاً من كل عقال بنيوي مبتنى في عمق دارات بني البشر الدماغية التي تم اصطفاؤها وتنقيتها وتشذيبها في صيرورة الاصطفاء الطبيعي لبني البشر، والتي كان أحد أهم ثوابتها الميل العفوي للابتعاد عن أي صراعات جانبية لا تخدم الهدف البيولوجي الأسمى للكائن البشري المتمثل في نقل مورثاته إلى ذريته، وحماية تلك الذرية من الاندثار جوعاً أو تشريداً أو بسبب فقدان من يعيلها، وهو مرغم على الانخراط في حروب تتم بدماء المفقرين المستضعفين، ولا يحصد ثمارها سوى الأقوياء الأغنياء؛ وهو التناقض الذي كان لا بد من حله تلفيقياً عبر اصطناع صدع يجرم العقيدة الدينية لأولئك الأفرقاء الآخرين المناجزين المصارعين على كعكة الثروة والسلطة، في نسق يضع المتحزبين في فريق المنتصر في حيز المحظيين عند ذلك المقدس الكامن في عليين، كمقدمة لغفران كل ذنوبهم وتصعدهم إلى الجنة الموعودة بعد أفولهم من حيواتهم الدنيا، وهو ما كان يتم استخدامه بأقصى قدراته التأثيرية المعنوية و الإيحائية لخدمة الفئات التي كانت تحصد ثمار الانتصار العياني المشخصة عبر تعظيم ثروتها، وزيادة قدرتها على استدامة هيمنتها على حيوات البشر الذين تتحكم بهم.

وذلك النسق التلفيقي المستنبط كان المقدمة لذلك النموذج المهول من الصراع بحجة الدفاع عن المسيحية الحقة بين الكاثوليكيين والبروتستانتيين الذي استمر محركاً لهمجية وعدمية تقتيل الأوروبيين لبعضهم حتى منتصف القرن التاسع عشر، وإلى حد ما حتى اللحظة الراهنة بشكل غير معلن جهاراً نهاراً فيما يحدث في بوتقة الصراع في إيرلندا الشمالية.

وعقب تلك المرحلة التي ترافقت مع اشتداد عود الرأسمالية بشكلها الاستعماري الإمبريالي بشكل غير مسبوق، كان هناك طور جديد من صراع الأقوياء الأثرياء على حصتهم من كعكة السلطة والثروة بدماء الفقراء المقهورين وعلى حسابهم تمثل في فقدان القدرة التأثيرية لتلفيقات خطاب واجب الفقراء المقدس للتضحية بنفسهم في حروب الأثرياء دفاعاً عن الصورة الحقة للمسيحية الخالصة وكنيستها، نظراً لبدء الأثرياء من نفس الفريق الديني المذهبي بالصراع فيما بينهم، ممثلاً ببدء الصراع بين المنتسبين إلى فريق الكاثوليك أو البروتستانت كما كان في الاحتراب الدموي بين الهولنديين والإنجليز المنتسبين إلى المذهب البروتستانتي على حصتهم في الاستعمار الوحشي والبربري الهمجي لشعوب المستعمرات في أفريقيا وآسيا والتي بدأت حوالي النصف الثاني من القرن الثامن عشر، واشتد سعارها في القرن التاسع عشر. وهي المرحلة التي تزامنت مع حقبة الثورة الفرنسية التي تمخض جبلها التحرري في جوهره عن مسخ فكري قوامه أن مبادئ الثورة الفرنسية القائمة على «الحرية والعدالة والتآخي» صالحة للتطبيق في حدود القارة الأوربية بشكل حصري، ولا ضير في التغاضي عنها، والقيام بكل الموبقات التي يقوم بها أنداد الفرنسيين الأثرياء الأقوياء في القارة الأوربية، وخاصة الإنجليز، من استعمار وحشي بربري لشعوب المستعمرات في غير موضع من عموم أرجاء الأرضين خارج القارة الأوربية؛ وهو ما كان مثاله الأكثر وصفية الحالة التلفيقية لكينونة «الإمبريالي المستنير» ممثلاً في مفاعيل شخصية نابليون بونابرت الاستعمارية، وخاصة حملته لاستعمار مصر. وذلك الواقع الجديد كان لا بد للأقوياء الأثرياء من التعامل معه بأدوات مستحدثة تترفع عن الحرب المُعَرَّفَةِ بأنها انتصار لذلك المذهب المسيحي على من يخالفه من هراطقة وزنديقين عبر استنباط فكرة القومية ممثلة في هوية «خلبية» مصطنعة لأولئك الذين تصادف خضوعهم لذلك الحاكم أو ذاك، ليصبح أولئك المتشاركون في خضوعهم لذلك الحاكم كما لو أنهم «قبيلة» موسعة يمثل الدفاع عنها وعن «رأسها وشيخها» دفاعاً عن حيوات كل الخاضعين لهيمنة وسلطة ذلك «الرأس»، في نسق تم تشذيبه ليصبح الموت في حروب عبثية يخوضها الملك في

فرنسا أو إنجلترا دفاعاً عن كيان تلفيقي مصطنع اسمه إنجلترا أو فرنسا تضحية سامية على مذبح الملكية وفكرة القومية الوليدة قيصرياً من رحمها «الوحشي الظالم»، بتعام عامد متعمد عن الحقيقة الثابتة بالتطابق شبه الكلي في مستوى بؤس حياة عموم الفئات الشعبية على ضفتي القنال الإنجليزي، و عدم ارتباط عمق معاناتهم السرمدية باللغة التي كان يتحدث بها من كان يمتص عصارة عملهم و كدحهم ضرائباً باهظة سواء كان منطوق لسانه إنجليزياً أو فرنسياً. وقد يكون المثال الأكثر نصوعاً على تلك الحقائق التاريخية هو انتساب العديد من ملوك إنجلترا إلى عوائل أصلها فرنسي، واعتبار اللغة الفرنسية اللغة الرسمية للطبقات الحاكمة في إنجلترا حتى وقت متأخر من القرن الثامن عشر، بالتوازي مع جلاء مدلول المقولة التاريخية لتعريف ملك فرنسا لويس الرابع عشر للدولة الفرنسية بأنها مختزلة في شخصه وكينونته، وقوله الشهير «أنا الدولة والدولة هي أنا».

وذلك التغاير الأخير في طبيعة وشكل وطريقة تقديم الأسباب التلفيقية لتبرير هيمنة الأقوياء الأثرياء على المستضعفين في أوربا وجدت تمظهرها العياني المشخص الأكثر وضوحاً في حركتين تاريخيتين عملاقتين. الأولى تمثلت في حركة توحيد الإمارات والمدن الإيطالية في سلسلة من الحروب الدموية التي بدأت في العام 1848 وحتى العام 1861 والتي كانت تمظهراً سياسياً وعسكرياً للتيار الفكري الذي كان العنوان العريض له باللغة الإيطالية «**Risorgimento**» والتي تعني باللغة العربية «البعث»، والتي كان جسدها الاجتماعي ممثلاً في عدد من الجمعيات السرية التي كان على رأسها جمعية «إيطاليا الفتاة» التي تم تأسيسها في العام 1831.

وهي فكرة «البعث» التي تلقفها حكام مملكة بيدمونت – ساردينيا **Piedmont–Sardinia** وهي مملكة تقع في الجزء الشمالي الغربي من شبه الجزيرة الإيطالية، وقاموا بمنحها بُعداً فكريا قوامه بأن «البعث» هو «إحياء لعظمة الإمبراطورية الرومانية السالفة»، وهو ما يجب تحقيقه بأي من الوسائل حتى لو كان ذلك عنوة و«بالقوة

العسكرية الصرفة». وهو «البعث» وتوحيد الإمارات والممالك والمدن المستقلة الإيطالية الذي تكامل بضم مدينة روما في العام 1871 معلناً تمام مهمة توحيد شبه الجزيرة الإيطالية في مملكة مستحدثة ضمت كل الأفرقاء وأبناء العمومة والخؤولة وأهل الجوار الذين طالتهم يد التوحيد العسكري الطولى، وتصادف عيشهم في الحدود الجغرافية التي تمكنت تلك اليد من الوصول إليها، والذين لم تكن نسبة المتحدثين منهم باللغة الإيطالية المعروفة حالياً تتجاوز 8% في أحسن التقديرات، حيث أن كلاً منهم كان يقيم في إقليم أو منطقة أو إمارة تتحدث بلغتها الخاصة التي كانت إما لغة بأصول لاتينية أو جرمانية، وهم الذين تم إرغامهم سواء بالقوة أو الترهيب أو الترغيب لتبني لغة إقليم توسكاني لتصبح اللغة الإيطالية الجامعة التي يتحدثها عموم الشعب الإيطالي راهناً.

وهي أفكار «البعث» و«إحياء رسالة الأمة الرومانية»، و«إرغام كل الأفرقاء على وحدة اندماجية في أمة إيطالية واحدة» التي تم تلقفها من قبل الشعبوي بينيتو موسوليني، الذي كان في شبابه «اشتراكياً ثورياً»، وعضواً ناشطاً في الحزب الاشتراكي في سويسرا، ومن ثم محرراً لإحدى أهم الصحف الاشتراكية في النمسا حتى العام 1909 قبل إبعاده منها إلى إيطاليا، ليصبح هناك أيضاً محرراً لأحد أهم الصحف الاشتراكية في إيطاليا حتى العام 1914، ليعيد استدماج رؤيته الاشتراكية المتمثلة في وجوب كون الدولة «المالك لكل وسائل الإنتاج والناظم لكل أهداف وحركية ذلك الإنتاج» فيما قد يستقيم النظر إليه بأن «الدولة هي الرأسمالي الأوحد في المجتمع»، مع مرتكزات نهج «البعث» الآنفة الذكر، لينتج منها نموذجاً فكرياً هجيناً هو «الفاشية» التي كانت مرتكزاتها الأساسية هي «الأمة الواحدة»، و«عظمة تلك الأمة»، و«تفوق المنتسبين إليها على غيرهم من المجموعات البشرية».

وذلك النسق الفكري السياسي والعسكري لمفهوم «الفاشية» بالشكل الذي قام بصقله موسوليني في إيطاليا، كان بمثابة «الحل السحري» الذي تلقفه الشعبوي والخطيب المفوه أدولف هتلر في ألمانيا لينقل به حزباً مغموراً اسمه الرسمي حزب العمال الألماني

القومي الاشتراكي والذي كان يعرف اختصاراً بالحزب النازي **Nazi Party**، والذي كان عدد أعضائه لا يتجاوز عدد أصابع اليدين، ليصبح قوة شعبية هائلة في ألمانيا تصعدت إلى هرم السلطة بانتخابات ديموقراطية، عبر استغلالها الشعبوي الحاذق والمتقن لمكامن النقمة الشعبية على حال عموم المجتمعات الألمانية عقب خسارة ألمانيا للحرب العالمية الأولى، وإلزامها من قِبل غرمائها الأوربيين على قبول معاهدة فرساي الجائرة مادياً ومعنوياً، وهي المعاهدة التي نظمت استسلام ألمانيا في نهاية الحرب العالمية الأولى. وفي الواقع وجدت الأفكار «الفاشية» طريقها في المجتمع الألماني بإخراجاتها على طريقة الحزب النازي بسهولة نسبية إذ أن المجتمع الألماني نفسه كان وليد عملية «توحيد قومي بالقوة» من أجل إحياء «عظمة الشعوب الجرمانية» والتي تكاملت في العام 1871 على يد أوتو فون بسمارك **Otto Von Bismarck** مستشار ولاية بروسيا الألمانية الأكثر قوة عسكرية واقتصادية بين الولايات الجرمانية الأخرى، وهو الذي أرغم مئات المدن والإمارات والبلديات الجرمانية المستقلة على «وحدة اندماجية قسرية» مع ولاية بروسيا **Prussia** الألمانية سواء بالقوة أو الترغيب أو الترهيب في استطالة سياسية واقتصادية وعسكرية تنفيذية لما أسس له تنظيرياً الفيلسوف الألماني فيخته **Fichte** في كتابه خطابات إلى الأمة الألمانية **Addresses to the German Nation** في العام 1808 والذي كان في جوهره دعوة لتوحيد المجتمعات الناطقة باللغة الألمانية، والتي يوحدها ويجمعها بحسب نهج فيخته الفكري «اللغة الواحدة» و«العادات والتقاليد المشتركة».

وتلك المقدمة السالفة حول الكيفية التي نهض بها الفكر القومي في أوربا وتعضت أطروحاته المعاصرة ضرورية ولا بد منها لأجل تفهم جذور أطروحات الفكر القومي العربي بدءاً من جمعية العربية الفتاة، والتي لا زالت ألوان رايتها الموزعة بين الأبيض والأسود والأحمر والأخضر تمثل العنصر التكويني لأعلام الكثير من المجتمعات العربية، وهي الجمعية التي انضم إليها عبد الله بن الشريف حسين، ومهد انخراطه بها لوقوع المجتمعات الناطقة بالعربية في حدود السلطنة العثمانية في حبائل احتيال

البريطانيين عليهم في مراسلات الشريف حسين واللورد هنري مكماهون ممثل بريطانيا الاستعمارية في مصر، لتحريض «العرب» على الانتقاض على حكامهم الظُلَّام الفاجرين من العثمانيين في لج الحرب العالمية الأولى، ليستبدلوهم بعد خسارة أولئك الأخيرين بمستعمرين من الفرنسيين والإنجليز أكثر وحشية وعسفاً.

ومن ناحية أخرى قد تكون أكثر حضوراً في حقبتنا الراهنة، فإن تلمس الصيرورة التي تكوَّن فيها الفكر القومي وتمظهراته السياسية في أوربا ومصطلحاته وأنساقه المفهومية والتبريرية والتوفيقية ضرورة لا بد منها لتَكَشُّفِ الآلية التي تم بها «استجلاب»، و«استيراد» التيارات السياسية الكبرى للفكر القومي العربي ممثلة أساساً بفكر «حزب البعث العربي الاشتراكي» لجل بناه الإرادوية والهجينة والقافزة فوق حقائق التاريخ من منابع الفكر الفاشي والنازي بالشكل الذي وضحناه سابقاً. وقد لا يحتاج أي متأمل حصيف لكثير من الجهد لإدراك الكيفية التي تم بها نحت شعار حزب البعث العربي الاشتراكي: «أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة» كما لو أنه تعريب بدائي غير متقن للعناصر الأساسية للفكر الفاشي سواء بشكله الأصيل في إيطاليا، أو بشكله المتلبس بقشرة من الاشتراكية التزويقية على طريقة حزب العمال الألماني القومي الاشتراكي أي الحزب النازي.

وقد يستقيم في هذا السياق الالتفات إلى قصور وعوار التأصيل للفكر القومي بالاستناد إلى تخرصات هرائية لا أساس علمياً لها من قبيل «النسب المشترك» و«الأصل المشترك» إذ أن جميع الكشوفات العلمية في مجال علم المورثات الحديث تشير إلى أن جميع بني البشر ينتسبون إلى مجموعة بشرية صغيرة من جنس بني البشر الحاليين في مملكة الحيوانات المعروف بهوموسابينس **Homo Sapiens**، وهو الجنس الحيواني الذي لا يتجاوز عمره التطوري مئتي ألف عام، وهو أيضاً الجنس الحيواني الذي تعرض إلى شبه انقراض ماحق جراء عسف العصر الجليدي الأخير، وأدى إلى ما يشبه «عنق الزجاجة التطوري»، والذي أفصح عن نفسه بحقيقة أن كل بني البشر

المعاصرين ينتسبون إلى مجموعة بشرية واحدة عاشت في شرق القارة الأفريقية منذ حوالي 70000 عام، ولم يتجاوز عدد أفرادها الذين تمكنوا من الصمود في وجه عسف العصر الجليدي الأخير أكثر من 15000 فرداً في أحسن التقديرات؛ وهي المجموعة التي هاجر أبناؤها إلى أصقاع الأرضين في سعيهم للحظيان «بالطرائد الكبيرة» التي كان لا بد من إدراكها، ليس لأهمية لحمها فقط، وإنما لأهمية جلودها، التي كانت تمثل وسيلة الدفاع الأولى التي لا بد من الاتكاء عليها لمواجهة قسوة العصر الجليدي القارس الذي لم يبدأ بالانحسار إلا منذ حوالي 11700 عاماً، ليبدأ معها تكاثر بني البشر وتزايد أعدادهم بعد تراجع مقصلة الطبيعة عن أعناقهم وحيوات ذريتهم.

ولزيادة التوضيح العلمي الذي لا بد منه، فإن كشوفات علم المورثات المعاصر تشير بشكل لا مجال فيه للمجادلة من مواقع الجاهلين، وعلى طريقتهم، إلى أن هناك تطابقاً مورثياً شبه كلي بين أبناء بني البشر المعاصرين بغض النظر عن مكان وجودهم الجغرافي سواء كان ذلك في شرق المعمورة أو غربها، أو شمالها أو جنوبها. وأن معدل التطابق الوراثي بين أي شخصين اثنين أخذا عشوائياً من أي من المليارات السبعة التي هي في طريقها لأن تصبح ثمانية قريباً والتي تعمر وجه البسيطة يصل إلى مستوى لا يقل عن 99.5%، وهو ما يعني بأن البشر فعلياً من منظار علم الأحياء وتصنيف الأجناس الحيوانية مجموعة حيوانية لا بد من توصيفها علمياً بأنها مجموعة من «الأخوة البيولوجيين»، إذ أن معدل التطابق المورثي المشاهد بين بني البشر المعاصرين لا يمكن مشاهدته في أي من الأجناس الحيوانية الأخرى ما لم تكن المجموعة المدروسة فيها أخوة أو أبناء عمومة أو خؤولة غير بعيدين في مدى قرابة الدم أو الرحم بين أفرادها، إذ أن معدل التفارق المورثي مثلاً بين أي كلبين أو حصانين أخذا عشوائياً من منطقتين جغرافيتين من وجه البسيطة لا بد أن تتجاوز حتماً نسبة 0.5% التي لا تتجاوز الفروق المورثية بين كل بني البشر حدها.

ولكيلا يجادل غير مطلع أو جاهل لقلة معرفته أو عامداً، بتلك الفروقات الشكلية التشريحية، وخاصة تلك المرتبطة باختلاف ألوان بشرة بني البشر هنا وهناك، فالجواب العلمي المبسط على ذلك مرتبط بآلية الاصطفاء الطبيعي، والذي يقف على قمة هرم مبادئها مبدأ «البقاء للأكثر صلاحية في التكيف مع الشروط البيئية المحيطة به، وإنجاب ذرية من بعده تخلفه وتنقل مورثاته إلى الأجيال اللاحقة»؛ وهو المبدأ الذي لا بد أن يفصح عن نفسه في ميدان الاختلافات التشريحية الظاهرية في ملامح ولون بشرة بني البشر، والتي تعود في كليتها إلى حاجة البشر لامتصاص أشعة الشمس فوق البنفسجية عبر جلودهم، والتي دونها يستحيل على أبدانهم تصنيع فيتامين دي، والذي دونه تصبح فرص الحياة شبه مستحيلة، إذ أن عوز فيتامين دي يعني زيادة مضطردة في احتمالات الكسور العفوية للعظام الكبرى في الجسم، واستحالة التئامها، وهو ما كان يعني وفق قوانين الاصطفاء الطبيعي حكماً بالإعدام البطيء.

ولزيادة التوضيح فإن ذوي البشرة الداكنة يتمتعون بقدرة أقل على امتصاص فيتامين دي، وهو ما يعوضه وفرة الشمس في المناطق التي تطور فيها جنس بني البشر المعاصرين «هوموسابينس» في شرق القارة الأفريقية، بالإضافة إلى الأهمية الوقائية التي توفرها البشرة الداكنة في الوقاية من سرطانات الجلد التي يسببها التعرض المزمن لأشعة الشمس، وخاصة السرطانات من طبيعة «الميلانوما»، والتي تكاد تكون شبه معدومة لدى البشر من ذوي البشرة الداكنة. وهو ما يعني عملياً بأن البشرة الداكنة التي تمتع بها كل أسلاف بني البشر المعاصرين إبان بزوغهم كجنس مستحدث في مملكة الحيوانات في شرق القارة الأفريقية مثل ميزة تكيفية مثلى للتكيف مع الشروط البيئية التي كانت محيطة بهم، ومنحتهم فرصة تفاضلية أكبر للبقاء على قيد الحياة وإنجاب ذرية من بعدهم.

وهو الواقع الذي تغير مع تحرك المجموعات البشرية المحدودة العدد من شرق القارة الأفريقية باتجاه آسيا عبر مصر وشبه جزيرة سيناء ومنها إلى باقي بقاع الأرضين،

وهو ما أدى إلى تغاير في وفرة أشعة الشمس في البقاع الجغرافية الجديدة التي حلوا عليها أفسح المجال وفق مبدأ الاصطفاء الطبيعي السالف الذكر لتزايد أعداد لأولئك البشر الذين تحدث في أجسادهم طفرات مورثية تمنحهم شحوباً في لون جلدهم من خلال ما تنتجه تلك الطفرات من انخفاض في عدد الخلايا الميلانية المسؤولة عن إنتاج مادة «الميلانين» في جلدهم، وهي المادة المسؤولة عن منح الجلد درجة شحوبه أو قتامته بحسب تركيزها في جلد الإنسان، بحيث أصبح من يتمتعون بجلد شاحب جراء طفرات عضوية حدثت خلال تخلقهم كأجنة متحلين بميزة تفاضلية تزيد من فرصهم للبقاء على قيد الحياة في البقاع الجغرافية الجديدة التي حلوا عليها، وكانت أشعة الشمس فيها أقل وفرة، إذ أن شحوب جلدهم مكنهم من امتصاص كمية أكبر من أشعة الشمس فوق البنفسجية، وبالتالي تصنيع كميات كافية من فيتامين دي بالشكل الذي أشرنا إليه آنفاً، وهو ما مكنهم بالتالي من زيادة فرص إنجابهم ذرية من بعدهم تحمل مورثاتهم نفسها وتتمتع بنفس شحوب جلدهم. وهي الميزة التفاضلية التي لم يتحل بها أقرانهم في نفس المنطقة الجغرافية التي حلوا عليها من ذوي البشرة الداكنة، والذين لم تحدث في أجسادهم في مرحلة تخلق أبدانهم في أرحام أمهاتهم طفرات عضوية أدت إلى شحوب جلدهم، وهو ما أدى إلى اندثار مورثاتهم من المجموعة البشرية التي ينتسبون إليها بسرعة لصعوبة بقائهم على قيد الحياة في ظل معاناتهم من عوز فيتامين دي، وصعوبة حظيانهم بفرصة سانحة لإنجاب ذرية من بعدهم تستطيع الحفاظ على مورثاتهم ونقلها إلى الأجيال اللاحقة. وفي نفس السياق الأخير فإن شحوب البشرة لا بد أن يزيد من خطر الإصابة بسرطانات الجلد التي يقي صبغ الميلانين الفائض في جلد ذوي البشرة الداكنة الحاملين له من شرور تلك السرطانات، وهو ما يعني بأن الاصطفاء الطبيعي، وعلى امتداد أجيال متعاقبة، كان لا بد أن ينتج نوعاً مرهفاً من التوازن ينتج عنه درجة وسطية من شحوب الجلد تمثل الحل التكيفي الأمثل للبقاء على قيد الحياة ولإنجاب ذرية لدى أفراد كل مجموعة بشرية بحسب موقعهم الجغرافي ووفرة أشعة الشمس التي يحظون بها في موطنهم، وهو توازن بيولوجي مرهف في أبدان

أولئك الأشخاص يعبر عن الدرجة الدنيا الكافية من الشحوب لإنتاج حد كاف من فيتامين دي، وبشكل لا ينتج عنه زيادة مفرطة في معدلات حدوث سرطانات الجلد لدى أبناء تلك المجموعة البشرية. وذلك التوازن البيولوجي التكيفي مع الشروط البيئية يفصح عن نفسه بالحقيقة الدامغة والتي يتعامى عنها الكثير سواء لأسباب متعلقة بجهلهم أو بتجاهلهم المتعمد والمتمثلة في أن هناك شبه اتساق في مستوى قتامة جلد بني البشر الذين يعيشون على خط عرض واحد في كوكب الأرض شرقاً و غرباً يتمتع بنفس الدرجة من وفرة أشعة الشمس بغض النظر عن توزع أولئك البشر على قارات مختلفة، كما هو المثال الشائع بين مستوى قتامة جلود سكان شبه القارة الهندية وسكان أمريكا اللاتينية وجزر الكاريبي الأصليين من الهنود الحمر، وهو ما ينطبق على سكان الأجزاء الواقعة في نفس مدى خطوط العرض التي تقع فيها تلك المناطق في آسيا وأفريقيا كما هو الحال في اليمن وعمان وجيبوتي والسودان وتشاد ومالي ومدغشقر وغيرها. وقد يستوي في هذا السياق الإشارة إلى حقائق علمية ثلاثة، أولها هو أن أكثر من 80% من سكان القارة الأوربية هم أحفاد مباشرون لمهاجرين من منطقة بلاد الرافدين وسهول كيليكية بين بلاد الشام والأناضول في حقبة زمنية تلت أفول العصر الجليدي الأخير منذ حوالي 11700 عاماً، وهو ما تؤكده الأبحاث الحديثة في علم المورثات، وهو ما يقودنا إلى الحقيقة العلمية الثانية المرتبطة بتلك الأولى، والتي تشير إلى أن السكان الأصليين الذين سكنوا غرب القارة الأوربية، وخاصة أرخبيل الجزر البريطانية كانوا من ذوي البشرة الداكنة والشعور الفاحمة والعيون الحور استناداً إلى بحوث علمية رصينة منشورة مؤخراً في أرفع المجلات العلمية المحكمة. والحقيقة الثالثة تتعلق بأن كل ذوي العيون الزرقاء من بني البشر هم أخلاف لسليف ذكر واحد تحلى بطفرة مورثية أدت إلى شحوب فائق في بشرته ولوناً أزرق في عينيه ناجم عن شبه انعدام في بدنه للخلايا الميلانية وما تفرزه من صباغ الميلانين في قزحية عينيه، وهو ما منحه ميزة تفاضلية للعيش في أقاصي شمال الكرة الأرضية التي تنخفض فيها معدلات وفرة الأشعة الشمسية إلى درجة كبيرة، ومثل شحوب جلده ميزة تفاضلية مكنته

من اقتناص كمية أكبر من أشعة الشمس فوق البنفسجية وإنتاج ما يتطلبه جسمه من فيتامين دي للبقاء على قيد الحياة في تلك المناطق الجغرافية، وبالتالي نقل مورثاته إلى ذرية تخلفه من بعده.

ونفس المنهج التحليلي السالف يمكن توسعته على كل الملامح التشريحية الأخرى التي يختلف بها بنو البشر من قبيل شكل الأنف، والذي اتساع منخريه ينسجم أكثر مع المناخات الأكثر حرارة، إذ يسمح بمرور كمية أكبر من الهواء، دون الحاجة إلى حصره لتسخينه قبل إدخاله إلى القصبات الهوائية كما هو الحال في الأنوف المستدقة الأكثر شيوعاً لدى البشر الذين استوطنوا المناطق الأكثر بُعداً عن خط الاستواء والأكثر برودة.

وهو المنهج الذي يمكن سحبه على شكل وطبيعة وقوام الشعر الذي يكسو قمة رؤوس بني البشر، فقوام الشعر الأجعد بين سكان المناطق الاستوائية، والذي إن طال يصبح كالمظلة تظلل رأس صاحبه يمثل ميزة تفاضلية أكثر ملائمة للأجواء الحارة والشمس الغامرة، لما يوفره ذلك من حماية من ضربات الشمس؛ بينما الشعر الأملس الأشيع لدى سكان المناطق الأبعد عن خط الاستواء فإنه حينما يطول فهو يمثل حماية للأكتاف والرقبة من مخاطر حروق أشعة الشمس التي تمثل الزناد القادح لتطور سرطانات الجلد، والتي تزداد احتمالات الإصابة بها لدى من تحلوا بجلد شاحب جراء طفرة حصلت في أحد أسلافهم ومكنتهم من التكيف أكثر للعيش في المناطق الأقل وفرة في أشعة الشمس، وأصبح تحليهم بشعر أملس جراء طفرة عضوية أخرى أيضاً خلال مراحل تخلقهم الجنيني ميزة تفاضلية تكيفية إضافية تزيد من فرصهم في البقاء على قيد الحياة وإنجاب ذرية من بعدهم أكثر من أقرانهم الذين لم يتحلوا بتلك الصفة الظاهرية. وهو نسق التوازن البيولوجي التكيفي الذي أنتج أنماطاً ظاهرية تكيفية قد يظن غير العارفين بأنها اختلافات جذرية بين بني البشر على عكس حقيقتها بأنها اختلافات ظاهرية تكيفية لا تغير من حقيقة التطابق شبه المطلق بين البنية الوراثية

بين كل بني البشر، وتساويهم الكامل في كل الأحياز البيولوجية الأخرى سواء كانت عقلية أو إدراكية أو سلوكية أو حركية كما يثبت ذلك علم وظائف أعضاء الجسم البشري.

وخلاصة القول إن فكرة «التفاوت العرقي» بين بني البشر فكرة هرائية لا أساس علمياً لها، ولا تستند إلا على تخرصات مخترعيها، لتبرير وحشيتهم وبربريتهم فيما دعوه إبان حقبة صعود «الاستعمار الاستيطاني المباشر» في القرن الثامن عشر بأنه «داروينية اجتماعية» تقتضي أن «البقاء للأصلح»، ناظرين إلى ذلك «الأصلح الخلبي» بأنه «الأكثر قدرة على الفتك» بأولئك الضعفاء من بني البشر الذين لم تقيض لهم ظروفهم إتقان فنون الحرب والتقتيل كما فعل الأوربيون بأبناء جلدتهم قبل أن يوسعوه إلى مظلوميهم من أبناء المستعمرات مبررين ذلك «بفوقية مختلقة وجاهلة» تنظر إلى الفروق الشكلية التكيفية بين بني البشر على أنها اختلافات بنيوية ووظيفية حقيقية فيما بينهم، بينما هي ليست إلا تلفيقات لغرض تبرير سلوك وحشي بربري أدمن الأقوياء ممارسته بحق الضعفاء غير القادرين على مقاومة ما يتعرضون إليه من جور وعسف.

ومن ناحية أخرى لا بد من الالتفات إلى ذلك الميل البيولوجي الغريزي لدى كل أبناء بني البشر للانتماء إلى مجموعة بشرية ينظرون إليها بأنها بمثابة الحصن الوحيد المتاح الاحتماء بنسيجه من عسف الطبيعة والمحيط البيئي. وهو الميل الغريزي الذي تنقى وتشذب بقوى الاصطفاء الطبيعي نفسها عبر آلاف الأجيال التي مرت في رحلة تطور الجنس البشري المعاصر الذي لولا استدماج ذلك الميل الغريزي للانتماء إلى الجماعة في عمق الدارات الدماغية البنيوية لبني البشر لما تمكن الجنس البشري من الصمود في وجه نوازل الطبيعة؛ إذ أن الإنسان ككائن بيولوجي منظوراً إليه من المنظار التشريحي المحض يكاد يكون من أكثر الكائنات الحية ضعفاً وأقل قدرة على مقاومة الظروف البيئية القاسية المحيطة به، خاصة وأنه لا يتحلى بأنياب جارحة أو مخالب ثاقبة أو فرو يكتسي به، فكان لا بد له من الاتكاء على ميزته شبه الوحيدة التفاضلية

في مملكة الحيوان، وأعني بها هنا القشرة الدماغية الجديدة، والتي مكنته من التصويت والتواصل الاجتماعي المثمر عبر اللغة، ومنحته القدرة على استخدام أصابعه بشكل حاذق، بالإضافة إلى إعطائه القدرة على التحليل والتركيب والسعي بشكل مبدع في نسق ميوله البيولوجية الغريزية التي تنقت و تشذبت برهافة وفق قوانين الاصطفاء الطبيعي، و قد يكون أحد أهم مرتكزاتها الحاجة الفطرية للانتماء إلى مجموعة بشرية لكونها الحامي الوحيد للإنسان كحيوان أعزل من كل وسائل مقاومة قوى الطبيعة سوى عقله، والذي استخدمه فيما بعد من أجل تصعيد ذلك الانتماء، وقولبته، وتأطيره في مكان رفيع تجلى في ذلك التبجيل الفكري الذي ظهر في مرحلة متأخرة من رحلة تطور الجنس البشري خلال بضعة آلاف السنين الأخيرة لما قد يستقيم دعوته «القبيلة» التي أصبحت المُعَرِّفَ الفكري العياني المشخص لذلك الوعي الفطري الغريزي الموجه لبني البشر في رحلتهم التطورية للانتماء إلى مجموعة بشرية كانت في المراحل الأولى من عمر بني البشر عائلة مصغرة ثم أصبحت عائلة موسعة بمجموعات بشرية لم يتجاوز عدد أفرادها 150 فرداً في جل رحلة تطور بني البشر من جنس البشر الحاليين، و أبناء عمومتهم و أسلافهم من الأجناس البشرية البائدة، والتي امتدت على سبعة ملايين من السنين قضوا معظمها في مرحلة الصيد والجمع والالتقاط، ولما يتزايد عدد أفراد تلك المجموعات البشرية إلا بعد استقرار بني البشر في مجتمعات زراعية منذ حوالي 12000 عاماً، وهو ما اقتضى تخليق مفهوم انتماء جديد يتجاوز العائلة المصغرة والموسعة إلى ذلك النموذج العقلي والاجتماعي للقبيلة، وما استتبع ذلك من اجتهادات عقلية لبني البشر لقوننة ذلك النموذج في ضوء ما أفرزته طبيعة الاستقرار في مجتمعات زراعية من صعوبات في البقاء على قيد الحياة في ضوء احتمالات إخفاق المحصول الزراعي، وعدم التيقن من توافر ما يقيت المجموعة البشرية والقبيلة خاصة في ضوء الازدياد المضطرد لعديد أبناء البشر مع تراجع العصر الجليدي الأخير وبدء استقرار البشر في مجتمعات زراعية، وهو ما اقتضى إعادة تبئير تعريف المجموعة البشرية التي يعيش الفرد و عائلته المباشرة في كنفها بشكل عقلي مستحدث ينظر إليها

بأنها «الحصن الحصين» الذي لا بد من القيام بكل ما هو متاح لحمايته، بالإضافة إلى استنباط «نهج مستحدث» لتعريف ذلك «الآخر» الذي ينتسب إلى مجموعات بشرية و«قبائل» أخرى، ولا بد من عقلنة «التغول على موارده»، وإخضاع الذات العقلية لما يعاكس فطرة بني البشر التي تدفع الإنسان باتجاه حفظ أي من المنتسبين إلى النوع البشري من الانقراض والاندثار البيولوجي، واستنباط مفاهيم «الغزو» و«التغاوي» و«التفاخر» بذلك السلوك في محاولة لإقناع الذات بعكس ميولها البيولوجية الفطرية لتهدئة مفاعيل الإحساس العميق بالذنب عند «التغول على حقوق وحيوات» أولئك البشر الآخرين الذين تصادف وجودهم في مجموعات بشرية و«قبائل» أخرى.

وهنا يفصح الفكر القومي عن نفسه كما لو أنه آخر «التفتقات» الفكرية التي استدعاها تعضي وانتظام وتكاثر أعداد المجموعات البشرية المستوطنة في نسق المجتمعات الاستيطانية الزراعية التي ترافق حلولها مع تصعد بني البشر من مرحلة التفاعل المنفعل مع الطبيعة إلى مرحلة تحوير شروط الطبيعة بقوة التعاون الجمعي لأولئك المنتسبين إلى مجموعة بشرية موسعة كانت في المراحل الأولى لنهوض المجتمعات الزراعية «قبيلة»، وكان لا بد من توسعتها في نسق تصعد النظم الإقطاعية لاحقاً لتصبح «نسباً قومياً مختلقاً» ليتسق مع متطلبات واشتراطات «العدد المهول من البشر» الخاضعين لسلطة «الإقطاع بصورته الملكية لاحقاً» و فئاته المهيمنة، والذين لم يعد صالحاً جمع «لفيفهم المفروق» في بوتقة «القبيلة» بعد تكاثرهم عددياً وتداخلهم وظيفياً بقوة ومفاعيل النظم الإقطاعية الملكية؛ وهو ما قامت الرأسمالية بعد انقلابها على النظم الإقطاعية السالفة لها، وحلولها محلها، باستثماره إلى أقصاه، وتوسعته، وتنميقه لغوياً وحتى فلسفياً على شاكلة النتاج الفلسفي «البليغ والصعب على الفهم» للفلاسفة الألمان من شاكلة فيخته وهيغل، لمنح «فكرة القومية» المختلقة بُعداً «فكرياً تلفيقياً» أكثر اتساعاً و مهابة يرتفع في نسق الفكر الهيغلي إلى مستوى «المطلق والأسمى»، وغيرها من التخرصات الهرائية التي تتمحور أهدافها حول توطيد القبول بفكرة نَظْم

عديد البشر الهائمين في مجتمعات عملاقة في «نسق ما» يضمن انتظام جهودهم الجمعية في خدمة «الفئات المهيمنة في المجتمع على مفاصل السلطة والثروة»، ويضمن عدم توجيه تلك الجهود في محاولة تحسين ظروف ومستوى حيوات أولئك البشر المغرقة في بؤسها جراء عملية نهب «الأقوياء الأثرياء» لكل مقدراتها، ووأدها الممنهج لكل احتمالات خروجها من قمقم بؤسها السرمدي الذي تكابد مفاعيله في حيواتها وقوتها ومستقبل أبنائها.

وفي هذا السياق الأخير لا بد من استدعاء الحقيقة العيانية المشخصة تاريخياً بذلك المخاض العسير الذي خاضته القوى الرأسمالية الناهضة، ومن قبلها القوى الإقطاعية ذات التوجهات التوسعية التغولية ممثلة بالنظم الملكية الكبرى في فرنسا وبريطانيا آنذاك، لمحاولة إدخال فكرة القومية عنوة في «وجدان وعقول أبنائها»، الذين ظلوا على شاكلة كل أقرانهم في القارة الأوربية ينظرون إلى أن انتماءهم في مرحلة تكاثر بني البشر عددياً، واستقرارهم في مجتمعات زراعية، مشخص في انتمائهم إلى المدينة أو القرية أو البلدة التي ولدوا فيها، وليس إلى دولة جامعة يتسيد عرشها ملك أو ملكة أو ما كان على شاكلته. وذلك الواقع أفصح عن نفسه بجلاء منقطع النظير في تأخر استبطان الوعي القومي في كل المدن الإيطالية والعديد من الإمارات والمدن الألمانية التي لم يتم استدماج الوعي القومي فيها على شاكلة ما حدث في بريطانيا وفرنسا إلا بقوة الحديد والنار كما كان في حروب توحيد الإمارات الألمانية بالقوة التي خاضها بسمارك لتوطيد هيمنة إمارة بروسيا على المدن الألمانية المستقلة الأخرى لتخليق «الدولة- الأمة» الألمانية بشكلها المعاصر في العام 1871، وهو ما تم استنساخه في حالة المدن الإيطالية المستقلة على يد حكام مقاطعة بيدمونت –ساردينيا ليكتمل شكله أيضاً في العام 1871، وهو ما يعني عملياً بأن تأصيل وتوطيد «فكرة القومية» بشكل يتجاوز «مفهوم الانتماء الطبيعي إلى المدينة أو القرية أو البلدة» التي ولد فيها الإنسان في مرحلة تطور البشرية المعاصرة تم بالقوة، والقسر، ولما يتم نضوجه طبيعياً بشكل يعبر عن حاجات ورغبات المجتمعات البشرية والأفراد المنتسبين إليها.

وفي نفس السياق الأخير لا بد من التطرق إلى جملة الحقائق التاريخية المرتبطة بتطور وتعضي المجتمعات الناطقة بلسان الضاد، والتي لما يتشكل فيها أي نموذج من الوعي القومي بصورته الأوربية إلى حين استجلابه عنوة من الأوربيين أنفسهم في مرحلة الحرب العالمية الأولى، حيث كان الأفراد المنتسبون إلى تلك المجتمعات قبل تلك الفترة ينظرون بشكل طبيعي إلى أن انتمائهم موزع بحصص متكاملة، حسب الحاجة والظرف الموضوعي في حينه، بين الانتماء القبلي، والمناطقي إلى مدينة أو قرية أو بلدة ما، والانتماء الديني الذي كان يمثل شكلاً من أشكال الثقافة الشعبية الجامعة أكثر من كونه تعاليماً وطقوساً صارمة. وذلك الواقع ظل يفصح عن نفسه بجلاء منقطع النظير على امتداد تاريخ السلطنة العثمانية التي مثلت استطالة متهتكة لحكم المماليك من قبلهم، والتي لم يكن يجد فيها أي من الخاضعين لحكمها بعجره وبجره أي صعوبة في تعريف ذاته «قومياً» إذ لم يكن هناك حدود جغرافية مصطنعة لا بد عليه من استبطانها حقيقة قائمة القوة، و لم يكن ليعيقه سوى مشقة الانتقال والارتحال من بقعة جغرافية إلى أخرى في حدود نفوذ السلطنة الجغرافي الشاسع إن استدعت ظروفه الحياتية ذلك، وبحيث كانت هويته التعريفية مختزلة في انتمائه المناطقي الأصلي بالإضافة إلى احتمال انطواء ذلك الانتماء على انتماء قبلي ضمني أو مشهر مع انتماء ديني واه على شاكلة «الحدس العام» باستعارة من قاموس أنطونيو غرامشي المعرفي.

وفيما يتعلق بالاعتبار السائد الذي ينظر إلى أن اللغة المشتركة هي عنصر التوحيد الأساسي الذي يمكن للمجموعات البشرية المتفاوتة الالتقاء حوله لإضفاء صفة جامعة تمحو الفروقات الداخلية والتباينات بين تلك المجموعات في عملية تذويبية تظهر صَغَارَها تجاه العنصر الجامع الأعظم ممثلاً باللغة المشتركة، فهو اعتقاد يفقد سرعته الابتدائية منطقياً عند التفكر بالحقيقة الأنثروبولوجية الثابتة على مر صيرورة تطور بني البشر الموثق كتابياً منذ بضعة آلاف من السنين، والذي يشير بوضوح إلى أن البشر يميلون إلى تبني اللغة الأكثر كفاءة في تسهيل عملية التواصل فيما بينهم، والتي يغلب أن تكون أكثر سهولة من الناحية اللغوية والقواعدية المحضة، بالإضافة إلى

العنصر الأكثر أهمية والمرتبط بميل المجموعات البشرية لتبني لغة الفئة الأكثر هيمنة **Hegemony** في أي مرحلة زمنية، سواءً كانت تلك الهيمنة ثقافية أو سياسية أو اقتصادية أو كلها مجتمعة.

والمثال الأكثر نصوعاً على تلك الحقائق الأنثروبولوجية الآنفة الذكر هو بقاء اللغة السومرية لغة شبه رسمية في بواكير تصعد الإمبراطورية الأكادية في الألف الثالث قبل الميلاد، لمدة قاربت خمسة قرون بعد ذوبان الأقوام السومرية في حياض الإمبراطورية الأكادية، وذلك جراء الوزن التاريخي التراكمي للهيمنة الثقافية الراسخة للسومريين في منطقة الهلال الخصيب منذ الألف الخامس قبل الميلاد، وهو ما مكنها من الاستمرار ثقافياً وسياسياً حتى بعد اندثارها اجتماعياً. وهو نفس الواقع الذي كرر نفسه في الألف الثاني قبل الميلاد حينما أصبحت الهيمنة للغة الأكادية راسخة في منطقة الهلال الخصيب لتصبح اللغة الأكادية اللغة الرسمية لكل الأقوام التي سكنت المنطقة على الرغم من أن لغاتها المحكية وأسماء أبنائها كانت تختلف عن منطوق اللغة الأكادية بشكل كبير كما كان الحال في حضارة الحوريين ومملكتهم ميتاني في شمال وادي الرافدين.

ويمكن توسعة ذلك بالنظر إلى تسيد اللغة الآرامية منذ النصف الثاني من الألفية الأولى قبل الميلاد وحتى القرن السابع الميلادي في جل مناطق الهلال الخصيب لتصبح بمثابة اللغة المحكية لكل أبناء المنطقة، نظراً لسهولتها القواعدية وقربها اللغوي من اللغات الأخرى المحكية في المنطقة مما جعل تبنيها الجمعي حالة طبيعية لتسهيل تواصل البشر فيما بينهم وتيسير تفاعلهم الحضاري والاقتصادي الذي أصبح ضرورة ملحة مع تزايد أعداد ونمو المجموعات البشرية في منطقة الهلال الخصيب. وقد ينطبق نفس التوصيف الأخير على اللغة العربية الراهنة التي تعتبر أقرب لغات منطقة غرب آسيا وشمال أفريقيا إلى اللغة الآرامية، والتي كان لا بد أن تتخلى عن موقع الصدارة ليحل محلها لغة الأقوام الصاعدين إلى عرش الهيمنة **Hegemony** السياسية والفكرية

الدينية والاقتصادية القادمين من شبه الجزيرة العربية في مرحلة حلول الدين الإسلامي ولغته على نفس الفضاء الجغرافي في مطلع القرن الثامن الميلادي.

وذلك التوصيف الأخير لا بد أن يقود إلى تلمس هشاشة الاتكاء على العنصر اللغوي لمضاهاته بشكل من أشكال وحدة الدم القبلية الجامعة لكل من يتحدثون بها، في محاولة لتوسعة مفهوم القبيلة بشكل يتسق مع شروط العالم المعاصر. وهي هشاشة تبدو واضحة العيان عند استذكار بأن جل سكان أمريكا الجنوبية بكل دولها حالياً وعلى اختلاف أصولهم الإثنية المختلفة التي تتنوع بين بقايا السكان الأصليين من قبائل المايا والآزتك، وأحفاد الكثير من المظلومين الذين تم استئصالهم من مجتمعاتهم في القارة الأفريقية لتحويلهم عبيداً مكبلين بأصفاد المستعمرين، بالإضافة إلى أحفاد الكثير من بقايا المستوطنين الأوربيين، يتحدثون باللغة الإسبانية أو البرتغالية، ولكن ذلك لا يجعلهم إسباناً أو برتغاليين بأي من معايير لي عنق الحقائق التاريخية والمنطقية والتي يمكن من خلالها تصنيفهم اعتباطياً في بوتقة قومية واحدة جامعة مانعة.

وقد يستقيم في نسق التحليل السالف التطرق إلى محاولة الاتكاء على ما يدعى إجمالاً بالتاريخ المشترك الذي لا بد أن يفضي إلى وحدة قومية بشكل ما بين الذين يمثلون حصيلة ذلك التاريخ المشترك، وهو خطاب تهويمي لا يستند على أي أساس من الصحة التاريخية أو الأنثروبولوجية بأي شكل كان، إذ أن تاريخ بني البشر حقيقة يتركز حول نهوضهم عقب تضاؤل أعدادهم خلال العصر الجليدي الأخير، والذي بدأ منذ حوالي 115000 عاماً و أخذ بالانحسار فقط منذ حوالي 11700 عاماً، إلى بضع مئات من البشر في عموم أرجاء البسيطة التي تمكنوا من الوصول إليها، والبقاء فيها على قيد الحياة في سياق مكابدتهم التي لا بد أنها كانت ملحمية لعسف العصر الجليدي الأخير، بشكل يومي إلى أن هناك تاريخاً واحداً لبني البشر ليس ببعيد زمنياً إذا أُخذ في سياق رحلة تطور الجنس البشري المعاصر وأسلافه و أبناء عمومته من أجناس البشر البائدين، والتي امتدت على حوالي سبعة ملايين السنين، وهو تاريخ

جامع لكل بني البشر عنوانه العريض شبه الأوحد الصراع من أجل البقاء وحفظ النوع البشري من الانقراض، وهو النوع الحيواني الذي لم يكن لديه من سلاح لمواجهة عسف الطبيعة وضواريها، سوى استخدام قدراته العقلية الفائقة للتواصل والتعاون الجمعي مع أقرانه لتعويض ضعفه البيولوجي الذي تركه عارياً من فرو يقيه برد الشتاء، ومن أنياب ينازل بها عديد الجوارح والكواسر التي تنتظر افتراسه. وهي صيرورة نهوض جنس بني البشر المعاصرين التي لا بد أن تحيلنا إلى حقيقة أن جل المناطق الجغرافية التي حل عليها البشر مثلت بشكل أو بآخر بواتق لصهر وتلاقح وتواشج المجموعات البشرية التي تصادف حلولها على تلك المناطق سواء عبر الهجرة أو بالتمدد بالقوة للتغول على موارد ومصادر حياة المجموعات الأخرى. وقد يكون مثالها الأكثر وصفية هو تاريخ الهلال الخصيب الذي قد يكون من الصعب استثناء استدماج أي حضارة في صيرورة تكوينه التاريخي بدءاً من السومريين والأكاديين والبابليين والآشوريين والكلدانيين والعيلاميين وصولاً إلى الحثيين والحوريين والفراعنة والآراميين مروراً باليونانيين وشعوب الجزر البحرية في البحر المتوسط المعروفين بحسب التوصيف «التوراتي» بالفلسطينيين، والشعوب المرتحلة في البوادي من العموريين، والفينيقيين الذين وصلت حضارتهم إلى جنوب القارة الأوربية في مدن مرسيليا وتولوز الفرنسية راهناً، وجزيرة مالطة وصقلية وسردينيا في البحر المتوسط، ووصولاً إلى الشعوب الكنعانية التي تداخلت اقتصادياً وحضارياً مع الأمهريين والنوبيين وجل القبائل التي كانت تروم القارة الأفريقية من شرقها إلى غربها. وهو نفسه الهلال الخصيب الذي ومنذ منتصف الألف الأول قبل الميلاد تعاقب على التحكم بمفاتيحه السياسية والاقتصادية الميديون والفرس والرومان الشرقيون في بيزنطة ومن ثم القبائل العربية القادمة من غرب وجنوب شبه الجزيرة العربية، وهم الذين بدورهم فتحوا الباب على مصراعيه لحلول أقوام أخرى في مراكز الثقل السياسي والعسكري في تلك المنطقة توزع بين العديد من المجموعات البشرية التي تحدثت باللغات الفارسية من إقليم خراسان، ومن ثم تلك التي تحدثت باللغات التركية من بلاد الأناضول وآسيا الوسطى وصولاً إلى السلاجقة والبويهيين

ومن ثم المماليك والأيوبيون وصولاً إلى الألبان الذين ظلوا يحكمون بشكل فعلي في منطقة بلاد الشام و مصر حتى القرن التاسع عشر. هذا كله دون تناسي عملية الصهر الكلياني التي قامت بها حملة الإسكندر المقدوني اليوناني لتلبيس المنطقة لبوساً ثقافياً واحداً في القرن الثالث قبل الميلاد كان يهدف إلى توطين الحضارة اليونانية في المنطقة بالقوة، وهو ما تحقق له فعلياً بشكل أو بآخر في حملته الشاملة التي أوصلت الحضارة اليونانية إلى عمق شبه القارة الهندية مروراً بكل المناطق الجغرافية التي مر عليها، وقد يكون أهمها الهلال الخصيب الذي قضى الإسكندر المقدوني نحبه في عاصمته بابل آنذاك في القرن الثالث قبل الميلاد.

ويصب في سياق التوصيف الأخير حقيقة أن ما يعرف بالتاريخ الموثق منذ فجر بزوغ الكتابة المسمارية والتصويرية في الألف الثالث قبل الميلاد ما هو إلا توثيق لصراعات الأقوياء فيما بينهم بدماء المستضعفين الذين لم يكن يعنيهم فعلياً انتصار هذا أو ذاك من الأفرقاء الذي سوف يتوجب عليهم دفع الجزية أو الضرائب الباهظة له. وهو ما يعني في الحقيقة أن الاستناد على مقول البشر السالفين لاستنباط حقائق دامغة جامعة مانعة حول انتساب مجموعة بشرية إلى أصل تلفيقي واحد، هو نهج لا يمت إلى النهج العلمي بصلة، وهو الذي يقوم على استخلاص النتائج من الحقائق العيانية المشخصة، والتي في حيز التاريخ المكتوب يصعب غالباً فرز الغث عن السمين فيها، والدعاية السوداء عن الحقائق أو التصورات الشخصية، نظراً لحقيقة أن جل المقهورين المستضعفين لم يقيض لهم المشاركة في كتابة التاريخ في الغالبية العظمى من منعطفات النهوض الحضري للمجموعات البشرية في عموم أرجاء الأرضين. وهو واقع عسر كتابة وتوثيق التاريخ الحق يفصح عن نفسه في حيوات البشر المعاصرين بحالة من الكوميديا السوداء تعبر عنها شجرات الأنساب الخلبية التي يتفاخر بها البشر هنا وهناك، والتي لا تختلف في غرائبيتها عن شجرة نسب عبيد الله مؤسس الدولة الفاطمية في مصر، والذي يعود أصل عائلته وأجداده إلى خراسان، و هو الذي قدم نفسه على أنه من سلالة علي بن أبي طالب القرشي المكي، وكان رده على طلب علماء الأزهر

الشريف تقديم ما يثبت صحة نسبه الشريف قبل مبايعته حاكماً لمصر وخليفة لرسول المسلمين محمد بن عبد الله القرشي المكي في القرن العاشر الميلادي، فكان رده بأن شجرة نسبه مكتوبة في صرة دراهمه الذهبية، وأن سند إثبات صحتها كامن في سيفه المزنر به، فكان له ما أراد من قبول علماء الأزهر لصحة نسبه وإسناده ومبايعته حاكماً لمصر وخليفة للمسلمين في عموم أرجاء الأرضين.

وللطرافة فإن نسبة لا تقل عن 40% من عموم المسلمين في عموم أرجاء الأرضين يحتفون بنسبهم الشريف الذي يعود إلى زين العابدين بن علي بن أبي طالب بشكل لا يختلف في نهج تلفيقه كثيراً عن نهج عبيد الله الفاطمي السالف الذكر، على الرغم من أن زين العابدين بن علي كان عليلاً ولما كان ليبقى على قيد الحياة لولا عناية وتمريض أخته زينب له، وعلى الرغم من ذلك فقد تكاثر نسله ليضم في عداده شجرات مؤلفة من الأنساب التي تعود في مآلها الأخير إليه من حدود الصين وأذربيجان في آسيا الوسطى إلى مضيق البوسفور في القارة الأوربية مروراً بأجزاء شاسعة من قارتي آسيا وأفريقيا بمجموعاتها البشرية المتعددة ولغاتها التي قد يصعب إحصاؤها.

وفيما يتعلق بالطموحات والآمال المشتركة التي يحتسبها المنظرون القوميون بمثابة عنصر جامع مانع للفيف مفروق من المجتمعات تحت راية قومية واحدة، فإن الحقيقة العلمية التي تثبتها أبحاث وظائف الدماغ والعقل البشريين تشير إلى أن كل البشر ككائنات حيوانية عاقلة واجتماعية بامتياز يستبطنون في بنيان أدمغتهم دارات دماغية تنقت عبر صيرورة الاصطفاء الطبيعي لا بد أن تجعل من طموحاتهم وآمالهم منطلقة من جملة من الأهداف الثابتة المتعلقة بحفظ النوع من الانقراض مشخصاً في السعي الفطري لتحقيق حد أدنى من الأمان والطمأنينة في الحياة اليومية المعاشة، بالتوازي مع الاجتهاد الدائب لنقل مورثات العضوية البشرية إلى الأجيال اللاحقة، وهي وظيفة بيولوجية لا يتغاير فيها أبناء بني البشر عن أي من أقرانهم في مملكة الحيوانات، وهي التي تعني بشكل عياني مشخص سعي كل فرد لتأمين قوته وقوت عياله، وضمان

سقف فوق رؤوسهم يقيهم عسف الطبيعة، بالتوازي مع الدأب لتأمين كل ما قد يسهم في الحفاظ على صحتهم من شرور الأمراض الفتاكة وغيرها، والتي قد تكون أهم أسباب اندثار بني البشر من وجودهم على وجه البسيطة. وبشكل أكثر تبسيطاً فإن طموح كل بني البشر الطبيعيين لا بد أن يتركز حول تأمين قوتهم وأمانهم وصحتهم وتعليم أبنائهم؛ وكل ما سوى ذلك فإنه لا يتعدى أن يكون انزلاقاً لبني البشر في لعبة الرأسمالية الحاذقة في تحويل ما قد يعجب الفرد ويبهره إلى حاجة ملحة لا يمكنه العيش من دونها، وبشكل يحوله من «إنسان عاقل» إلى «مستهلك نهم» لا هم له إلا الإبحار في طوفان المستهلكات التي تزين له الرأسمالية مفاتن اقتنائها بحيث تصبح هي ضالته وسبب وجوده في حياته الدنيا، في تشويه متعمد وصارخ لكل ما هو طبيعي وبنيوي في أدمغة وعقول بني البشر وتم تنقيته على امتداد سبعة ملايين من السنين بقوة الاصطفاء الطبيعي.

والواقع أن الطموحات الكبرى التي يتحذلق بها الكتاب والمنظرون وتشكل ناظماً عاماً يجمع المجموعات البشرية حولها، منذ تفتقات الفيلسوف الألماني فيخته وتنظيره للقومية الألمانية «الفائقة للعادة»، وما أنتجه من بعده هيغل في فكره التبجيلي «للدولة التنينية» الجامعة والناظمة ومحققة الإرادة التاريخية للشعب الألماني «العظيم»، ومن بعده «الفكر العنصري المتحذلق» لمارتن هايدجر في تنظيره «لرفعة القومية الألمانية» و«رسالتها التاريخية السامية» لترقية البشرية ونقلها إلى مرحلة جديدة ورتبة علياً بين جميع الأقوام الأخرى، وصولاً إلى الاستجلابات المسخية لتلك الأفكار ومحاولة توطينها عنوة في غير موضع من أرجاء المعمورة، مثلما حدث في تفتقات الفكر القومي في العالم العربي، لا تمثل إلا تورية لمشاريع مواربة تهدف إلى توطيد هيمنة الأقوياء على المستضعفين، وتبرير تلك الهيمنة بكونها تضحية لا بد منها على مذبح «القومية الخالصة» التي دون بذل «دماء المستضعفين المقهورين» لن يمكنها التصعد لتحقق «رسالتها الخالدة» بين الأمم، وهو ما يعني في الواقع «توطيد هيمنة المنافقين» من

الأقوياء الأثرياء المتلطين وراء ستارات الحذلقات الخطابية والشعارات الرنانة التي لا تغير من جوهرها البائس والمسخ شيئاً.

والتشبث بقشة «الوحدة في العادات والتقاليد والإرث الحضاري» لتبرير اختراع «قومية جامعة مانعة» قد يمثل أس تهافت المنظرين لذلك النسق الفكري القاصر والهجين في أحسن أحواله، إذ أن مفهوم العادات والتقاليد والإرث الحضاري مفهوم مطاط ومائع ولا ملامح واضحة له، فالحقيقة أن هناك درجة كبيرة من الاختلاف في الميول الشخصية بين الأفراد الذين ينتسبون إلى نفس المجموعة البشرية، وهو ما يتسق مع اكتشافات علم وظائف الدماغ والعقل البشريين التي تومي إلى أن تباين الميول والاتجاهات في خضم أي مجموعة بشرية ضروري لضمان قيام الأفراد المنتسبين إليها بكل الوظائف التي يقتضيها واجب الحفاظ على وجود المجموعة البشرية بكليتها كوحدة عضوية اجتماعية يمثل الحفاظ على كينونتها ضرورة وجودية لكل كائن بشري ينتسب إليها.

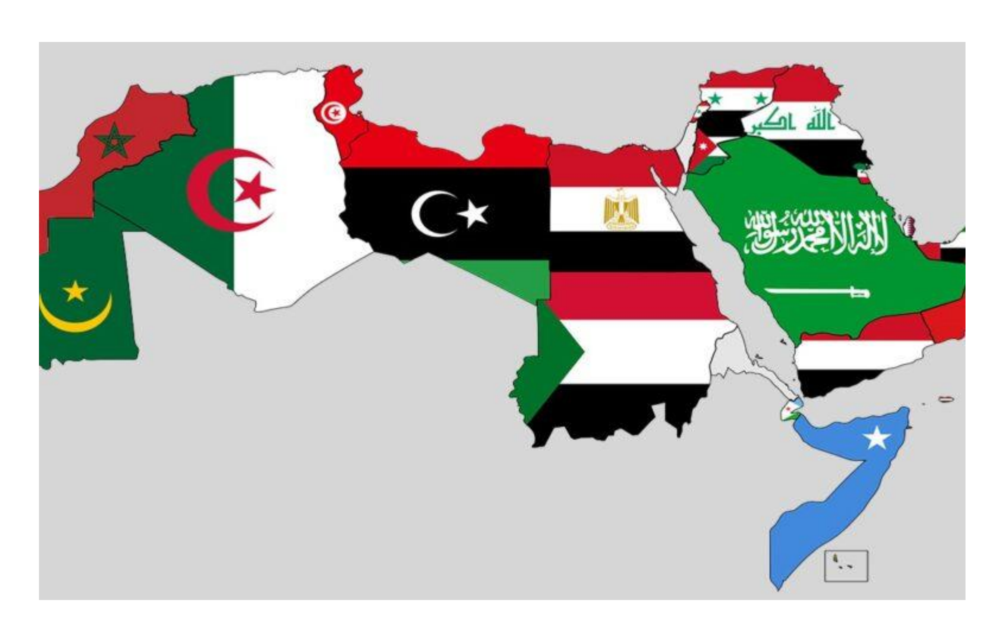
وكمثال أكثر اتساعاً وتبئيراً عن الحقيقة الآنفة فإن جل الدراسات الأنثروبولوجية تشير إلى عدم اختلاف العادات والتقاليد بمفهومها العام بين سكان البحر المتوسط على اختلاف مرجعياتهم اللغوية والإثنية والدينية. ونفس التوصيف ينطبق على ما قد يستقيم تسميته «ثقافة شعبية» بين البشر المنتمين إلى عشرات المجموعات البشرية الإثنية الممتدة من تركستان الشرقية في غرب الصين وحتى تخوم الصحراء الغربية على المحيط الأطلسي.

وفي الواقع فإن جل أدبيات الفكر القومي العربي ممثلاً بأيديولوجيا حزب البعث العربي الاشتراكي هي أدبيات مستقاة بعجرها وبجرها من فكر الفاشية الإيطالية بصورته الأكثر تنميقاً، والتي أنتجها حزب العمال الألماني القومي الاشتراكي والذي كان يدعى اختصاراً بالحزب النازي والذي قاده زعيمه أدولف هتلر إلى ما كان يحتمل تصعيده ليصل إلى مرحلة تدمير كلياني لكوكب الأرض في حال نجاحه في تصنيع قنبلة نووية في توقيت مناسب قبل تفاقم خسارته على الجبهتين الغربية والشرقية. وفيما يتعلق ببعد

«الاشتراكية» في ذلك الفكر «البربري» فهي لم تكن تعني سوى «رأسمالية خالصة للدولة» بشكل لا يختلف كثيراً عما كان سائداً في الاتحاد السوفيتي قبل انهياره، وفي «الصين الشعبية» راهناً التي تعني فيها الاشتراكية «اشتراك الشعب في الطحن السرمدي لكل مكوناته بماكينة الدولة الأمنية وحزبها القائد للدولة والمجتمع». وهو الواقع الشامل عمقاً وسطحاً وعمودياً وأفقياً في كل الأنظمة العربية التي تبنت ذلك النموذج «المسخي» من استجلاب الفكر القومي الأوروبي بأرذل صوره إلى العالم العربي، واستخدامه ذريعة لهيمنة «طغمة فاسدة مفسدة مافيوية» على مقدرات شعوبها، وتحويل تلك الأخيرة إلى «رقيق دون أغلال» لا خيار لهم إلا بالتسبيح بحمد «الطغاة القوميين الأفذاذ وقادتهم الملهمين»، الذين لم يفلحوا برغائهم القومي في العالم العربي إلا بتوطين طوفانات من البلاءات التي لم تنقطع فيه بدءاً من تأصيل بنيان الدول القمعية الشمولية الأمنية على شاكلة الجمهورية العربية المتحدة، ومن بعدها سورية الأسد، وعراق صدام حسين، وليبيا المخبول القذافي، وما أنتجته من صراعات وشقاقات وحروب بينية مع الجيران والأشقاء لم يدفع ثمنها سوى المعذبون المقهورون من البسطاء الذين هم في أحسن الأحوال أمناء على أنسابهم، وبالكاد يعرفون جدهم الثاني أو الثالث، ولم يكن يعنيهم أي من التلفيقات والتحذلقات التي لما تملأ معداتهم الخاوية أو تقي أبناءهم شر الموت الزؤام العبثي؛ وصولاً إلى نكسة حزيران وخسارة الجولان، واحتلال الشعب المظلوم في الصحراء الغربية، وخطيئة غزو الكويت، والجرائم ضد الإنسانية الفاجعة التي تم ارتكابها بحق الأقليات في غير موضع من العالم العربي، قد يكون أهمها التعامل الفاشي الذي قام به البعثيون الأرذال مع المظلومين من «الأكراد» ومعاملتهم كما لو أنهم غزاة محتلون في أرض آبائهم وأجدادهم منذ الألف الثاني قبل الميلاد، وهو ما أظهر وجهه القبيح في غير مرحلة قد يكون أكثرها قبحاً عمليات التهجير القسري والتطهير العرقي التي سماها البعثيون الأرذال على ضفتي نهر دجلة عمليات « تخليق الحزام العربي»، بالإضافة إلى عمليات الإبادة المنظمة لهم بأسلحة التدمير الشامل وغيرها كما كان في تراجيديا الإبادة الجماعية في حلبجة

وما كان على شاكلتها ولم تصل أخباره إلى المراقبين في خارج البوتقة البعثية الفاشية المافيوية.

وخلاصة القول قد يستقيم تكثيفها في التشديد على الضرورة الملحة لإعادة الاعتبار لقيمة التواصل الإنساني بين البشر على أساس احترام حقوق الإنسان الطبيعية والأساسية وعلى رأسها حق كل إنسان بالكرامة والعدالة والحرية والاحترام لكينونته الإنسانية بغض النظر عن أي تخرصات تلفيقية مصطنعة لتفريق البشر عن بعضهم، لصالح توطيد هيمنة الأقوياء الأثرياء على المقهورين المستضعفين عبر الاتكاء المخاتل الموارب أو الصفيق الصارخ على شعارات رنانة خلبية من قبيل الانتماءات القومية التي لا سند علمياً لها، والتي هي في أحسن الأحوال تفتقات بهلوانية تسعى لتوسعة وحذلقة الميولات الغريزية للانتماء إلى مجموعة بشرية أصبحت قبيلة في صيرورة استقرار البشر في المجتمعات الزراعية، وكان لا بد من مطها في مرحلة تصعد نمط الإنتاج الإمبريالي الرأسمالي وتلبيسها بلبوس لغوي وتنظيري منمق وإظهارها بحُلة جديدة على شكل «هويات قومية مصطنعة» لا تغير من جوهرها الفارغ من أي سند علمي أو تاريخي أو أنثروبولوجي أو لغوي عند النظر المتحقق المستبصر في آلية تخليقها وبؤس تلافيفها وحناياها وإفرازاتها القيحية على المستوى الكوني.



إصدارات جديدة

رواية "دوار" للروائي أحمد عزام

تغوص الرواية في عمق السلوك البشري للبطل المهزوم الفاقد للقدرة والمسلوب الإرادة؛ هذا البطل الذي عاش على أحلام وردية قاوم بها قسوة التعذيب وسطوة الموت؛ خرج بعد سنوات من الاعتقال ليجد مساحات البشاعة في المجتمع تكاد تتفوق عليها داخل معتقله الذي ألفه لسنوات... تدور أحداث القصة بفترة زمنية قصيرة لا تتعدى الأسبوع ابتداء من وصول البطل تيسير الى الأراضي التركية واصطدامه بواقع مخزٍ لا يمت للواقع الذي عاش يحلم فيه وهو صابر على كل آليات القمع والتعذيب؛ فيفجر في داخله كميات كبيرة من السخط لما عاينه من فساد في النفوس... لذلك يبدأ بالتفكير بحلم جديد؛ حلم الهروب والنجاة الى اوروبا لكن يعيده هذا الحلم في لحظة الوعي الى مكان لم يكن أبدًا بالحسبان؛ ويهوي به هذا الحلم إلى قاع جديد.... بين هاتين الرحلتين والحلمين الكابوسين يعري لنا تيسير واقع الفساد الذي نخر بالمتسلقين على الثورة والنظام على حد سواء؛ فيركز كاميرته على الهوامش والناس البسطاء الذين أكلتهم الحرب أو مجتمعات اللجوء...

الرواية مكتوبة بتقنية السارد العليم من أجوائها نقرأ:

"الساعة شارفت على الرابعة والنصف صباحاً، والخدر الذي يتلبس جسمي عاد ليشعرني بطمأنينة غريبة! هدوءٌ يحيط بي، وقلبي الآن منتظم الدقّات؛ حثثتُ الخطوّ في جادةٍ مرتفعة بعض الشيء، كنت ألاحق بعينيّ بناءً عالياً يظهر من بين الأبنية الواطئة في آخر الجادة، وكأنه فندق يتربع على الشارع المقابل للأحياء الشعبيّة، أي أن دقائق قليلة فقط تفصلني عن الشارع الرئيسيّ.

على مسافةِ أمتارٍ منّي لمحتُ فتاة تبدو دون الخامسة عشر من عمرها، تقف عند عمود إنارة على مدخل ضيّق لحارة صغيرة إلى يسار الطريق، يكشف الضوء حجاباً

على رأسها ويفضح نظراتها المرتابة المتواترة بين طرفي الطريق ثمّ إلى داخل الحارة، كما لو أنها تشيرُ لأحدٍ ما بيديها. أبطأتُ في مشيتي وقد ساورتني ريبة لرؤية فتاةٍ صغيرة تقف وحيدةً في هذه الساعة المتأخرة من الليل، تقدّمت الفتاة نحوي بابتسامة أزاحت عن وجهها وداعة الأطفال، وانجلت عن مكر وحرارة ما أوحى بمقاصد شتّى!

دقات قلبي صارت كالطبول، وبصوت لا يخلو من ارتباك ورعشة همست الفتاة:

. إذا أردت يمكنك أن تدخل من هنا، سبعون ليرة فقط.

إنها سوريّة، قلت في نفسي، ثمّ أجبت بنبرة متهدّجة:

. لم أفهم؟

أدركتُ أنني خائف.

. لا أستطيع التحدّث أكثر، قد يأتي البوليس في أي وقت، ادخل إلى تلك الحارة، البيت الأخير في الصدر، سبعون ليرة لمدّة ساعة واحدة.

قالت ذلك بتوتر سريع ولكن بنبرةٍ محايدة، ثمّ عادت مسرعة إلى مكانها، وقد خلفتني مذعوراً عاجزاً عن فهم ما قالت أو أنني لم أرد أن أصدّق ما سمعت.

. طفلة، إنها طفلة سوريّة في هذا العالم البارد تبيع جسدها الصغير، لقد قالت لي:

سبعون ليرة لساعةٍ واحدة، يا إلهي!

عاودت النظر إليها ومازلت عاجزاً عن الحراك، ولم أستدرك نفسي حين انهمرت دموعي فلم أقوَ على منعها؛ فجأةً عاودني الدوار ولكن مع رجفةٍ عاصرة في القلب هذه المرّة:

. أيّها الجسد الضعيف اللعين ما بالك؟

رحت أقترب منها رويداً رويداً وأنا أتأملها بقلق، وهي تسير داخل الحارة الضيّقة مشيرةً لي أن أتبعها، حثثت الخطى لأصل إليها مسرعاً مرتجياً لها أن تتوقف قليلاً، لقد كان

صوتي غائراً مختنقاً وأنا أصرخ بها أن توقفي، توقفت...! ثمّ قالت بنبرةِ مومسٍ تعرف اللعبة جيداً:

. لا مجال للمساومة، أو فاذهب..

تأملتُ يديها الصغيرتين، وجهها الذي لم ينكر طفولته، عينيها الخضراوين، وجسدها الصغير الهشّ، كل تلك التفاصيل جعلتني أنهار أمامها على ركبتيّ حتى استوت قامتينا، أمسكتُ كتفيها بقوّة والدموع تنهال وتنهال منّي حتى أن شهقاتي بدأت تتصاعد كنباح كلب محاولاً أن أنطق أي كلمة ولكن دون جدوى.

. لماذا؟! لماذا؟!

هذا أكثر ما استطعت قوله.

. إنك تؤلمني.

. كم عمرك ها؟ كم عمرك؟

. أرجوك قد يأتي البوليس.

قالت ذلك بقلق ثمّ انتفضت بجسدها الصغير وأفلتت كسمكةٍ من يديّ.

فُتح الباب الرابض في صدر الحيّ، فركضت الفتاة مذعورة نحوه، ولمّا زلتُ جاثياً أراقبها تدخل البيت...! امتدت يد سحبتها من يدها وأغلقت الباب.

بقيت جاثياً على ركبتيّ مشدوهاً ومتجمداً كأنني في لحظة انكشافٍ مباغتة على انهيار الزمان في عينيّ فتاةٍ صغيرة..! ظهري يتكوّر كحلزونٍ وأنا أعصر أطراف معطفي بأصابعي كمن يرغب بالقبض على خناقٍ أحدٍ ما؛ تلاشت طاقتي كلها ووقعت مستنداً على يديّ فوق بقعة ماء تجمعت في إحدى الحفر، رأيتُ صورتي في الماء، وتأملتُني طويلاً، جحافل من الرعب تتموجُ وتسكن قسمات وجهي، وجسدي تحول إلى كوخٍ مهجورٍ فقد أثاثه كله، انهلتُ بالصفعات على صورتي في الماء، ثمّ رحت ألكمني

كالمجنون والدم يخرج من يديّ بينما وجهي يتبدى على حقيقته، مشوّهاً ومبعثراً كشياطين رجيمة؛ هدأتُ قليلاً وأنا أراقب إعادة تَشكّلِ وجهي في هذه الحفرة القذرة، رأيته، وألقيت القبض عليه، وحشاً مغروراً أنانيّاً، ثمّ صحت به:

. غدار، خائن، أيّها المسخ، أيّها القاتل، لقد أخذتهم جميعاً إلى حتفهم، أنت من أودى بهم إلى ذاك الهلاك، أنت وحدك سيد هذه المأساة والغياب الموغل في الجحيم، كان عليك أن تدرك أنك لن تدفع وحدك هذا الثمن.

قلبي عليهم الآن وأنا أبكيهم وأريدهم أن يروني منتحباً لأجلهم، إذ أخشى عليّ من جهلهم بندمي.

. سامحوني، سامحوني.. أنا الذي قتلت أهلي، أنا الذي أبعدتُ "سعاد" عني، وحديَ استدرجت الفقراء من البيوت إلى الشوراع.. إلى المقابر الجماعية، ولا عزاء لي في أي نوايا حسنة كنت أتذرع بها، وحديَ المسؤول عن جسد هذه الفتاة الصغيرة التي دفعتُها لتتجاوز الحدود فتصبح مومساً في مدينةٍ باردة، وعليّ وحدي أن أدفع هذا الثمن وسأقتص لكم جميعاً.

نهضتُ وقد نال منّي الغضب مبلغاً عارماً، بقيت عيوني معلّقة على الباب الذي دخلت منه الفتاة، فالحياة في آخر الأمر موقف، وأنا هنا أمام اختبارٍ سيضع إنسانيتي على المِحك، وهذا شيءٌ مُغرٍ كي أُقتَل أو أقتُلَ في سبيله، لذلك... عليّ أن أنقذ تلك الطفلة من براثن أولئك الأوغاد الذين يتاجرون بجسدها؛ لربّما كان هذا المكان وكراً يستغل الأطفال اللاجئين الذين بقوا بلا أباءٍ ولا أمهات، بالتالي.. أنا أمام مواجهة حتميّة مع رجالٍ قد يكونوا مسلحين..

. وإن يكن.. فما قيمة حياتي الآن إن لم أرشها بشرف المحاولة؟

هذه الرشوة محببة لي وأراني الآن أستعيد شيئاً من صلابتي القديمة، فكل قضيةٍ يدافع عنها المرء تزيده مناعةً وتأهباً وتشحذ قلبه وعقله، حتى إن الدوار قد زال عني تماماً،

والدماء تتدفق من القلب بطريقة هادئة دون أي رفرفة تثير ذعري، أما حنجرتي فقد أصبحت فارغة ويمرّ منها الهواء إلى الرئتين ببرود لطيف، كذلك قدماي ثابتتان، سأمشي واثقاً لأنجزَ ما أنا مقدمٌ عليه..

. يا سلام.. ما هذه الراحة؟ إنها راحة استرداد الحق المغتصب، لقد تجلّت أمامي قضيتي التي أدافع عنها مرّةً أخرى.

في كل تفصيلٍ يتجاوز عتبة الألم تعود البوصلة التي تشدّ الجهات المبعثرة إليّ لأعلم أنني لم أنفصم حتى الآن..

. هل أنا مفصوم عندما أفكر هكذا؟ لا، أبداً.. ليس فصاماً، بل صدمة الوعي بعد لومٍ طويل للنفس، يمكنني الآن أن أدافع عن موقفٍ واحد فأبدو كأنني أدافع عن العالم بأسره.

شحذت قلبي وأنا أحمل في ذاكرتي كل القهر الذي مرّ بي منذ أن ولدتُ وحتى لحظة اقترابي من باب هؤلاء السفلة الذين يستغلون من لو شاءت الصدفة لكانت ابنتي الآن، آه يا بنتي الجميلة، سأنجو بك من هذه الهاوية التي تآمر التاريخ والجغرافيا على وضعك فيها، سأركل الباب بقدمي وأنهال بالضرب على وجوه مستغليكِ لكي لا أمنحهم الفرصة في مباغتتي بطعنةٍ غادرة قد ترميني صريعاً والدماء تنساب منّي وأنا أراقب مأساتك من بعدي، لن أسمح لخاصرتي أن تكون مكشوفة، سأحتمي بخوفي عليكِ وسأبقي غضبي على أهبة الاستعداد، لن أسقط كفارسٍ عربي عن صهوةِ انتقامي لك، هذه رسالة حبي إليك فإن مت دون بلوغ هدفي فقد استوفيتُ عذري.

وقفت قُدّام الباب وقفة المحارب الصّنديد وأنا أنفض عن جثّتي كل الانكسارات التي خلّفها الاعتقال عليها، وبركلة واحدة للباب وجدت نفسي في ساحة البيت أمام رجلٍ متوسط البنية ولكنّه ممتلئ الجسم، وحوله مجموعة من الأطفال الذين ميّزت ابنتي بينهم، ثمّ رحت ألكمه بكل ما أملك من قوّة وبي رغبةٌ أن أفقده الوعي وقد تلبَّسني الهلع

وأنا أراقب ما حولي خشية أي خروجٍ مفاجئ لمجموع الرجال الذين يعملون معه، بينما الأطفال يصرخون ويبكون حولي، وامرأةٌ تبدو في أواخر الثلاثينات، تعاني من إعاقة واضحة في إحدى قدميها، ظهرت فجأة وارتمت فوق الرجل وهي تستجديني أن أتوقف عن ضربه، إلى أن أمسكت بي فتاتي الصغيرة وهي تقبض على يدي بقوّة وتبكي صارخة بخوف:

. أرجوك دع أبي، أرجوك إنه أعمى

شعرت بأن كل شيءٍ تجمّد حولي، وعمّ الصمت أرجاء الكون.."

الرواية: دوار

الكاتب: أحمد عزام

الناشر: "موزاييك للدراسات والنشر" 2021، 182 صفحة من القطع المتوسط.



تلة يسكنها الأعداء

للكاتبة السورية فدوى العبود

"تلة يسكنها الأعداء" كتاب قصصي جديد صدر حديثاً، عن دار خطوط وظلال، للكاتبة والناقدة السورية فدوى العبود.

تقول الكاتبة في حديثها لأوراق: "هذه النصوص كتبت في عام 2020، وبعضها كتبت في عام 2019، ولكنها كتبت قبل ذلك –في داخلي– بسنوات كثيرة. كانت المشكلة؛ كيف أستطيع وعبر محدودية اللغة، نقلها إلى القارئ؟"، وتضيف: "الذاكرة، هي المكان الوحيد الذي تجولت فيه، الذاكرة العميقة لا بالمعنى المعرفي الأدائي، بل بالمعنى النفسي. عموماً، هي كتبت فوق تلة من تلال الحرب".

للكاتبة تجارب مختلفة في مجال القصة والسرد، فمنها ما نشر سابقاً في مجلات، ومنها ما ينتظر الطباعة، إضافةً إلى كتابها المشترك مع روعة سنبل (الديكاميرون 2020)، الذي ضم مجموعة قصص عربية وعالمية. Simplified Arabic

وعن تجاربها تلك، تقول العبود: "التجربة في الكتابة لا تنفصل عن تجربة الحياة، وأعتقد أن العنصر الحاسم في هذه المسألة أنني وبسبب من قراءتي للأدب الكلاسيكي، فرضت على نفسي أن أحكي حكاية، ثم اكتشفت متأخرة، أن للحكاية أساليب كثيرة تروى بها، وأن كل حكاية تفرض الأسلوب الذي تروى من خلاله. ليس المهم كيف نروي فقط، بل والأهم هنا كيف تكون نصوصنا معبرة عن عصرنا وأرواحنا..."، وتضيف: "إن تلة يسكنها الأعداء (ليست قصة بالمعنى (الحكاية أو الحبكة أو التشويق)، إنها نصوص متجاورة ومتحاورة".

لقارئ ما، قد يبدو أن فن القصة استبيح منذ زمن، لا سيما في قصص الصحف، وكذلك تجارب كثيرة ليست أكثر من سرد لأحداث واقعية، حول هذه النقطة تقول العبود: "القصة ليست إقطاعية خاصة بمجموعة قليلة، حتى تستباح، إنها رغبة في

نقل تجربتنا إلى الآخر، والكل يرغب في رواية حكايته، وهنا لا تهم الحكاية بمقدار ما يهمنا كيف تروى، وإلى أي مدى تشبهنا وتشبه حياتنا أو تعبر عنها. إن سمة الواقعية لا تقلل من أدبية نص، لكن من أي زاوية توجه له عدسة الروح والحدس والفكر!".

في زمن تندمج فيه الأنواع الأدبية وتخلق تنويعات جديدة، سألنا الكاتبة: أليس من الأفضل للشعر والقصة والمقال الأدبي القصير الاندماج في فن واحد لكن قابل لتنويعات لا حصر لها؟ لتجيب: "أعتقد أن هنالك ميلًا نحو الهجنة الثقافية، واعتقد أن الكاتب المغربي عبد الفتاح كيليطو يشكل مثالًا جيدًا في هذا الخصوص، بإبداعه نصًا عصيًا على التجنيس، وأعتقد أن طريقة رؤيتنا للعالم هي التي تنتج شكل نصوصنا السردية حوله، فقد كان العالم في عقل الإنسان منظمًا وثابتًا ومقسمًا بشكل دقيق، لذا كانت نصوصه السردية منظمة ومتسلسلة، ولكن في عالم يتسم بالسيولة، والاضطراب، في عالم مجنون، لابد للكتابة السردية أن تصبح جنونًا موازيًا... كيف أكتب بثبات في عالم ينهار؟".

لا ترى الكاتبة أن هنالك قلة في الإنتاج القصصي، وحسب رأيها، قد يبدو هذا فقط بسبب توجه الاهتمام نحو الرواية، فالمسألة متعلقة ببؤرة التركيز، إذ تقول: "أنا قارئة للرواية بالدرجة الأولى، ولكن ومنذ فترة قريبة التفت إلى القصة فوجدت غزارة في الإنتاج وقصصًا مدهشة وتجارب ثرية، ولكن ربما هنالك تقصير من النقد؟".

قراءات العبود متنوعة، وهي المفتونة بكافكا وسارتر وغاستون باشلار، وفي هذا الصدد، تقول: "حالياً، أعيد قراءة ألعاب العمر المتقدم للويس لانديرو وهو طقس سنوي، شبيه بأعياد الميلاد، وفي كل قراءة اكتشف شيئًا جديدًا. كما أنني مفتونة بغاستون باشلار. فتنتي مؤقتة بعد فترة أقع على تجربة جديدة".

غالبًا نجد لدى كتاب القصة كاتبًا عالميًا أو عربيًا مفضلًا؛ لهذا –في الختام– سألنا الكاتبة: هل تفضلين تشيخوف أم هيمنجواي أم إدغار آلان بو؟

"وكأنك تسألني أيها أقرب لقلبك الشيخ والبحر، أم أيونا العجوز، أم سقوط منزل عائلة آشر. قلبي يسع الثلاثة معًا، لي مع كل كاتب حكاية، وكل حكاية أتت في مرحلة من حياتي، كنت بأشد الحاجة إليها. حتى لأشعر أنهم كتبوا هذه الكتب من أجلي. حتى تنقذني. الإنقاذ يأتي عبر الفهم أيضًا ومع قراءة كل تجربة ينار نجم في سماء حياتنا".



"الأخضر الذي ليس شجرة"

للشاعر السوري عماد أحمد

يطل عماد من خلال ديوانه على الحب، الحرب والريف بلكنة وإحساس متفرد سلس بعيد عن التعقيد. كما اختار في بعض أغصانه؛ اليومي ليحيله إلى شعر أخضر خالص.

نقرأ من أجواء المجموعة:

أفكر أن أسوّي لكِ جنة

وأزرع حديقتها عنباً وتفاحاً

فأنا آدم

أخذل شياطيني وأطيع نفسكِ

أفكر أن أخترع لكِ جدة بنظارة سميكة

وصوت مبحوح من كثرة المواعظ

وقد أطعم عنها الدجاجات

أو أسقي لوح البقدونس بدموعي

فأنا الذئب

أشذب طمأنينتي بالخبث وأصبر

أفكر أن أزوج أباك

أختار له زوجة مكارة

وابنتين حسودتين وجارة طيبة

فأنا الأمير

أبحث عن قلبي وفردة حذائك.

ديوان: الأخضر الذي ليس شجرة

للشاعر السوري: عماد أحمد

الناشر: موزاييك للدراسات والنشر





"قواعد النشر في مجلة أوراق"

ترحب مجلة أوراق بإسهامات المفكرين والكتاب والادباء والباحثين في الاتجاهات الثقافية الفكرية والسياسية إضافة للنقد والإبداع والترجمة، وتقتصر شروط النشر في المجلة على النقاط التالية:

- ان تكون المساهمات المرسلة غير منشورة سابقا.

- أن تخلو المادة من أي إساءة لأشخاص بعينهم، وألا تتعرض لقضايا شخصية، كتصفية حسابات أو تجريح خارج سياق الموضوع.

- أن تكون المواد المرسلة بصيغة ملف وورد منسّق، وتعتذر هيئة التحرير عن الملفات المرسلة كنص عبر الهاتف أو تنسيقات أخرى غير الوورد.

- نأمل من الزملاء في الدراسات الموثقة بمصادر ومراجع أن يلتزم المساهمون بذكر اسم المؤلف وعنوان الكتاب ومكان النشر وتاريخه واسم الناشر، وفي حالة الاحالة الى مجلات يذكر اسم كاتب المقالة وعنوانها ورقم العدد وتاريخه ورقم الصفحة.

- أن لا يزيد حجم الدراسة او البحث عن خمسة آلاف كلمة إلا باتفاق سابق مع ادارة تحرير المجلة، ويفضل ارفاق الدراسة بملخص صغير عنها لا يتجاوز 50 كلمة.

- أن لا يزيد حجم مراجعات الكتب عن 1500 كلمة ويدوّن في أسفل المراجعة عنوان الكتاب واسم مؤلّفه ومكان نشره وتاريخه وعدد الصفحات.

- يرفق مع كل دراسة أو مقالة أو نص تعريف بالكاتب وعمله الحالي.

- نرجو أيضا إرفاق صورة شخصية للكاتب/ة أو صورة أو أكثر تتعلق بموضوع المادة.

- لا تعاد المواد المعتذر عن نشرها إلى أصحابها.

- يجري إعلام الكاتب بقرار هيئة التحرير خلال شهر من تاريخ تسلم النص.

- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص المجازة للنشر وفق خطتها التحريرية.

- تلتزم المجلة بنشر كل المواضيع التي توافق عليها هيئة التحرير والتي تستوفي معايير النشر الموضوعية (بالنسبة للدراسات) أو الابداعية (بالنسبة للنصوص الادبية).

- تستلم المجلة النصوص مطبوعة على بريدها الالكتروني:

awraq@syrianwa.net

ونشكر تعاون جميع الزملاء والأصدقاء الكتاب والمثقفين وأعضاء الرابطة في هذا الصدد.

هيئة التحرير: 05 /01 /2022